نحـــو الغــــد ...

قسم التأليف والنشر – جامعة الخرطوم
ص . ب ۳۲۱ الخرطوم
جمهورية السودان الديمقراطية

الطبعــة الاولى
۱۹۷۰

طبع بدار الطبـاعة
قسم التأليف والنشر – جامعة الخرطوم

نحو الغد

محمد أحمد محجوب



قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم

الفهرست



مُقَدِّمَة

مقدمة

المسطور فى لوح القدر لاشك كائن ، وعلى المرء أن يتقبله راضيا . فقد شاءت قدرة الله ان يأتي جيلي في هذه البلاد فى فترة انتقال من أصعب وأحرج مايتعرض له شعب من الشعوب ، ويزيدها خطورة ان هذا الشعب خاضع لحكم أجنبى ، ومايمكن انجازه فى بلاد حرة ناشئة فى عام واحد يحتاج انجازه هنا الى عشرات الأعوام . وكان من حظ جيلي أن يكون الوارث الشرعى لتركة مثقلة بالديون وعليه ان يصفى الحساب ويبدأ صفحة جديدة يأمل أن تكون زاهرة وباقية على الزمن يزيد اليها الجيل المقبل ويتركها بدوره للأجيال المقبلة خير تراث وأثمن زخر .

والجيل الجديد الذى أشير اليه هو الذى نشأ بعد الثورة المهدية وتلقى من العلوم الحديثة قسطا ولو يسيرا وتعرض الى تجربات جسام كانت آخر تجربة منها تجربة عام ١٩٢٤ ذلك العام الملىء بالحوادث والعبر والذى رأى بعده ابناء هذا الجيل ان لاخير فى حركة قومية أو سياسية لاتدعمها ثقافة حقة وخلق رصين ومقدرة على تعرف صعاب الحياة والخروج منها بلباقة وحسن تدبير . وان هذه المؤهلات لايمكن الحصول عليها بمجرد تلقى العلوم المدرسية بل لابد من الدراسة الحرة والإطلاع الواسع المثمر والتروى فى الأمور — المحلى منها والعالمى — ووضع الأساس لنهضة قومية فى شتى فروع الحياة ، يزينها عقل ناضج ويحميها قلب نابض وايمان قوى بالله والوطن . وكان أول مااتجه اليه ابناء هذا الجيل واقبلوا عليه اقبالا صادقا هو القراءة التى يرجى منها النفع فأخذوا يلتهمون جل ماتخرجه المطابع المصرية وبعض ماتخرجه المطابع الإنجليزية ، فهنالك من الشبان من يتوفر على دراسة العلوم الإقتصادية والسياسية وهؤلاء قلة وهنالك من يدرس الآداب ويحسن اساليب الكتابة

والخطابة فى اللغة العربية وبعضهم يضيف اليها اللغة الإنجليزية لأنهم مؤمنون بأن إجادة تلك اللغة مما تستلزمه قضية البلاد فى مقبل الأيام ، على اني لا اذيع سرا اذا قلت ان هذا النفر من أبناء البلاد قليل لايفى بالحاجة ولكن فيه الكفاية ليقود الرأى ويوجهه ويرشد الشبان الجدد الى طريق الدرس ليتكاثر العــدد . وان كان هنالك خـير تمخضت عنه حركة التثقيف التى بدأها بعض أبناء هذا الجيل فهو أنهم قـد فتحت عيونهم على النقص الثقافى المتفشى فى بلادهم فأخذوا بتلافيه فى أنفسهم أولا وهاهم قد بدءوا يشخصون الداء ويقدمون الدواء لغيرهم. وأخذوا يقدرون مطالب هذه الفترة، فترة الإنتقال، وماتحتاجه من هدم وبناء ومن حفاظ على الأخلاق والعقائد وقد اتخذوا لكل شيء أهبته وحملوا المعول والفأس يهدمون البائد المتداعى ويقطعون الأعشاب والطفيليات من النباتات، ليضعوا الأساس للنهضة المقبلة.

واول ماظهر نتاج تلك الحركة الميمونة على صفحات مجلة النهضة السودانية لصاحبها الطيب الذكر محمد عباس أبو الريش ثم على صفحات مجلة الفجر لصاحبها الطيب الذكر عرفات محمد عبد الله ، وكلتا المجلتين من عمل هذا الجيل لم يقصدمن وراءهما كسب مادى وانما كان داعى الوطن رائد صاحبيهما عليهما أطيب الثناء من الله ومن أبناء هذه البلاد .

والمقالات التى يحويها هذا الكتاب نشرت كلها فى مجلتى النهضة والفجر مابين عامى ١٩٣١ — ١٩٣٧ ، وكتبت جميعها خاصة لتينك المجلتين حيث كان لى شرف الإشتراك فى تحريرهما ، ولما كان عمل المجلتين هو النهوض بالبلد فى جميع مرافقها فقد كان من الحكمة ان يقسم العمل ، وكان من نصيبى ان اتعهد الناحية الأدبية يساعدني فى ذلك الكثيرون من أبناء هذه البلاد الذيــن جرت أقــلامهم فى صحف تينك المجلتين مشكورين وماكنت احسب ان الأيام ستدور دورتها وتحتجب النهضة ومن بعدها الفجر ويقضى ابو الريش نحبه ويلحق به فى الشهداء والصديقين عرفات الذى كان لنا القدوة والمثل يدفعنا الى العمل كلما فترت هممنا ويصيح بنا هيا الى الجهاد ، ماكنت احسبنى ستدور الأيــام دورتها وأجلس لأراجع ماكتبت فى تلك الفترة الصاخبة التى شعرنا فيها بالمسئولية الوطنية وعملنا لها ، ماكنت أحسبنى سأجلس وأراجع ماكتبت لأقدمه للناس فى كتاب بعد ان قدمته لهم فصولا متفرقة فى أزمنة متقاربة ومتباعدة. ولكن هؤلاء الرفاق الذين اشتركوا معى فى تحرير مجلتى النهضة والفجر والذين يتحملون بعض مسئولية النهوض بأعباء فترة الإنتقال مازالوا بي يحملوننى على نشر هذه الفصول فى كتاب لتكون بمثابة تمهيد لحياتنا الأدبية والإجتماعية ومازلت أعدهم وأماطلهم الى أن قيض الله لى الآن أن احقق رجاءهم عند حد رغبتهم .

هذه المقالات والمحاضرات وان كانت فصولا متفرقة إلا أنها فى جملتها تمت الى بعضها البعض بوشائج من القربي ليس فقط فى انها من نتاج قلم واحد ولكن لأنها كتبت فى شئون متقاربة وفى كثير من الأحيان يتفرع بعضها من بعض فمن حديث عن « النهوض » فى جملته الى حديث عن « كيف ينهض الأدب » ومن حديث عن «البراعة والتقدير » الى حديث عن « حياة السأمة والملل واثرها فى تأخير الفنون والآداب » . وبينما أكتب عن « أدب التجارب » تجدني أكتب عن « الشعر إلهام وصناعة »، أو عن «الشعر القومى » وفى الوقت الذى احاول فيه وضع « مثل عليا للحياة السودانيةالمقبلة » تضرب على الحيرة نطاقا من حديد فتسد على كل أبواب التفكير فأوثر أن أتحدث للقراء عن « حيرة الأديب» وكيفالسبيل الى التخلص منها . وعندما تلوح لى بارقة أمل أو بسمة إسعاد وأكتب عن « الجمال فى حياتنا » تأبي الجدود العواثر إلا ان اصطدم بحقائق الحياة ومانلقاه من عنت فى بلادنا فأتحدث الى مواطنى عن « بلاد الجحيم » وفى الآونة التى اكتب فيها مقالا عن « النقد » ومميزاته وطرقه وأحاول تطبيق تلك القواعد التى وضعتها للنقد على الصديق الشاعر صالح عبد القادر تأبي الكتب إلا ان تترى على وإلا ان تحملنى على المضى فى هذه الدراسات الأدبية فأتحدث الى القراء عن « الملاح التائه » و « الشرق والغرب يلتقيان » « و أدباء معاصرون » و « أديب » حتى اصبحت أجد هذه الكتب التى ألجأ اليها – هربا من الكتابة التى لاتألفها النفس وخصوصا إذا اتصلت ، تدفعنى الى الكتابة – وويل لمن لايدفعه الكتاب إلا الى القلم والقرطاس !

ووشيجة اخرى أقوى من هذه وأثبت : هى ان هذه المقالات والمحاضرات جميعها كتبت بغرض واحد ألا وهو وضع الأساس لحياة أدبية وإجتماعية لهذا البلد على النسق الذى يراه أبناء جيلى ويطمحون له وأراه معهم وأطمح له . فهذه الفصول إذن تمهيد لما هو آت، وهى توجيه نحو الغد المنشود، ومن هنا كانت تسمية هذا الكتاب « نحو الغد » .

ان هذا الغد قريب ولاريب آت ، ومهمة هذا الجيل ان يعمل له فرادى ومجتمعين وهذا الغد سيكون زاهرا خاليا من الإحن والضغائن وسيكون عماده الحرية الذاتية والتسامح الشامل والتعاون مع جيراننا اولا ومع بقية العالم ثانيا ، وسيقوم على ثقافة سودانية هى نتاج ثقافات متعددة ولكن بعد أن تأخذ الصبغة السودانية ، لأن السودان الجديد سيكون شعبا واسع الصدر مفتق الذهن يقبل على دراسة كل مايهمه ويتعلق بمسائله فى ثقافات كل الأمم الحاضرة والسالفة ، وسيهضم تلك الثقافات ويحولها إلى دم يجرى فى عروقه ويختلط

بدمه حتى يصبح دما سودانيا فيه كل مميزات السودان مـــن اخـــلاق وعادات وطباع . وسيقبل على خلق ادبه الخاص وفلسفته الخاصة ، لأن تخيلات اهله وأحلامهم وآمانيهم غير تخيلات واحلام واماني الأمم الأخرى ، وسيتخذ من حوادثه وأخلاق أهله وتقاليدهم مادة لفنه القصصى والشعرى ، ومن مناظر غاباته وصحاريه ووديانه مادة لفنه التصويرى ومن مشاعر أهله وإحساساتهم وحركاتهم وسكونهم مادة لموسيقاه . وكفاه الإسلام دينا ينير له طريقه الروحى .

ان هذا الغد قريب وانا اليه سائرون وكل الذى قمنا به ونقوم به ماهو إلا بعض التمهيد فى طريقنا « نحو الغد » وما هذا الكتاب إلا لبنة فى زاوية من اساس بنيان ذلك الغد المنشود ، لبنة ضمن لبنات كثيرة وضعها بعض شباب هذا الجيل من لحق منهم بربه ومن لايزال حيا عاملا فى السر والعلانيـــة .

ورجائي ان يكون هذا الكتاب بحق تمهيدا لما هو آت ، تمهيدا لمؤلفات سودانية فى الأدب والإجتماع والسياسة ، وفى جميع فروع النهوض ، ان يكون تمهيدا لثقافة سودانية حقة تساهم بدورها فى الزيادة الى خزانة العرفان العالمية . وكم يكون سرورى عظيما لو كانت تلك المؤلفات من نتاج غيرى من أبناء هذا الجيل الذين أعرفهم حق المعرفة وأعرف مقدار جهودهم فى سبيل التثقيف والنهوض بأعباء فترة الإنتقال والذين ارجو مخلصا ان يخرجوا مؤلفاتهم السجينة الى النور والحياة وان يجلوا الصدأ الذى علق بأقلامهم او كاد . أما أنا فأقسم جاهداً اننى سأواصل الجهود وسأحاول أن أقدم فى القريب العاجل لبنة أخرى لتوضع فى صرح نهضتنا المقبلة . وكما عملت فى الماضى مع أصدقائي فى الفكرة الوطنية والأدبية على تمهيد السبيل سأعمل معهم الآن وفى المستقبل لبنـــاء صرح الغد المنشود ، وحاشاى أن أتنكر « للصداقة الفكرية » وأنا حسنة من حسناتها ، عرفت بواسطتها قيمة التعاون فى الدرس والإنتاج وكيف يكون الصديق مصدر وحى وإنتاج للصديق .

وإني أرى واجبا لزامـــا على أن أقـــر الحق فى نصـــابه وأنا أقـــدم هـــــذه الفصول الى القراء ، لأن فى عنقى دينا يجب أن اؤديه لعزيز على وعليهم فقدناه فى وقت نحن فى أشد الحاجة اليه ، وذلك هو الأستاذ الطيب الذكر عرفات محمد عبد الله ،فقد كان الدافع الى كتابة معظم فصول هذا الكتاب بما يدور بينى وبينه من نقاش فى شئوننا الأدبية والإجتماعية ، أو فيما كان يتطلبه منى من فصول لمجلتى النهضة والفجر ، فقد كان رحمه الله ينبوع معرفة وأدب، وشهابا من الوطنية ملتهبا يصهر كل من يلامسه من أبناء جيله، وقد

كنت منه مكان قربي وعطف وموضع ثقة وسر وكان مني كذلك ، فأفدت منه كثيرا وتأثرت به كثيرا ، وأقل مايستحقه من الوفاء أن أثبت له فضله أمام الناس والتاريخ، وإذا صادفت هذه الفصول نجاحاً ولقيت تقديراً فللعزيز الراحل الفضل والثناء ، وإن كانت دون ما أتمنى لها فله مني حفظ الجميل والشكران وليقبل معذرتي فربما كان مني التقصير في الأداء . واني لأتوجـــه كذلك بشكري وتقديري لجميع أصدقائي الذين جمعت بيني وبينهم الفكرة الوطنية والأدبية وعملنا سوياً ولانزال نعمل في سبيل تحقيق تلك الفكرة ، لأن هذه الفصول في جملتها حسنة من حسنات تلك « الصداقة الفكرية » وأما القـــراء الأعزاء الذين تهافتوا على قراءة هذه الفصول عندما نشرت أولاً متفرقة والذين سيقبلون على قراءتها الآن فلهم مني الشكر ومن الله حسن الجزاء ، وإني لأعدهم وعـــد رجل حر على اني سأواصل القراءة لأثقف نفسي وسأواصل الكتابة لأساعد غيري من بني وطني على الأخذ بأسباب التثقيف ماوجدت الى ذلك سبيلا ، وفقنا الله جميعا لما فيه خير الوطن .

الخرطوم ٢٢ يونيو ١٩٣٩ — محمد احمد محجوب

مقالات

مجلة النهضة السودانية

١٨ اكتوبر ١٩٣١ - ٢٠ مارس ١٩٣٢



١

كيف ينهض الأدب[1]

فى عام ١٩٢٩ ميلادية كتب صديقنا محمد عشرى الصديق محاضرة عنوانها « متى ينهض الأدب » تعرض فيها بالنقد الى رأى الأستاذ المازني الذى يقول فيه إن الأدب ينهض فى عصور المشادة والجهاد والى رأى الكاتب الإنجليزى «اديسون» الذى يقول فيه ان الأدب ينهض فى كل عصور الرفاهية والهدوء والطمأنينة واستخلص من ذلك رأيه فى أن الأدب ينهض فى كل العصور والأمكنة إذا توفرت مادته ومستلزماته . ولعصور الجهاد والمشادة أدبها كما لعصور الرفاهية والطمأنينة أدبها .

وقد كانت المحاضرة قيمة أثارت إعجابي بصديقى وزادت تقديرى له وخصوصا لأنها كانت باكورة أدبه الفياض ، وكنت أقول لصديقى « ليت موضوعك كان كيف ينهض الأدب » وما كان يدور بخلدى إذ ذاك إني سأتعرض لهذا البحث فى يوم من الأيام وأخوض غماره ، ولكن الأيام كفيلة أن تبعث فى النفوس ماليس فى نياتها .

لست ميالاً الى إستقصاء معنى لفظة الأدب فى معاجم اللغة وكيف اشتقت وما الذى أكسبه إياها الإستعمال من معان لم توضع لها أصلا ، وذلك لأني لا أرى وراء هذا العناء كبير فائدة . وحسبى أن أقول إن الأدب تصوير لخلجات النفوس وإفصاح عن أدق الخفايا النفسية وتجسيد للآلام التى تشكوها الإنسانية والآمال التى ترجوها وهو أشبه شيء بصورة زيتية أحكم وضعها وحددت أجزاؤها ، تمثل شعبا بجملته وبكل مافيه من سمو وإنحطاط وحركة وجمود وفوق هذا تشف عما يصح ان يصير اليه هذا الشعب فى مقتبل أيامه وما كان عليه فى ماضيه . وما الأدب ؟ أهو تحبير الرسائل ونظم القصائد ووضع القصص والدرامات ؟ لا ! الأدب حى له كيان يقرأه الفطن فى وجوه أصحابه وفى ضربات قلوبهم

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الثالث – فى ١٨ اكتوبر ١٩٣١ .

وفى نظرات عيونهم وفى ابتسامات شفاههم وان لم يكتبوا سطراً واحداً من النثر أو يترنموا ببيت من الشعر . والأدب عندى دقة الإحساس وسمو العواطف التى يسيطر عليها العقل فلا يظهر عليها الطيش والجنون بل تبدو هادئة رزينة تنم عن الكمال فى نفس الإنسان وتغرى من حوله أن يكبروه وينظروا اليه نظرة التجلة والإحترام . هذا هو جوهر الأدب كما أفهمه .

أما الكتابة والشعر وغيرهما من ضروب الإفصاح والوان الإيضاح فما هى إلا ادوات لذلك الأدب وقوالب تنصب فيها تلك الروح فتكسبها القوة التى تزهو بها وتحببها للنفوس . وهذه القوالب سهل تعليمها وفى متناول كل مخلوق ولكن النواة التى تتوقف عليها حياة هذه القوالب لاسبيل الى خلقها وإنما هى اصيلة فى النفوس كامنة فيها تنتظـر الفرصة التى تسمح لها بالظهور والنمو – ومن فقد هذه النواة فلا داعى ان يتعب نفسه ويجهد عقله وينهك قواه فى الكتابة بعد المران والإطلاع على مختلف الأساليب والآراء لأن هذا الإطلاع لايكسبه الروح الملتهبة ذات الشرر المتطاير التى تعلو فوق صاحبها وتأتي بالبراعات وجليل الإلهام ومثل هذا إذا كتب وأجهد نفسه فليس قمينا أن يأتي شيئا جديداً وكل مايخرجه محض أشلاء ممزقة ضم بعضها الى بعض فكانت كالجثة الهامدة لايفيدها الطلاء ولايرفع مـــن قـــدرها .

وقد يبدهنى سائل : إذاً لامعنى للدراسة وإطالة البحث وماهى سوى مضيعــة للزمن فأقول لا . لابد للرجـــل من تثقيف وذلك ليلم بخلاصة الآراء فى زمانه حتى لايكـــون كالحيوانات وشتان مابين الرجلين المثقف والأديب . فالمثقف يقرأ ليسد حاجة فى نفسه ويصلح خرابا فى رأسه وذلك لكى لايتخلف فى معلـــوماته عن بقية الناس . أما الأديب فيقرأ ليرى ماوصل اليه سلفه من الزملاء وليرى مابين نفسياتهم ونفسيته مـــن شـــبه وإختلاف وليصلح ما أساءوا فهمه من أسرار الحياة وليتم مابدأوا بناءه من الأفكار الكبرى التى تمت الى صميم الحياة ولهذا لابد للأديب من أن يكثر الإطلاع ليسن سبيله فى الحياة ويكون فكرته عنها ويوجد طريقته المثلى التى يرى ان يسير عليها فى الإفصاح عن أدبه .

للأديب مكملات غير الروح التى خلقت معه وهذه المكملات هى التى تميط اللثام عن حقيقة أدبه للناس وما أحوج الناس الى فهم الناس وما أكثر تطلعهم لذلك .

ولهذا جعلت اللغات لتفك بها طلاسم النفوس ورموز الأفكار وقامت بين الناس مقـــام الوسيط تنقـــل اليهم رسالات الأديـــان والفنـــون والآداب وكـــم من الأدباء أصادفهـــم فى طريقى وأقرأ بديـــع نثرهم من نظراتهم وجميل شعرهم فى تأوهاتهـــم

ولكن الناس لايعرفون عنهم شيئا وقد يعدونهم جهلاء ومخابيل وذلك لفقدان لغة التفاهم بين نفوسهم ولو ان المقادير هيأت لهؤلاء الأدباء المجاهيل ظروفا تعلموا فيها اللغة وتملكوا ناصيتها لكان لهم شــأن غير هذ الشأن ولطؤطئت لهم الرؤوس وسجدت لهم الجباه إعترافا وتقديسا . ونحن معشر البشر طلاب فائدة لانقدر الأشياء إلا اذا استفدنا منها فلا نعد للحجر قيمة إلا اذا نصب منه تمثال فيه من جمال الفن اروعه ولانقدر للزهر ثمنا إلا اذا شممنا اريجه وكذلك لانقدر الأديب في صمته لأننا نود ان نظفر منه برأى جديد او عاطفة نبيلة فإذا مافزنا ببغيتنا منه ووجدنا فيه عنصر الفائدة ظاهرا ملموسا نبادر بتقديره واحترامه .

ان فهم الناس للأدب جد عقيم وبليد ، فهم يحسبون قيمته في طلاوة الأسلوب وانسجام العبارات وفي ضخامة الألفاظ وصعوبتها . والحق ان قيمة الأدب تظهر في قوة الأسلوب وسهولة الألفاظ وقبل كل شيء في متانة الآراء وعلى قدر وفرة نصيبها من عناصر الحياة يكون تقديرها ولايمكن ان ينهض الأدب من هوته السحيقة إلا اذا تغـير فهـم الناس لمعناه وعرفوا المحور الذى يدور عليه ولايمكن ذلك إلا اذا نفى من جماعة الأدباء كل من لاتتوفر فيه صفات الأدباء ولايصح ان يزج في عدادهم لأنه يكتب كلاما منثورا او ينظم قصيدة ويحفظ بحورا ، لأن امثال هؤلاء يجنون على الأدب جناية كبرى ويشوهون معناه في الأذهان ويبدلون مقاييسه الصحيحة ويقضون على جماله الزاهي الفتان .

وليت هذا الأدب ينهض بعد سقوطه ويعود الى بهجته لأن في نهوضه واستقامته استقامة للحياة ورفعا لمستواها . ولكن كيف ينهض الأدب وقد تحجرت المشاعر وفسدت النفوس وتبدلت الأمزجة السليمة بأمزجة سقيمة وخمدت الحواس ولم تعد تقوم بوظائفها كمــا كانت من قبل .

ينهض الأدب بجهود الجبابرة من محبيه ، تتقد فيهم شرارته ، والذين يودون صلاحه . وجهود هؤلاء الجبابرة تنحصر في تهذيب الأذواق وتحسين مقاييس الأدب وحماية ذماره وذلك بأن لايكتبوا إلا ما كان جميلا مقتبسا من المثل الأعلى للكمال ولايقبلوا سواه من نفايات الأدباء ــ وعلى محبي الأدب المخلصين له ينزل هذا العبء الثقيل ، عبء النهوض والتجديد . ولأن نعرف فداحة هذا العمل الجليل لابد لنا ان نذكر مميزات الأدب .

لايكون الأدب جديرا بالخلود إلا اذا كان مبنيا على الملاحظــة الأكيدة الدقيقــة والإستنتاج الصحيح الذى يسفر عن تجارب لاغنى للإنسانية عنها ولاتستطيع الحصول عليها إلا بواسطة ابنائها الذين وهبوا من الحواس احسها ومن المشاعر والعواطف أنبلها ، يتأثرون

بكل مايدور حولهم ويؤثرون فيه بدورهم . ومن مميزات الأدب العاطفة النبيلة الملتهبة التى يكبح جماحها العقل ويسيرها بنظام يضمن لها البقاء والإستمرار ويهذب من وحشتها حتى تكون غذاء صالحا لايعقبه تعسر فى الهضم ولاتوعك فى الصحة . وزيادة على هذه العواطف التى تثيرهـا فى النفوس هذه الملاحظات الدقيقة لابد فى الأدب من غزارة العلم والمعـرفة الشاملة للضرورى من المبادىء التى تترتـب عليها استقامة الذهـن الإنساني والمنطق الصحيح وذلك لأن الأدب فى العصر الحاضـر كاد يكـون علمـا لمـا يتطلبـه من الدقة فى الأفكار واستقصاء المصادر والمواد .

ومن مميزات الأدب متانة الأسلوب وتماسكه حتى يكون كالبنيان يشد بعضه بعضا ولا يكون الأسلوب كذلك إلا اذا توفرت فيه السهولة والإنسجام وليس المقصود بالسهولة ان ينزل الكاتب بلغته الى مستوى العامة والصعاليك، ولكن ليختار انسب الألفاظ واسهلها واجملها وان يقتصد على لفظة واحدة ان كانت تسد مكان اثنتين وان يتجنب فضول الكلام ومترادفات الألفاظ الجوفاء التى لاتحتمل معنى جميلا ولاتصور فكرة انما هى من قبيل الزخرف فى الكتابة . وما أجمل الأسلوب الذى أشبه مايكون بالحديث المسترّسل فى غير مامشدقة ولا تكلف انما هو خواطر منبعثة يفصح عنها صاحبها بأقل عدد ممكن من الألفاظ . وهذه البراعة فى الأسلوب تحتاج الى معرفة بقواعد اللغة وفقهها حتى يكون الكاتب على بينة مما يقول ولكن لا ان يتخذ هذه المعرفة سبيلا الى اختيار كل عويص من الألفاظ ويجنح الى اعقـد التراكيب التى يكثر فيها السجع والتشابه والإستعارات . وما دام الأدب نواة حية فى النفوس الموهوبة فما الأسلوب إلا قالب تنصب فيه هذه الروح ولا يكون هذا القالب جميلا إلا اذا جرى على سنة الطبيعة التى يبدو جمالها فى بساطتها .

هذه مميزات الأدب ونهوضه يسهل بتوفرها فى الأمة وعلى الأخص المشتغلين بالأدب . واذا افترضنا وجود نواة الأدب الحية فى نفوس كثير من شبابنا فكيف تتوفر المديزات الأخرى ؟ .

تتيسر الملاحظة الدقيقة التى تسفر عن التجارب المفيدة بتدريب الحواس منذ الصغر على تأدية وظائفها، وذلك بأن يترك الطفل حرا يصنع مايشاء ويعبث بكل مايقع تحت نظره او يكون فى متناوله فيعرف ان النار محرقة عندما يمس اللهب على غير وعى منه ويحرقه ويعرف أن الأكل الكثير مضر عندما يأكل فوق طاقته وتتألم معدته وهكذا حتى يعرف كيف يستعمل حواسه ويدربها على تأدية وظائفها حرة مختارة . وبذلك ينشأ وهو ذو اذن

موسيقية تقيد كل نغمات الطبيعة من صخب وهدوء وذو عين ثاقبة تخترق الحجب وترى خفايا الأمور وتعرف نماذج الجمال وترعاها وذو عقل يتلقى برقيات ويفك رموزها ويفصح عنهـــا .

وتنمو المعرفة وتزداد العلوم بكثرة الإطلاع المثمر الذى يكون صاحبه ناقدا لايقبل رأيا إلا اذا قلبه على كل وجوهه ويكثر من المقارنة بين شتى الآراء التى يقرأها او يكونها ويصفى الصحيح منها بعد أن يقتنع بمتانته. هذا وان يكون ذا طموح للمعرفة لايقنع بالقليل ولايرى للمعرفة حدا تقف عنده .

واما الأسلوب فيأتى بالمران وكثرة الإطلاع على مختلف الأساليب ، وأوضاع الكلام. وعلى صفاء الذهن وسلامة الأفكار يترتب جمال الأسلوب لأن الألفاظ هى الخيوط التى تنسج منها الأفكار ولايستطيع المرء ان يفكر بغير الفاظ . ولكن هذا الحذف والتبديل والمحو والإثبات الذى نراه عند جماعة الكتاب ماهو سوى سعى نحو الكمال وإتقان الفن ، والأديب فى هذه كالمصور سواء بسواء لأن المصور لايكتفى بوضع خطوط صورة وتوضيح أشكالها ولكنه يفــيض عليها من الألوان والظلال مايكسبها صبغة فنية .

على هذه الطريقة ينهض الأدب من عثرته ويعود اليه جماله وروعته واذ لم يكــن للأدب حماة يغارون عليه ويحفظونه من غثاثات الدخلاء وسخافات الأدعياء فلن يستطيع النهوض ولابد ان يشوه جماله . وهؤلاء الحماة هم جماعة النقاد الذين يطهرون الأدب من ارجاسه ويهذبونه ويصلحون أخطاءه ويجعلونه عزيزا مكرما لايتطلع الى شــرفه إلا من توفرت فيه مميزاته وامتزج بلحمه ودمه وسرت فيه روحه الطاهرة الملتهبة .

٢

الشمعة تحرق نفسها لتضىء للآخرين[1]

جسم نحيل يكاد يطير في الهواء لولا هذا الرأس الضخم الذى يركزه الى الأرض وجبهة عالية وعيون واسعة وعميقة وأنف لا بالكبير ولا الصغير تحته فم واسع تحيطه شفتان تبسمان عن أسنان متناسقة . قامته قصيرة وظهره محدودب وأطرافه دقيقة ولونه اسمر كثير الإشارة فى حديثه حتى تكاد تحسبه يوناني الجنس ، حماسى النبرات يساعده على الإسترسال فى الحديث ذاكرة قوية تلم بكل مايلامسها من أبسط الأشياء الى أكبرها ، وفى حديثه سحر لا لغزارة علمه أو لكثرة اطلاعه ولكن لما فى نفسه من طيب وحلاوة . تلمحه من بعد فلا ترى غير شبح تسيره الريح ويحمل شمسية لتقيه حر الشمس فيما يزعم ولكنى اعتقد أنها تساعده على السير وأخشى أن ترفعه يوما فى الهواء فيحلق كبالون صغير .

هذا هو بطلى الذى أحدثك عنه اليوم . وهو كما ترى ليس بالعملاق الذى ترتعد له الفرائص وتنكمش النفوس عند رؤيته ، ولا بالجبار الذى يثير فى النفوس دلائل الإعجاب بقوته وسمو مظهره ، ولابالفيلسوف الذى يبهر العقول بدقة آرائه وتسلسل منطقه ، ولا بالعالم الذى يفض ختم الوجود ويرينا مكنونات الطبيعه ، ولابالأديب يبهرنا ببيانه وسامى خياله . وهو كما يبدو للعين لا يصلح للحياة ولن يجدفيه المرء مايجعله يفيض فى ذكره ويتخذ منه مادة لأدبه . ولكن للرجال مميزات غير هذه. وصاحبى الذى أحدثك عنه على الرغم من هزال جسمه وتواضعه وبساطته ستجد فيه عنصرا من عناصر البقاء تضن به الحياة ولاتهبه إلا القليل من أبنائها .

عرفته منذ خمس سنوات مضت ولكن فى بادىء الأمر لم تسمح لى ظروفى أن اخالطه وأقف على حقيقته واستمع الى حديثه الجذاب الفياض وذلك لصغر سنى الذى لم يبح لى

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الخامس فى أول نوفمبر ١٩٣١ .

تبعا للعرف مجالسة أمثاله من الرجال المسنين . ولكنى لم احرم النظر الى شكله من بعد لأن عيوني كانت حرة لم يسدل العرف عليها ستارا ، ولم أمنع من ان افكر فى حركاته واشاراته ورنة صوته لأن فكرى كان بدوره طليقا وان كنت لا استطيع بث مافى نفسى أو إبداء رأيي وملاحظاتي. وشد ماكانت نفسى تجيش الى محادثته والإستفهام عن بعض أطواره التى كانت تبدو لى غريبة ، وطالما تحركت شفتاى بالسؤال ولكن سلطان العــرف يضغط عليهما فترجع الكلمات الى حيث كانت وأكل امرى الى الله راجيا أن تزول هذه العوارض وأجد سبيلى الى فهم هذه الشخصية التى راقتنى ووجدت نفسى ميلا الى احوالها وماعندها من دلائل العظمة التى لو وجدت جوا غير هذه البلد لكانت ظاهرة ملء العيون والآذان وشغل الأفكار .

وجميل هذا الزمن ، فهو قدير على تبديل الأشياء ومحو الأسباب والمسببات وعلى طمس الماضى ومافيه من آراء فاسدة . جميل هذا الزمن وبصير ، فقد دار دورته وعـــاد صاحبى الذى كنت انظر اليه بالأمس عن بعد ولا أصله وأستمع اليه ولايمكننى أن احدثه عاد وصار من جلسائي أو بالأحرى صرت من جلسائه أقاسمه دخيلة نفسه وأقف على آرائه فى مختلف نواحي الحياة، كما يقاسمني دخيلة نفسي ويقف على غريب آرائي حتى عن ذاته وعن حركاته التى كنت اعجب منها فى الماضى وعن طريقة حديثه . بل قد تعدينا هذا الدور وصرنا نمزح فيما بيننا ونرسل النكتة تلو النكتة ونتهالك فى الضحك ولانشير الى ذلك الماضى القريب الغريب إلا عن سبيل التفكه والذكرى الطيبة ، كأن يقول لى « لقــد كنت بالأمس وديعا حتى يخالك المرء أبكم لاتعرف الحديث » فأقول له « لم أكن ابكــم ولكن زمنكم كان ابكم لايحرك شفاه الصغير وإذا حركها الصغير رغم إرادته عده الزمن وقحا يستحق التأديب والعقاب على جرأته الغير محمودة » .

ان هذا الشيخ الذى تسيره الشمسية أصدقاء عديدين ولكن أعزهم عليه اثنان أحدهما رفيق صباه الذى عرفه زمن الدراسة والذى يشبهه من كل الوجوه غير انه اسود اللون داكنه وبدين الجسم ، اما حديثه فيكاد يكون نسخة من حديث ذلك الشيخ الداوى. والثاني عملاق طويل ابيض اللون قوى الساعدين كثير تقاطيب الوجه وله عينان لايستطيع المرء ان يطيل النظر اليهما . وبالإجمال فهـــو اشبه الرجال بلصوص الروايات البوليســية وصديقهما الشيــخ عنده من المميزات العقليــة والخلقية مايجعـــله يطيل الحديث عنهـــما اين جلس والتغنى بمفاخرهما والإسترسال فى ذكر فضائلهما حتى ترى حنجرته القوية مزدحمة

الألفاظ وخصوصا عندما يتحدث عن حظوظهما السيئة وكيف شاءت الأيام ان تقدم عليهما اناسا دونهما فى العلم والمقدرة والخلق . وهنا يتحمس فى حديثه حتى تخاله خطيبا يهيج الجماهير ويدفع بها الى الثورة والغليان ويشتد به الحماس الى درجة ينسى فيها صحته المنهوكة واعصابه الضعيفة فيحرق السيجارة تلو الأخرى ويرسل دخانها فى الهواء ومعه تأوهات صدره الحزين على ضياع الفرص التى لم تنل صديقيه من المكانة وسمو المركز مايخوله لهما العلم والنبوغ .

ولذلك الشيخ الفاني روح قوية وذهن جبار وذاكرة تقيد كل مايمر بها ولاتنساه على مر الزمان . وماذكر له رجل من الرجال المعاصرين إلا قص عنه فصلا ممتعا مع ذكـر الأماكن والمناسبات ، فهو من هذه الناحية مؤرخ لايكتفى بالسرد ولكنه يسهب فى التحليل والإستنتاج . وله طريقة فى القصص ممتعة تجعل سامعيه على إتصال تام به . ولايخلو حديثه من الفكاهة الحلوة المهذبة وهو كما ترى عنده من المميزات الشىء الكثير ولكنه لايكاد يذكر نفسه بجانب صديقيه ، فقد افنى شخصه فى شخصيهما ووقف نفسه على الدفاع عنهما والدعاية لهما ، وطالما حدثنى وعليه نشوة الفخر والظفر « ان صديقى صالحـا الذى كان رفيق صباى ولازال لمن خيرة المدرسين سعة علم وغزارة إطلاع ، وله معرفة باللغة العربية لامثيل لها ،وهو يقرض من الشعر جيده وبسهولة وسرعة مدهشة. واما معرفته باللغة الإنجليزية فحدث عنها ولاحرج فهو صاحب المواقف المشهورة مع الإنجليز وغير الإنجليز وهو صاحب الخلق المتين الذى لايعرف الرياء ولا الزلفى وصاحب المبدأ الثابت ولو شاء ان يبيع عزة نفسه لنال أسمى الدرجات ولكنه لايرضى بعزة نفسه بديلا وهيهات فكم سنحت له الفرص وركلها بقدميه وقال : لن تخدعنى الحياة بزخرفها .

وما يكاد ينتهى من حديثه عن صالح إلا واستجمع قواه وهدأ ساكنه واخذ يحدثنى عن صديقه « جاك » وجاك هو الاسم الذى نحله اياه لما له من الإلمام بسائر الفنون والعلوم فيقول « جاك : لله العجب انه الرجل الذى يعرف كيف يضحى فى سبيل أصدقائه ووطنه. الم يكن يدافع عن فريق من الموظفين باللغة الإنجليزية الصحيحة التى لايعرفها غير الإنجليز ولايضع كلمة إلا اذا عرف مؤداها وكل مايصح ان تحتمله من المعاني ويدلى فى تقاريره بأنضج الآراء وناصع الحجج حتى انالهم حقوقهم وليس له من صالح فى ذلك بل كان يعرض نفسه الى خطر ماحق ، ثم الم يضح بالوظيفة عند ما دعاه هاتف الضمير وذهب يضرب فى آفاق الأرض ينشر الدعاية لبلده بما عنده من غزارة المعرفة وقوة الحجة وتسلسل المنطق

ومرت عليه من المصائب والآلام أقساها فلم تغيره ولم تبدل من صادق عزمه وأكيد حبه لبلده ؟ ثم بعد كل هذا لايقام له في هذا البلد وزن. ان بلدكم هـــذا عقيم لايرحب بعظماء الرجال ولكن دعني أمسك عن الحديث فليس اللسان طليقاً ومن الأشياء مالا يحمد ذكره » .

وهكذا يتحدث عن صديقيه وعن غيرهما من أصدقائه العديدين ولايكاد يذكر نفسه وطالما حدثتني نفسي قائلة : « ماهذا الرجل يسهب في ذكر غيره وهو لاينقصه ماعندهم من المواهب وهل فيه ضعف نفسي وعدم شعور بمواهبه ومميزاته أم هو من عباد البطولة والمغرمين بالأبطال والتحدث عنهم ؟ » وكثيرا ماهممت أن أسأله عن هذا السبب الى ان اخبرني صديقه « جاك » قائلا : « ان هذا الرجل طيب النفس حلو الطباع ولقد فقد الأنانية بل لم يعرفها ، وهو كثيرا مايعرض نفسه للأخطار في سبيل الغير ونفعهم وها أنت تراه يشيد بذكر غيره ولايعبأ بنفسه ولولا سوء بلدكم هذا الذى لايقدر الرجال في صمتهم ولايلتفت اليهم إلا اذا ضربوا الطبول والزمور وملئوا الجو صراخا بلفظة « انا » لكان له غير هذا الشأن ولكنه مسكين » .

ومن ذلك اليوم زاد تقديرى لهذا البطل الهزيل الجسم القوى الروح ، ولو كان في مقدورى أن أظهره للعالم لفعلت ولكن هيهات فهو محجوب لايحب الظهور ، بودى أن أذكر إسمه ولكنه لايريد أن يبين في الحياة إسمه لأنه « كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للآخرين » .

٣

قيمة الحياة في الخلق والابتكار (١)

أقصد بالحياة فترة الزمن التى نعيشها من يوم أن ترسل بنا امهاتنا الى رحبة هذه الأرض الى اليوم الذى ندخل فيه الى ضيق اللحد. وهذه الفترة من الزمن على إختلاف إمتدادها والظروف التى تحيط بها من خيرات وشرور وحرية وعبودية وصحة ومرض وما يمر فيها من يسر وعسر وغنى وفقر ومايحدث فيها من إزدهار فى الإجتماع وويلات، لها قيمة يحق للمرء أن يفقهها وأن يسعى لإدراكها ما استطاع الى ذلك سبيلاحتى لايضيع فرصة الحياة سدى ويخرج منها كما دخل اليها دون ان يغوص الى اعماقها ويكتشف مخبآتها أو على الأقل ان يعرف نفسه ويسبر أغوارها وفى ذلك وحده طعم الفوز.

يقول علماء النفس للمرء عالمان عالم خارجى وعالم باطنى اما العالم الخارجى فهو عالم الحركة والمادة عالم المجاملات والكلف الذى نمثله على مسرح الحياة فى معاملاتنا مع الأصدقاء والمعارف وذوى القربي. والذى فيه من الزلفى والتصنع ماتستحى منه أنفسنا إذا عرفنا دخائلنا ووقفنا على أسرار العالم الباطنى الذى لايكذب ولايموه، انما يصور فيه كل شيء على حقيقته وتبقى فيه أدق الملاحظات والتأثرات وتتراكم وتكون جسداً واحداً هو ذاته الصحيحة التى لو نطقت لقالت لكل من نخادعه قائلين له نحبك لقالت له أبغضك، ولقالت لكل من نقول له جد بنا الشوق، لا أود أن أراك. وهكذا إلى آخر متناقضات الحياة عندناعالم البشر، ولا تظهر قيمة الحياة للإنسان إلا إذا إتفق عالماه الخارجى والباطنى فى جميع أقواله وأفعاله وسكونه وحركاته، وذلك أن يماذج بين الحياة المادية، حياة الحديث والعمل فى الأسواق الدنيوية طلبا للفائدة وحياة الفكر والروح، ويحق لى أن أقول الأحلام، لان الفكر لايقنع بالذى يراه ولكنه ينسج من خيوط الخيال عالما ثانيا يحيا فيه ويرجو أن يجذب اليه الجسم ليحيا فى

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد السابع – فى ١٥ نوفمبر ١٩٣١.

ذلك العـالم الجميل . ومستحيل ان يصل الإنسان هذا المستوى من الكمال إذا لم يكن قادراً على فهم الحياة وإدراك أسرارها حتى يندمج فى العالم ويكون ذرة من ذراته يعمل للوصول الى الغرض الأساسى من هذه الحياة .

ولأن نفهم الحياة لابد لنـا أن نلم بوجهات النظر الثلاث المكونة للمعرفة الإنسانية المترامية الأطراف ذات المدد الدائم ووجهات النظر هى : الفنية والفلسفية والعلمية. وإذا تمكن الإنسان من الإلمام بمبادىء فروع المعرفة وتربية ملكاته صار قمينا بفهم كـل مايصادفه فى الحياة من المعضلات، وان يخرج برأى عن كل مايعرض له من المسائل، وجدير بالمرء معرفة الحياة وادراك نفسه وهو قمين بعـد هذا ان يفكر فى معنى الحياة وقيمتها وان هذا التفكير المستمر لابد ان يخلق عند المـرء ملكة الإبتكار التى إذا توفرت لدى الإنسان جعلته يحس قيمة الحياة؛ وماقيمة الحياة إلا فى ازدياد عناصر الحياة .

قيمة الحياة فى الخلق والإبتكار وان المرء الذى يقضى عمره دون ان يأتي بشيء جديد يزيد فى خزينة العرفان العالمية لايشعر بقيمة الحياة ولايذوق لها لذة لأن الإبتكار من أعز الصفات للإنسان، وهى وحدها التى تميزه عن سائر المخلوقات. وليس الغرض من خلقنا ان نأكل ونشرب ونتزوج لنزيد عدد النسل، ولكن الغرض أسمى من ذلك ألا وهو تمجيد الخالق الذى فطرنا . وأحسن أنواع العبادات تتوفر فى الإلمام بالأسرار التى أودعها فى اختلاف الليل والنهار وتعاقب الفصول وفى خلق الجميل من البشر والقبيح والطويل والقصير والنابه والغبى وفى شتى الوان الطبيعية وأنغامها، وقبل كل شيء فى فهم ذاتنا وما أودع فيها من أسرار عين ترى وأذن تسمع وأنف يشم ولسان ينطق وأعضاء تحس وفوق ذلك عقل يفكر ويستنبط وعواطف تلتهب وتظهر تأثيراتها فى غضون وجوهنا وفى ضربات قلوبنا . أليس فى هذا متسع لكل من شاء ان يستثمر مواهبه ويؤدى وظيفته فى الحياة .

قيمة الحياة فى درس الحياة وفك رموزها والإبتكار فيها، ولايتيسر ذلك إلا اذا توفرت لدى الإنسان الملكات الثلاث الفنية والفلسفية والعلمية، ولكن هل معنى هذا ان نفقد قيمة الحياة إذا تعسر علينا إجتماع هذه الملكات دفعة واحدة ؟ لا فقد تغنى إحداهن عن الباقيتين وتساعد على فهم الحياة والإبتكار فيها . وبعض الناس يختار الملكة الفنية لأن فيها الإفصاح عن أسرار النفوس وتقدير جمال الطبيعة ولأن الفن قوامه الخيال والرؤيا وكل فكرة فى هذا الوجود لابد لها من وجود فى عالم الخيال قبل أن تدخل فى طور التجربة وتأخذ الشكل والأوضاع .

وعندى ان الملكة الفلسفية أولى الثلاثة بالعناية والتدريب وذلك لأن الفلسفة مزيج من الفن والعلم . فيها من الفن رائع خياله ودقيق تعابيره ومن العلم إطالة البحث وعمق التفكير وإستقصاء الحقائق، والفلسفة بلا شك أساس المعرفة فى هذا الوجود وهى أوسع الميادين للخلق والإبتكار وكثير من الأسئلة معلقة لا يجد الفن لها جوابا ولا العلم ولكن فى وسع الفلسفة أن تجد لهذه الأسئلة حلولا تناسبها، وفى وسع كل منا أن يجتهد ويكون صاحب هذه الحلول .

وما أحوجنا الى تذوق قيمة الحياة وقد أبنا ان قيمتها فى الخلق والإبتكار ولاسبيل اليهما الا بالدرس والإطلاع فى مختلف أنحاء الحياة ومختلف ما أخرجه الفكر الإنساني من منتوجات. وان هذا الدرس الطويل والإطلاع المضنى يحوجان المرء الى تعب فى الجسم والعقل ولكن هذا التعب ستعقبة لذة الفوز والإنتصار على معضلات الوجود، وسيكون أساسا للسعادة الأبدية والخلود بعد إنتهاء فترة الحياة . قيمة الحياة فى مايعقبها من خلود ولاسبيل الى الخلود إلا بالخلق والإبتكار ، ولهذا قلنا قيمة الحياة فى الخلق والإبتكار . ومن شاء منا أن يتذوق قيمة الحياة فليشق طريقه فى هذاالميدان ويعبده وليوطد النفس على أتعابه وتكاليفه وماأكثرها ولكن فى سبيل الحياة يهون كل مافى الحياة ... تسأل لماذا ؟ وجوابي ينحصر فى الآتي :—

ان الفنون على إختلافها يجد الإنسان فيها تجسيدا لعالمه الباطنى الذى يوضحه الموسيقى فى الحانه التى تسجل أشجان كثير من النفوس وأفراحها وتكون عونا للناس يسمعون فيها دخائل نفوسهم ، ويرسمها على لوحته المصور الذى لايكتفى بتصوير الشكل الخارجى يفيض عليه من فنه جلالاً يبين التأثرات النفسية فى تقاطيع الوجه وفى نظرات العيون وابتسامات الشفاه ، وكذلك فى شعر الشاعر إفصاح عن خفايا النفوس والعواطف الجياشة كما ان الناثر يرسل على القرطاس هواجس الأفئدة وخطرات العقول . والفن لسان الحياة الناطق بما فيها من جمال والمفصح عما فيها من سحر حلال ، وليس الفنان من يفصح عن حالاته الشخصية، ولكن من يتخذ من نفسه كونا غاصا بالمخلوقات وضوضاء الحياة ويقدر ماتلاقيه النفوس الأخرى فيخلده فى فنه ويفترض فى كل إنسان أن يكون فنانا بطبعه، وذلك لأن الإنسان عندما خلق وهب عينا تنظر الجمال وترعاه والقبح وتمقته ولكن هذه الهبة تتفاوت حسب الناس فمن كثرت عنده وفاضت جعل يخرج آيات من الفن بينات ومن قلت عنده جعل يتطلع الى مايخرجه الفنانون من شروح وإيضاح لأسرار الحياة

ويتلمس فهم نفسه وترجمة عواطفه في موسيقاهم وصورهم وأشعارهم .

والفلسفة بما فيها من الأسئلة الدقيقة العويصة والإستفهامات التي يتعسر الجواب عليها وبما فيها من التعمق في درس حالات الإنسان وأطواره وأصاله الذى جاء منه ومصيره، تفتح مغالق النفوس وتكشف طواياها . ومن منا لايفتأ دائم السؤال عن معنى الوجود الذى حارت العقول في سره ومعرفة كنهه وقبل أن يجد لذلك جوابا تراه يسأل عن المصير وهنا تضل العقول وتبدأ فترة التيه والحيرة التى لانهاية لها . وكثيراً مانسأل عن أشياء تأتيها بإستمرار ولاندرى مسبباتها ولانعرف مصدرها ونظل كذلك نرسل السؤال تلو السؤال وإذا عثرنا على جواب لواحد منها نعده فتحا على عالم الرأى والفلسفة . ولكن سرعان ماتبدهنا الحياة بسؤال جديد. وكل امرىء فى نفسه فيلسوف ولكن على قدر معلوم وان لفظة « لماذا » هذه أساس لكل الفلسفات، وكلما كان الذى نرمى اليه دقيقا كان الجواب عصيبا وكان حجرا فى بناء صرح الفلسفة الذى تشترك فيه العصور على اختلافها . وان الفلاسفة الذين نقرأهم باعجاب ونقدس آراءهم لايمتازون عنا بشىء سوى انهم قادرون على إجابة مايعترضهم من الأسئلة فى حياتهم وحياة غيرهم، ولهذا هم الملجأ الذى نرجع اليه لنعرف أنفسنا ونفهم أسرارنا وندرى سر وجودنا ومصيرنا . والفلسفة ضرورية لكل امرىء إذا شاء أن يحيا حياة طيبة واضحة لايعكرها غموض ولانقص فى المعرفة وان الغضب والسرور والإستياء من الحياة كل هذه تأثرات ظاهرية تذهب إذا شرحنا مسبباتها الخفية ولن نعرفها إلا إذا ألفنا الفلسفة واحببناها وملنا اليها ميلا صادقا لنطرح عندها هموم الحياة .

والعلم هو كاشف أسرار الوجود والقاض لختم الطبيعة وهو الوسيلة التى يعرف بها الإنسان طبيعة مايدور حوله من الأفلاك ومايحويه كوكبنا هذا من العجائب . وكل إكتشاف فى العلم يفتح السبيل الى عشرات من الإكتشافات تليه وتتوقف عليه ويمهد الطريق لحل مئات من المسائل المعلقة التى لايصل اليها الفكر إلا عن طريق هذا الإكتشاف الذى يعطى فكرة عنها ويشجع العقل الإنساني ليسعى الى معرفتها ، والعلم بما فيه من التجارب الملموسة يصور للإنسان قدرة مهندس هذا الكون الذى أودع كل ذرة من ذراته سراً من أسرار عظمته وبرهاناً على كماله وجلاله ومن هذا يتضح ان فى الفنون والفلسفة والعلوم مجالا لمعرفة الكون وفهم النفس إذا إجتمعت لدى الإنسان مقومات فروع المعرفة الإنسانية الثلاثة .

٤

الحياة كما أجدها (١)

لست أدرى كيف كان شعورى يوم أرسلت بى أمى الى هذه الأرض لأني بلاشك كنت طفلا جاهلا لايعرف لغة هذا العالم الذى يهبطه ولايدرى ظواهره ناهيك عن باطنه ولكننا عالم البشر وان اختلفت قوالبنا نتفق فى كثير من مظاهرنا ولذا أستطيع أن أرى فى حياة غيرى من الأطفال وشعورهم صورة لحياتي الماضية فى المهد . وفى البيت أعبره من الجدار الى الجدار وفى الشارع أزحمه مع رفاقى ضجة ونثيره غباراً . وإني لأرى الأطفال على وجه الإجمال يهبطون العالم صارخين ولكن لست أدرى أهى صرخة الألم والإبتئاس من هذا العالم الذى ينزلون الى بحره ذى الأمواج المصطخبة ولاقدرة لهم على السباحة ! ؟ أم هتاف السرور والإبتهاج بالنزول الى حياة العراك والصدام . وبدهى اني صرخت يوم جئت هذه الأرض وأجزم ان صرختى كانت مزيجا من الألم والسرور : الألم من أوضار هذا العالم الذى أنكره تماما ، والسرور بمقبل العراك والصدام الذى أجول فى ميدانه الآن .

لعبت كثيراً ومرحت ولكنه لعب الجاهل بما ينتظره من أعباء الطريق وفداحة المسئولية لعب الطفل الذى لايدرى ان أعراس الحياة إستعداد لمآتمها وان بسمات السرور مقدمة لتقطيب الجبين وبسمة السخرية . ولو كنت أدرى آنذاك إن الحياة ستبدل نظامها وسأصير مسئولا أمام ضميرى وأمام أهلى ووطنى لما لعبت بل لقطبت الجبين وأرسلت الآهات وسرحت الفكر فى مقبل الأيام أفضى من أسفارها وأفضح ظلماتها لأرى ماخبأه القدر من السطور فى لوحه.. ولكن هيهات ان ندرى مصيرنا ! فنحن نتنزل الحياة جهلاء بما فيها ونقطع مرحلتها ولاندرى إلا الساعة التى نحن فيها إلى أن تفارق الحياة ونحن جهلاء بما

(١) نشر بمجلة النهضة السودانية – العدد التاسع – فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣١

سيصير اليه أمرنا . وكأن الله شاءت قدرته قدر أن يظل عالم البشر فى عماء شامل لايكشف ظلمته إلا ظـــلام القبر وهو أحلك من سابقه .

الحياة تختلف حسب نظرات الناس اليها وشعورهم نحوها واحساسهم بها ، ولذا ليس بالغريب أن نرى هذا الإختلاف بين الناس فى المشارب والأمزجة ، فهذا يجد لذته فى المرح واللهو ، وذاك يجدها فى التعب ، وثالث فى القوة ، ورابع فى الدرس وإستقصاء الحقائق ، وخامس فى تعقب الناس وفضح أسرارهم الى آخر ضروب الحياة المختلفة . وهذا الإختلاف ناشىء عن البيئات التى يعيش فيها الأفراد والجو الذى يحيط بهم واساليب الحياة التى يجدون عليها ذويهم، وطبيعة البلاد التى يسكنونها ، وظروفها الماضية والحاضرة التى تتمخض عن المستقبل بشروره وخيراته التى لايعرف كنهها .

ولكن لهذا الإختلاف نقطة إتفاق عامة تلتقى عندها كل السبل ! والناس لايتفقون إلا فى السخط على الحياة والملال منها . فهم يجدونها مهما إختلفت الوانها عبئاً ثقيلا لا يطيقونه ، ولقمة مريرة لايسيغونها ، وبودهم لو يظهر الواحد منهم بحظ أخيه الذى بدوره يطمع فى حظ ذلك الساخط على حظه . وقديما قال سقراط «إذا جمعت كل مصائب البشر فى مخزن عام وقسمت بالتساوى لوجد أتعس الناس نفسه أتعس من قبل » وذلك لأن الإنسان لايقنع بالذى فى يده بل هو دائم البحث عن سواه ظناً منه إن فى مايبحث عنه الخير كله ولكنه مايكاد يظفر به إلا يخلفه وراءه ويظل يبحث عن سواه ومطامع الإنسان هى سبب شقائه ولن يضع لها حداً إلا الموت خاتمة المسرات والآلام فى هذا الوجود .

إني لأجد من الحياة غبنا يحز فى نفسى ويؤلمنى كثيراً وذلك لأني أراني متخلفا عن كثير من المحظوظين الذين تهبهم الحياة بغير حساب وتفتح لهم خزائنها فينالون من الثراء مايجعلهم ناعمى البال يلبسون من الثياب أفخرها ويأكلون ويشربون مالذ وطاب من أنواع المآكل والمشارب وينهبون الأرض بسياراتهم الفخمة ويمرون بجانبى وأنا فى شبه غيبوبة عن هذا العالم بآلامى التى أقاسيها وآمالى التى أعلل النفس بها وأخادعها بأن الأيـــام ستنفذها وأنا عليم بكذب هذه الأماني التى ينسجها خيالى وتقبلها نفسى المسكينة المحزونة. ولكن فى إستغنائى عن الحياة وسخطى عليها انانية منى لا اشعر بها إلا حين افكر فيما قد يخامر اولئك المثرين من الأفكار والآلام ، ومايجدونه من وخز الضمير عند مايرون الفقير يتألم ويحاولون انقاذه ولكـــن شيطان الجشع يقف دون مايقصدون اليه . لا أشعر بتلك الأنانية إلا حين أرى ان لأولئك المثرين آلامهم وآمالهم التى ينسجها خيالهم ولايجدون الى تنفيذها سبيلا . وهنا

أثوب الى رشدى وأرثي لحالهم وأحاول أن أرفه عنهم غير ان شيطان الغيرة والحسد يهمس فى اذني قائلا « انهم لم يعطفوا عليك فى فقرك ولم يقاسموك آلامك فلماذا تود ان تخفف من آلامهم » وأنتهى الى النتيجة الطبيعية ألا وهى : كلنا يبغى الحياة لنفسه والحياة لاتعبأ بالجميع ولايسعنى إلا أن أبسم فى وجه الحياة أخادعها لتعطف على وأتمسح بأعتابها لتمسح دموعى وإن أبت واستكبرت قطبت الجبين وليت عنها منصرفا الى همومى أخففها بجهدى غير طامع فى عطف الحياة فهى جد قاسية .

أجد الحياة فى هذا البلد سجنا للأجسام والأرواح، وكم فى هذا السجن من أغلال ثقيلة وأعباء مرهقة، فالأجسام خاضعة لسلطان الجو الذى يبعث فيها فتورا طبيعيا وكسلا شاملا يمنعها من تأدية واجبها والقيام بما تفرضه عليها الحياة من ضريبة تقدمها لخزينة الإنسانية العامة . وان نظام الحياة العتيق الذى نسلكه والذى لايتفق ومطالب العصر من حيث السرعة والنشاط ومن حيث الإنتاج فى نواحى الحياة الكثيرة الألوان ، وان ضيق نظام التعليم وتعسر سبيله بل وفقدانه ، وماتلاقيه الأفكار من الحجر وضيق الخناق ، كل هذا يجعل الأرواح سجينة تقيدها أغلال العرف والمجتمع وإجحاف الحظوظ . وما أكثر ماشعرت نفسى بفداحة هذا السجن الذى أوجدت فيه مطلوقة اليدين والساقين ولكن مغلولة الفكر والروح وكأنما قد قضى عليها بالشقاء الأبدى والعقم الذى يؤلم النفس أكثر من سواه .

وما أحب الحرية الى النفوس وما أكثر تشوقها اليها، ولكن لاسبيل الى نيلها والتمتع بها فى حدود دائرتها لأن للحرية قيودها كما يقول الفلاسفة . واني كلما شعرت بأني سجين فى هذا العالم الذى أسكنه تزداد آلامى ويخفق قلبى ألما حتى يكاد يطير من بين أضلعى وهذا الشعور يجعلنى دائم السعى لفك هذه الأغلال التى ولدت وترعرعت ووجدت نفسى أسيرها أحاول أن اتملص منها فلا تزداد إلا تعقيدا فوق تعقيد ، وأغلال هذا السجن كالحرير ملمسها لاتشعر بعنف ولا إرهاق ولكنها كالحديد فى صلابتها لايمكن تحطيمها إلا بالجهود الصادقة المستمرة . وان كان هذا الجهاد مميتا فالقيد مرهق ومميت ، ولأن أموت مجاهداً خير من أن أموت أسير القيود آمنا مطمئنا إلى ذلى وسجنى الذى ولدت ونشأت فيه .

وعلى الرغم من عبوديتى وسجنى أجد للحياة لذة . ولذة الحياة عندى فى هذا السعى للتخلص من قيود الجسم والفكر وما أكثر هذه القيود، فأين التفت تجذبنى اليها وكلما حاولت أسير أثقلت قدمى فأزداد صبراً وتجلداً وتزداد صلابة . ومن هنا نشأت لذتي التى أجدها من الحياة ألا وهى لذة العراك والصدام وماقيمة الحياة لولا هذا الزحام . وبالرغم من طمعى فى

الحرية وتفاني من أجلها فإني أرغب في إمتداد هذا العراك لأن فيه لذتي ونشوتي . ويوم أظفر بالحرية يوم سعيد ولكن فيه فقدان هذه اللذة التي أجدها اليوم ،ولكن أهلا بك ايتها الحرية فإن الشقاء في كنفك خير من السعادة في قيود العبودية . وإني إن ظفرت بك سوف أخلق لنفسي سجنا ثانيا وقيوداً أخرى أشعر بها تثقلني فأسعى لتحطيمها وبهذا أجدد لذتي . وكذلك الحياة كلما انتهى فصل من فصول روايتها بدأ فصل آخر يشبه الأول ظاهراً وباطناً . وكما جئت الحياة صارخا سوف أفارقها صارخاً وفي صرختي المقبلة ستسمع رنة الأسى لفراق هذا العالم وهتاف السرور لدخول العالم الآخر .

٥

في النقــد(١)

اذا أردت أن تدرس أى مؤلف دراسة وافية فابدأ بنقده وذلك بأن تفحص كل أجزائه فحصا دقيقا وتقدر كل مايحتمله من المعاني وما يرمى اليه من الأغراض، وبعد أن تقف على أسمى مايرمى اليه عن طريق الدرس المنظم فهناك أنت قمين بأن تعقب عليه وتوضح ماغمض منه وتصلح ما إختل فيه وتنوه عما طاب وحسن . وليس النقد كما يتوهم الناس حطا من قدر المنقود وتشنيعا لسمعته وتدميراً لما بناه، ولكن النقد إنصاف للمنقود وإرشاد له لمعرفة نواحي الضعف فى نفسه ونواحى القوة والإجادة، وكثيراً مايساعد المنقود على التحسين فى فنه وتدعيم بنائه وان مانراه فى مختلف أنحاء الحياة من تقدم سريع وإزدهار فى المعيشة وتحسين فى الأزياء ماهو إلانتاج نقد الإنسان للإنسان، وماتاريخ الإنسانية منذ العصر الحجرى حتى عصر القوة والكهرباء سوى خطوات متتالية تدل على عدم إقتناع الإنسان بما وصل اليه ونقده وتهذيبه لأخطائه. وهذا برهان على أن النقد تطلع إلى المثل الأعلى ورفع لمستوى الحياة وإكبار لما فيها من جلال .

للنقد مميزات لابد من توفرها فى الناقد حتى يقوم بين الناس مقام الحكم الذى لاينقض حكمه، وتصدر عنه الآراء المقبولة عن كل مؤلف مهما جل صاحبه فى عين الجمهور، وهذه المميزات معرفة أكيدة دقيقة للفن الذى ينقده ومعرفة شاملة لمبادىء العلوم والفنون الأخرى ومقدرة فى اللغة وفقهها وأن يكون الناقد صاحب أسلوب متين وذا نظرات ثاقبة سديدة وذا ذوق سليم لايكاد يخطىء فيما يراه وهذا الذوق السليم فى نظرى الأساس الضرورى لكل ناقد لأن النقاد يقومون بين الناس مقام الفاحصين المرشدين يصفون خلاصة الذهن الإنساني من الأدران التى تلحق به ممن لادراية لهم بالذى يصفون ويرشدون الجمهور ليأخذ باللباب

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد ١١ – فى ١٣ ديسمبر ١٩٣١

دون القشور حتى لايضيع زمنه فى قراءة كل ماتصدره المطابع فيختلط عليه النافع والضار ولايستطيع أن يصل الى غايته من القراءة والدرس .

والنقاد أناس وهبوا من الذوق أسلمه ومن العقل أرجحه ومن قوة الإيمان والعزم وثبات المبدأ أفضلها ، ولولا ذلك لما زجوا بأنفسهم فى ميدان يحاسبون فيه النفوس أشد المحاسبة ويحاسبون بدورهم ويقعون فى ألد العداوات الفكرية مع أناس قد يكونون أصدقاءهم وخلصاءهم فى الحياة ولكن ليس فى طوعهم ان يجاملوهم ويصفحوا عن اخطائهم لأن فى ذلك تقصيراً عن واجبهم وخداعاً للجمهور الذى أسلمهم مقاليد الرأى وانقاد لهم وائتمنهم على حياته الفكرية التى هى أغلى ماتكون لدى الإنسان المثقف .

يقولون ليس فى النقد إبتكار إنما هو مناقشة لآراء سالفة وتعقيب عليها وقد يكون هذا صحيحا إذا كان النقد من النوع الرخيص الــذى لايتعدى القول بأن الكاتب أجاد هنا وأخطأ هناك دون أى تدعيم لهذه الأحكام ولا أى توضيح لأسبابها وحيثياتها ولكن النقد الصحيح القائم على أساس المعرفة وعلى قصد الإصلاح فى مختلف فنون الحياة والوان لآداب جدير بالإبتكار وفيه مجال للخلق كأى ميدان آخر من ميادين الكتابة وذلك لأن الأدب قوامه الآراء الطريفة التى يتمخض عنها جهابذة الكتاب ، وهذه الآراء تحتاج الى تدعيم وتصحيح ، وهذا بعينه عمل النقاد الذين يناقشون هذه الآراء مناقشة دقيقة ويضعونها تحت المشرط والميكروسكوب حتى يتبينوا أدق الأوعية الشعرية ويروا النواة الحية التى تتوقف عليها حياة خلايا الآراء ، فإذا كانت النواة الحية خالية من الأمراض والعــيوب التى تعوق نموها مرر الناقد الآراء وأعطاها جواز البقاء فى مملكة الفكر المترامية الأطراف وإلاقضى عليها قبل أن تتسرب إلى الأذهان وتؤذيها . وان مناقشة هذه الآراء كثيراً ماتبعث فى الذهن آراء مخالفة لتلك الآراء وكثيراً ماتقفز بالذهن إلى ميدان غير ذلك الميدان فيفكر ويستنتج ويخرج بالطريف الحسن من الآراء ، ويضيف بذلك إلى خزانة العرفان العالمية مالم تكن تحلم به لولا تعرض الناقد إلى مناقشة آراء غيره من الكتاب ، ومن هنا يتضح لنا أن للنقد نصيبه من الإبتكار وهو جدير بالإجلال من معشر الأدباء .

وان هذه الحياة المعقدة السبل والتى يحيطها غطاء كثيف من الرياء والخداع ويهيمن عليها كابوس من الإبهام والغموض تحتاج الى عين سديدة تعرف منعرجاتها وتخترق غطاءها وتكشف كابوسها حتى تبين حقيقتها للناس ، وهذه العين هى الأديب . ولايكون الأديب صاحب مقدرة كهذه إلا إذا كان ذا خبرة بالنقد يميز بين صادق ألوان الحياة

وزائفها . وإذا كان الأديب ناقدا دقيقا حريصا فهو إذن قادر على تخير أحسن مافى الحياة مادة لأدبه، ليكون فيه طعام دسم تجد فيه العقول أنفع الغذاء، ويكون فيه جمال تجد فيه الأذواق أقصى مناها. وإذا كان الأديب فى ذاته ناقداً فهو الذى ينقد فنه أكثر من سواه، يراعى فيه دقة التصوير والإيضاح، ولايفصح عن رأى إلا إذا إقتنع بصحته، ولايضع لفظة إلا إذا قدر كل مايصح أن تحتمله من المعاني، ولذلك تجد النقاد من الأدباء أحرص الناس فى تعابيرهم وذلك ليأمنوا غزوات الثائرين وإنتقام الموتورين .

يعتقد بعض المتعسفين إن النقد وجهة نظر فردية ولاتستحق أى إعتبار لأنها تصدر عن شخص لايمتاز عن المنقود فى شيء، ويحتمل الخطأ فى رأيه كما ادعى هو خطأ فى رأى المنقود، وهذا الإعتقاد غير صحيح لما فيه من الغلو الشديد لأن الناقد مفروض فيه النزاهة وكثرة التحرى عن الأمور والتروى فيها قبل أن يبدى رأيا أو يصدر حكما وهو لاينطق عن هوى إنما يبحث عن الحق يعززه أينما وجده، ويبحث عن الباطل ويسحقه، وليس ذلك تبعا لوجهة نظره الشخصية ولكن تبعاً لوجهة نظر الأغلبية من رجالات الأدب لأن للأدب مقاييس بت فيها ولاتقبل الجدل والتمحل، وعدم توفرها عند أى كاتب أو شاعر يعد نقصا يعاب عليه . والنقاد هم الرقباء الذين يحرسون الأدب من أخطاء الجهلاء ومعميات الدجاجلة وهم الذين ينطقون بالحق ويصدرون أحكام البراءة والإدانة نيابة عن جمهرة القراء ولذا لابد من أن يؤبه برأيهم ويجل حتى لاتذهب جهودهم سدى ويحرموا من أقل أنواع الجزاء .

والنقد بما فيه من روح العدالة والإنصاف يبين أعلى التيارات الفكرية فى الجيل ويشرحها ويحميها ويجعلها قمينة بالبقاء لأنها تحمل جواز المرور من جماعة النقاد . وان هذه التيارات الفكرية لاتستطيع المضى فى طريقها إلا اذا أزيلت منها تلال الجمود والمحافظة وجبال الأخطاء التى تراكمت و تحجرت من عشرات الأدعياء من الكتاب بمرور الزمن، والنقاد هم الذين يزيلون تلك العراقيل بعد ان يستعملوا المعول والفأس فى تحطيم هذه الجبال العتيدة وان كانوا أقوياء سلطوا عليها ديناميت الفكر ليقضى عليها من أسسها وبذلك تستطيع التيارات الفكرية أن تنحدر وتسترسل ويتسع مجراها فتنمى كثيراً من العقول وتهذب كثيراً من النفوس فتسفر هذه بدورها عن تيارات أخرى تعمل لتجد سبيلها وتؤدى وظيفتها وهكذا يستمر مدد الفكر الإنساني .

وظيفة الناقد التخير والإنتقاء. وذلك أن يبحث عن عناصر الجمال والقوة فى أعمال

الادباء والفنانين ويفيض عليها من روحه وسلطانه مايضمن لهما البقاء والخلود لأجيال متتالية وان يقضي على كل خطأ قبيح و يلحده قبل أن يتمكن من النفوس ويؤثر فيها ويؤذى الأذواق السليمة بما فيه من سماجة ، وعلى هذه الطريقة يهىء الناقد الفرصة لكل جميل صحيح أن ينمو ويزدهر ويحل مكان القبيح الفاسد الذى يمتص من جمال الآداب كما تمتص الطفيليات عصير النباتات وتعوق نموها . ووظيفة الناقد أن يصلح من الأمزجة السقيمة أو يقضي عليها ويتكفل الأمزجة السليمة ويهىء لها سبيل التقدم والبقاء وأن ينبه المؤلف الى مواطن ضعفه ليقويها وإلى مواطن قوته لينميها وأرى من حق الناقد أن يثور ويصب جام غضبه إذا عثر على خطأ تمادى فيه أصحابه والايتسامح حتى لايتأصل هذا الخطأ فى النفوس ويصعب الشفاء منه .

وسنة الطبيعة فى تخليد النماذج وحفظ النوع هى أحسن السبل التى يمكن أن يتخذها الناقد ليحفظ أحسن براعات الأدباء وأقواها . والطبيعة لاتخلد إلا ما كان قويا فى نوعه قادرا على إحتمال النزاع المستمر بين مختلف المخلوقات ذات التطلع الدائم نحو الكمال الذى لاحد له لأن فى تمامه إنتهاء للحياة ومامعنى الحياة إذا فقد هذا النزاع وإنتهى هذا العراك وما الحياة سوى حركة ونشاط؟ وإن الأفراد لايبلغ أحدهم درجة من سلم الرقى إلا إذا أخر عشرات وسحق عشرات من المنافسين حتى يصل الى بغيته . وهذه المخلوقات لايبقى القوى منها إلا مايراه معززا لبقائه ، وعلى هذه الطريقة تتوصل الطبيعة الى حفظ النماذج .

واذا تقصينا تاريخ الفلسفة رأينا ان كل مذهب جديد لايقوم إلا بعد مناقشة ماسبقه من المذاهب وتحطيم مالايصلح منه للبقاء وإثبات مايصلح منه أن يتخذ نقطة إبتداء للمذهب الجديد أو مايصلح أن يماشي آراءه ومبادئه ، وهذا الهدم والبناء هو الذى جعل عشرات من الفلسفات تباد وتنسى ولا يبقى منها سوى أسمائها وهو الذى جعل الآراء الكبرى التى تمت الى صميم الحياة تبقى على مر الدهور معززة مكرمة وصارت ذخرا للانسانية تمونها فى عصور المجاعات الفكرية وهذه الطريقة هى التى جعلت النماذج الصالحة من الفلسفات محفوظة باقية .

والنقد فى الأدب خلاصة هاتين الطريقتين ؛ لأنه لايرى لشيء سوى تخليد النماذج الصالحة من عصارات الذهن الإنساني ولابد للناقد من غرض يرمى له وإلا ماله وهذا العناء ! وغرضه بلا شك إنصاف الحق وحفظ البراعات من الضياع بين أدران الكتاب

الذين لاحد لهم ولاعد و كل من يخط منهم مقالا عد نفسه أديبا وطالب الناس أن يوفروا له كل ماللأدباء من حق بين قومهم .

والآن مادمنا نحن فى أول نهضة فكرية يكثر فيها الإدعاء ويزج كل أحد نفسه فى حظائر لم يخلق لها لابد لنا من نقاد قديرين يلقون على الشعب دروسا فى مقاييس الأدب الصحيح ويعينون الأفكار الصحيحة على البقاء ويحطمون الأدعياء والنفايات من خفافيش الأدب حتى يبين الصحيح من الزائف ويعلو الحق وان كره المنافقون .

٦

في الابتكار [١]

قيمة الحياة فى الخلق والإبتكار ، رأى شرحناه فى مقال سابق (٢) وما كان لنا أن نرجع اليه لولا إعتراض صديقنا الأديب العميق البحث محمد عشرى الصديق الذى دبجـــه فى مقاله الرائع (الإبتكار والتقليد فى الفن والحياة) (٣) وقد تكرم الأديب الفاضل ورمانا بالسطحية فى البحث بعد أن إحتفظ بالتعمق لنفسه ولكن كل مايقول الصديق حبيب إلى النفس ولن نعترض عليه وعفى الله عما سلف .

إن الخيال الجامح والشعور الدقيق الحساس والذهن الصافى المثقف والإختبار ذا النتائج الملموسة ، كل هذه إذا توفرت لدى الإنسان وفر نصيبه من الإبتكار ، وهى تنحصر فى الملكات الفنية والفلسفية والعلمية التى حددناها وبينا خصائصها على قدر الإمكان فى مقالنا السالف الذكر وخرجنا منه على أن الملكة الفلسفية أولى الثلاثة بالعناية والتدريب وذلك لأن الفلسفة مزاج من الفن والعلم وهى أرحب الميادين وأخصبها للخلق والإبتكار ولنفصل فى هذا المقال ما أجملناه فى ذلك الرأى .

أن الفلسفة درس لظواهر الوجود والإنسان ، لكشف البواطن وإظهار الأسرار وهى ترتكن فى الصميم على قوة الملاحظة وسرعة البداهة والذكاء الخارق المفرط ، وفى المكان الثاني ترتكن على قوة الحجة وتسلسل المنطق لتدعيم النتائج بالبراهين لإقناع القارئين والمناظرين ، وتتوفر مادتها فى الأسئلة التى تطرأ على الذهن الإنساني فى مختلف أطواره وفى كل لفتة من لفتاته ولحظة من لحظاته ، وتؤتي نتائجها عند ماتحل هذه الألغاز وتجيب على

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الثاني عشر – فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣١

(٢) المقال الثالث فى هذا الكتاب

(٣) نشر بمجلة النهضة السودانية – العدد التاسع – فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣١

معظم الأسئلة التى تعترضنا والفائز بالحلول والقادر على الأجوبة هو المبتكر وهو الرائد الذى يغوص الى الأعماق، ويذهب إلى أبعد الآفاق، ويأتينا بمفتاح السر الذى نبحث عنه وتكرس الأجيال حياتها وتفكيرها أملا فى الحصول عليه .

ولنتساءل ماهو الإبتكار ؟ فأقول هو الإتيان بالجديد . وماهو الجديد ؟ فأقول ماكان خافيا عن الأنظار وغامضا على الأفكار فأماط الكاتب عنه اللثام وجعله ملء العيون وشغل الأذهان فيكون بذلك قد حل مشكلة من مشكلات الوجود وساعد على تقدم الفكر الإنساني فى هذه الناحية وبذلك أضاف الى خزانة العرفان العالمية وزاد فى الثروة الفكرية وهذا الثمار لاينتجه إلا الأصيل من الأذهان التى لاتعتمد إلا على مافى تركيبها الطبيعى من قوة ، وماعندها من الخواص التى لم تتوفر لدى العادى من البشر ، وهذه الأذهان الأصيلة قل أن تتأثر بغيرها ، انما هى نسيج وحدها تبنى من أبسط الأشياء قصوراً من الفكر شامخات متينة الأساس وتعمد الى ما يعتبره الناس تافها فتأخذه وتصقله وتجعله ذا قيمة لايقدر لهـا ثمن ، وهذه الأذهان إنما تأتي بالجواهر ولب اللباب بعد أن تصفيها من الأدران والقشور ويأشد مايلاقى الناس آراءها بالسخرية ، أو بالدهشة والتعجب وكثيرا مايلاقونها بالإهمال فتقطع مرحلة فى عالم الخمول والنسيان إلى أن يأتي الأوان الذى تقدر فيه فينادى عليها قاضى الخلود ويعطيها جواز المرور الى مملكة الحياة الخالدة، وأصحاب هذه الأذهان الفذة، الصافية الراجحة، هم جماعة العبقريين . والعبقرية عندى هى الإمتياز الذهنى فى رجحان الآراء واصالتها . وهى التفرد بحل معضلات الوجود وتسهيلها على العادى من البشر وليست هى مجرد الشذوذ وإتيان أعمال تقرب من الشعوذة وخفة الحواة .

ليس الإبتكار وقفا على قوم دون آخرين أو عصر دون عصر بل هو حق مشاع لكل البشر وفى كل الأجيال، مادامت البداهة تعمل والعادة سار مفعولها ، لأن النتائج التى يقفز اليها الذهن ليست سوى محصول ملاحظاتنا العديدة التى نمر بها غافلين والعقل اللاتنبهى يسجلها وتبقى منه فى قرار مكين وعلى إستعداد لتجيب دعوة العقل التنبهى فى ساعات تفكيره وإحراجه وهكذا ترى للجو الذى يحيط بالإنسان فى الوسط الذى يسكنه وما يتوارثه عن أبويه أكبر الأثر فى تكوين عقليته ومزاجه (Temperament) وبالتالى فى تكوين أفكاره ولكن يصعب أن نقول ان هذا الحادث أو ذاك أو مجموع هذه الحوادث أو تلك ولد هذه الفكرة فى ذهن الكاتب وجعله يدين بها الى حد بعيد لأن للحوادث البعيدة أثرها فى نفس الكاتب وتفكيره كما للحوادث المباشرة القريبة . ومعنى هذا

انه ليس فى الإستطاعة أن نعرف الأشياء المحفزة للإبتكار أو الدافعة اليه على وجه التدقيق والجزم، ولكن يصح أن نقول ان إنحصار المرء فى محيطه ومجرد تفكيره فى ذاته دون أن يتأثر بآراء الغير أو نظراتهم ومشاعرهم من أكبر العوامل المؤدية للإبتكار .

والشاعر الذى يتخذ من نفسه عالماً واسعاً طلقاً ، لايتقيد بالعرف ولاينظر للتقاليد ويرسل نظرته على الطبيعة وجمالها الفتان غير متقيد بما يراه فيها غيره من الناس ، ويجيل فكره فى مخلوقات الله على مافيها من تجاوب وتباين غير عابيء بما قرره عنها سلفه أوما يقرره معاصره ، ثم يفكر ويمحص ماوصل اليه من النتائج بعد هذه النظرات الشخصية ويودعه رائع قصائده قمين بأن ينال نصيبه من الإبتكار ولو على قدر معلوم أكثر من ذلك الذى يتقيد بنظرة « أفلاطون » إلى الطبيعة ، ووجهة نظر «داروين» الى خلق الإنسان وتطوره ، لأن «أفلاطون» كان فى نظرته فذاً فوصل الى تلك النتائج التى خلدته كما ان «داروين» كانت نظرته فذة فوصل الى هذه الدرجة التى نغبطه عليها . ولهذا يحق لنا أن ننظر للحياة وجمال الطبيعة نظرتنا الخاصة غير متقيدين بغيرنا من الفلاسفة والشعراء وأنا الضمين لكل من يكون حر الفكر ، طلق النظرة أن ينال حظه من الإبتكار فى يوم من الأيام لأنه ليس من الممكن أن يتفق إثنان فى نظرتهما إلى شيء واحد مهما كان بينهما من تقارب فى الأمزجة وتآلف فى الآراء .

والإبتكار لا يرتكز على عمق البحث وقوة المنطق ، إنما هو وليد البداهة ونتيجة القفزات الذهنية ، لأن الأفكار كما قدمنا نتاج مئات من الملاحظات والتأثرات الكامنة فى العقل اللاتنبهى ، وهذه الملاحظات والتأثرات تسفر عن نتائج جليلة بطريقة تفاعل يقرب من التفاعل الكيمائي ولا يستطيع أحد ان يقول ماهو التفاعل الذى حصل ومانوعه حتى أدى الى هذا الرأى أو ذاك ، والسبب يرجع إلى أن العناصر التى أدت الى التفاعل مجهولة لدينا ولاسبيل الى معرفتها إلا إذا كان فى مقدورنا أن نسترجع تاريخنا الماضى لحظة لحظة ونستقريء مختلف مامر علينا من الحوادث والمشاهدات ، بل الى أبعد من هذا الحد ان نستعيد تاريخ آبائنا وأجدادنا على هذه الطريقة وهذا عمل شاق لاسبيل اليه . وكثيراً مايصل أحدنا الى نتائج لايستطيع أن يعللها أو يبرهن عليها ، على الرغم مما فيها من صحة ، وكثيراً مايبرهن أحدنا على أشياء لانصيب لها من الصحة ويقنعنا بصوابها . وفى أغلب الأحيان يكون أولهما عبقرياً ومبتكراً ويكون الثاني منطقياً تعود على الجدل وطبع عليه وأصبح فى مقدوره أن يجعل الحق باطلا والباطل حقاً .

ولعل القارىء اللبيب يوافقني على ان أصحاب الفكاهة اللاذعة والنكته الحاضرة وأصحاب الأجوبة السريعة المسكتة، يرسلون فى فكاهتهم ونكاتهم واجوبتهم فى مجالس انسهم ومرحهم آراء فيها من الطرافة والقوة مالا يظفر به أصحاب البحوث العميقة فى كثير من مواقف تفكيرهم الجدى، ولكن إذا سئلوا عن التعليل وتدعيم هذه الآراء بالحجج الدامغة حار بهم الدليل وأخلوا الميدان لأصحاب البحث العميق والمنطق المتسلسل ليقوموا بالدفاع عن القضية . ولكن أيها القارىء أى الفريقين أقرب الى الإبتكار ؟ أما انا فأقول الفريق الأول، لما عنده من قوة فى الذهن والنفس تخول له أن ينفذ الى لباب الأمور، اما الفريق الثاني فعندى كالطالب الذى يحل معادلة من معادلات الجبر مر على نظيرتها أو مسألة هندسية عرف مقدماتها .

وصفوة القول ان الإبتكار نتيجة صفاء فى الذهن والنفس وتلاؤم بين عالمى المرء يجعله قادراً على فهم عقله اللاتنبهى والتوفيق بينه وبين عقله التنبهى وبهذا يسهل عليه التفكير ويستطيع ان ينفذ الى لباب الأمور ويخرج بطريف الآراء التى لاتسهل لغيره من اصحاب النفوس المعقدة، والسرائر النتنة، والأذهان المشوشة . والإبتكار المطلق نادر فى هذا الوجود، لأننا لانستطيع الجزم بوجود المطلق. وإذا توصل المرء الى نتيجة وصل اليها غيره ولكن بغير الطريق الذى سلكوه وعلى غير الإحتمالات التى إحتملوها فهو بلاشك مبتكر الى حد غير قليل وسينال نصيبه من التقدير والخلود . بل إذا تمكن المرء من توسيع آراء غيره وإستطاع ان يعطيها صبغة من الشروح تكسبها طرافة وتزيدها متانة فهو بلاشك يشاركهم شرف الإبتكار ويقاسمهم الجزاء . ونحن إذا استرسلنا فى هذا البحث فلن نصل الى قرار فلنلق هنا عصا التسيار وإن عاد اليه غيرنا عدنا .

٧

قيمة الحياة في الخلق والابتكار (١)

« عـــود على بـــدء »

شاءت ظروف هذا المقال أن يكون مثار إهتمام شديد وبحوث متصلة لفريق من كتابنا ، وآخر ماورد فيه مقال الأديب « عبد الله عشرى » ونحن لايسعنا والحالة هذه إلا أن نثبت وجهة النظر التى من أجلها بدأنا البحث ومن أجلها نكتب الآن تاركين الطعن وما سواه من فضول القول، لأنها إن سادت أى بحث جعلته مشوها لايوصل الى الحقيقة التى ينشدها الباحثون، وعلى هذا فلنبدأ مناقشة الأديب الناقد فى آرائه .

لفظة الحياة ذات مدلول واسع متشابك متعدد تعدد ألوان الحياة وتداخلها فى بعضها البعض ولقد عجز العارفون والباحثون عن تحديدها على الوجه الأكمل ، وحتى العلماء أنفسهم يقولون عن الحياة إنها شيء لايمكن تحديده . فهى تضيق حتى تكاد لاتشمل شيئا وتتسع حتى تشمل كل مافى الوجود من كائنات ، ولما كان بحثى متعلقا بقيمة الحياة ويرتكز فى الصميم على ما اعنيه بلفظة الحياة ، رأيت واجبا لزاما على أن أعرف ما أعنيه بها فى بحثى وذلك لسعة مدلولها اذا اطلقت وضرورة حصره حتى لايعسر الفهم على القارئين ويخطئون القصد الذى من أجله أكتب . فقلت فى مستهل بحثى « أقصد بالحياة فترة الزمن التى نعيشها من يوم أن ترسل بنا أمهاتنا الى رحبة هذه الأرض الى اليوم الذى ندخل فيه الى ضيق اللحد » ولو أمعن الأديب فى لفظة (أقصد) وتبين ماترمى اليه لما ذهب الى كل الإحتمالات التى إحتملها . فأنا أعنى بالحياة الزمن الذى يعيشه الفرد ولم أقصد الى الزمن الذى بدئت فيه الحياة والتطور الذى نشأ عليها من أصغر دويدة الى الإنسان. وليت الأديب حصر ذهنه فى المعنى الذى قصدت اليه واجتهد ليرى هل قيمة هذه الفترة من الزمن تنحصر فى أعلى ذراها فى الإبتكار والعمل لإيجاد مامن شأنه أن

(١) نشرت فى مجلة النهضة السودانية — العدد الخامس عشر — ١٠ يناير ١٩٣٢

يزيد في عناصر الحياة أم تتوفر قيمتها في السفك واللصوصية والقتل التي خلدت أصحابها . وكم تبدو لفظة الخلود ضئيلة مبتذلة عند ما يعني بها تشويه السمعة ووصمة الأبد وليس الخلود في لظى الجحيم كالخلود بين الجنات والحور العين .

وإذا تساءلنا وماشينا الأديب في تعريفه « على ان المولود الجديد تكوين أجيال واجيال من البشر حيث يتصل بالحيوانات الدنيا من أصغر دويدة الخ » فإنه من المؤكد الذى لايقبل الجدل ان قيمة هذه المؤثرات لاتظهر إلا في الفترة التي يعيشها المولود يعمل ويجد السعي عسى أن يوفق الى مامن شأنه أن يزيد في عناصر الحياة وإذا مامات المولود فقد إنتهت حياته العاملة النشطة ولن يستطيع أن يزيد في ثروة الحياة .

يقول علماء النفس على وجه الإطلاق إن مانلاقيه في حياتنا من تعس ومانشكوه من عدم الإتساق وفقدان التوازن بل مانلاقيه من إعتلال في صحتنا يرجع الى الإضطراب النفسي في حياتنا وهذا الإضطراب لاسبيل الى إزالته إلا بالإتفاق بين العالمين الخارجي والباطني، والإتفاق بين عالم الكلف والمجاملات اوعالم المادة وبين عالم الحقائق النفسية.وكم يقول أحدنا لمن يكرهه أحبك ولو كان صريحا يعمل بما يوحيه ضميره لصارحه بكرهه ونحن نرى بعض الروائيين الإنكليز يدخلون طريقة جديدة على المسرح بأن يأتوا بشخصيتين تمثل أحداهما الحالة الظاهرية وتبدى من المجاملات والزلفى مايندى له الجبين وتمثل الشخصية الثانية خلف الشخصية الأولى الحقيقة المرة التي لانقوى على إساغتها ويسمون هذه (The undertone) والقارىء اللبيب يرى في هذه الطريقة إيضاحاً عملياً على ان العالم الخارجي هو عالم الكلف والمجاملات وعلى ان العالم الباطني هو عالم الحقائق النفسية وليس كما قال الأديب الناقد .

ولعل الزميل الفاضل إختلط عليه الأمر ولم يستطع التفريق بين الفكرتين النفسانية والفسيولوجية، لأن علماء النفس يقولون ان العقل الإنساني جد متعطش لفهم تجاربه الشخصية وكلنا نشترك في هذا التعطش لحد معلوم لنجد إيضاحا لقوى العقل اللاتنبهي التي تتحفز على الدوام لتعرب عن خفايا نفوسنا . وهذه الحاجة الملحة لإتفاق العقل التنبهي مع العقل اللاتنبهي أقوى من حاجة الإنسان لإتزان أعضائه حتى يقوى على السير والعدو وإذا لم يكن في الإستطاعة تآلف هذين العقلين نتج من ذلك خطر عظيم يهدد الإنسان بالويل وإذا طغى سلطان العقل اللاتنبهي فهو لابد جارف بالإنسان الى الجنون . وان اتفاق العالمين الخارجي والباطني وإتحادهما لابد منه لكي يبلغ الإنسان العظمة الحقة

التى ينشدها فى عالم الفكر . اما الفكرة الفسيولوجية فتقول لابد من إتحاد وظائف الجسم الداخلية مع وظائفه الخارجية حتى يكون النمو صحيحا وان إتحاد هذين ضربة لازب لابد منها وهى ظاهرة من ظواهر النمو. ولعمرى انه من البديهيات ان جسم الإنسان متى ماكان صحيحا معافى يعمل على إتحاد تام وإتجاه مخصوص .

وأما العالم الثالث الذى تبادر الى ذهن الأديب فهمه فلا وجود له فى مقالى واليك الفقرة « ولاتظهر قيمة الحياة للإنسان إلا إذا إتفــق عالماه الخارجى والباطنى فى جميع أقواله وأفعاله وحركاته وذلك أن يمــاذج بين :ــ

١ ــ الحياة المادية حياة الحديث والعمل فى الأسواق الدنيوية طلبا للفائدة .

٢ ــ وحياة الفكر والروح ويحق لى أن أقول الأحلام . ولــو إجتهد الأديب وأعرب الجملة وعرف ان هنالك مضافا محذوفا ألا وهو لفظــة الحياة . ثم قدر الجملة كالآتي « حياة الفكر والروح والأحلام » لما تبادر الى ذهنه اني خلقت عالما ثالثا وأضفته الى العالمين السابقين وكل الذى أوقعه فى الخطأ مااللفظة (عالم) من معان مختلفة فى اللغة العربية. ولأزيد المعنى إيضاحاً أقول إن الأحلام التى اعنيها هى الأماني التى يصورها عقل الإنسان ويظل يسبح فى بحرها المترامى الأطراف البعيد الغور .

زعم الأديب « ان الإنسان سواء كــان قادراً على فهم الحياة أو لم يكن ، مندمج بحكم وجوده فقط فى هذا الكون وذرة من ذراته عامل للوصول الى الغرض الأساسى فى هذه الحياة رضى أم لم يرض » ولكــن هذا الإندماج ماهــو إلا إندماج الديــدان والزحافات فى هذا الكون . ولكن الإنسان لابد أن يكون ممتازاً عنها وذا دور مهم يقوم به على مسرح الحياة ولايستطيع ذلك إلا إذا فهم الحياة حتى يعمل على وفق ماتريد على قدر الإمكان وإلا كان متخبطا فى بحر مصطخب الأمواج . ولا أظن نصيب سقراط ومساهمته فى الوصول إلى الغرض الأساسى فى هذه الحياة كنصيب البله والمعتوهين والسفاكين والمتشردين . واذا كانت ظروفنا لاتسعدنا لأن نشترك فى بناء مجد الإنسانية والزيادة الى خزانة المعرفة العامة فكفى أن نظهر فرحنا ونهلل للعاملين ونهنئهم علــى عملهم بعطف أخوى شديد وبذلك نؤدى ضريبة بقائنا فى هذا الوجود الذى يلاقى أتعابا كثيرة فى المحافظة على بقائنا وتموينا ضمن أفراده، ونحن لايمكننا أن نحيا فى عالم كهذا دون أن نكون مدينين لغيرنا بالشيء الكثير .

إعترض الأديب على فكرة الإلمام بمبادىء فروع المعرفة الثلاثة وقــال انها خاطئة

لأن المبادىء لاتؤدى الى فهم المعضلات والخروج منها برأى ولكنه لو صبر على القراءة وتمشى مع الفكرة حتى جاء آخرها لوفر على نفسه كل هذا الجدل ولرأى فى وضوح اني لا أعنى بمعضلات الحياة إلا مانصادفه من الصعاب فى نيل المعيشة والسير مع الناس ومجاراة البيئة. أما معضلات الحياة الكبرى فلا المبادىء ولا المقومات والأصول تؤهل الى حلها جميعا . ولأنقل لك ماقلته فى هذا الصدد فى نفس المقال « ومن منا لايفتأ دائم السؤال عن معنى الوجود الذى حارت العقول فى سره ومعرفة كنهه وقبل أن يجد لذلك جوابا تراه يسأل عن المصير وهنا تضل العقول وتبدأ فترة التيه والحيرة التى لانهاية لها » وان كل من يتمعن فى هذه الفقره يرى مانرمى اليه تماما ويعلم اننا نقدر صعوبة معضلات الحياة الكبرى التى لاتزال الإنسانية مكتوفة اليدين تجاهها ولازالت تنظر اليها بطرف حسير

ما أكثر مايقصد أحدنا إلى مثل الحياة العليا ويقنع بها عما دونها فى تقرير آرائه ويأبي النقاد إلا أن ينزلوا الى الحضيض ويحجونه بذلك ولايكتفون بالإعتراض ولكن يمعنون فى السخرية والضحك . قد تبدو قيمة الحياة ونشوتها للبعض فى السكر والعربدة وقد تبدو لآخرين فى إشباع الشهوات الحيوانية وهكذا الى آخر ضروب البشر المختلفة ولكن من ينشدون المثل الأعلى لايشعرون للحياة بلذة ولاقيمة إلا فى الخلق والإبتكار للزيادة فى عناصر الحياة. وهذا مادعانا الى القول بأن الفلسفة ضرورية لكل إمرىء إذا شاء أن يحيا حياة طيبة واضحة لايعكرها غموض ولانقص فى المعرفة . وان الغضب والسرور والإستياء من الحياة والرضى، كل هذه تأثرات ظاهرية تذهب إذا شرحنا مسبباتها الخفية ولن نعرفها إلا إذا الفنا الفلسفة وأحببناها وملنا اليها ميلا صادقاً لنطرح عندها هموم الحياة ، وإن مايلاقية الفيلسوف من الأتعاب فى سبيل الوصول الى آرائه وتدعيمها ومايطرأ عليه من الحالات الفكرية والنفسية كل هذه عرض زائل إذا قيست بالنشوة التى يجدها عند تحقيق أغراضه . وإني لأجزم إن سرور « نيوتن » يوم إكتشف قانون الجاذبية ليفوق كل أحزانه وأتعابه التى لاقاها مجتمعة . ولا أشك فى أن قيمة الحياة لدى « نيوتن » وصحابه كانت فى الخلق والإبتكار وأن مجرد تمتعهم بلذة الشهرة فى الحياة وبعد الممات من جراء نظرياتهم الفذة الطريفة لنعم الفوز . أبعد هذا تعد الفلسفة تعكيرا للصفو .

وليس أدعى الى الدهشة من إعتراض الأديب على قولى « ان العلم هو الوسيلة التى يعرف بها الإنسان طبيعة مايدور حوله » ولست أدرى كيف ينكر الأديب ذلك ولكن

معذرة فقد فهم لفظة طبيعة على غير ما أقصد لأني قصدت بها (Physical properties) وقصد بها (Nature) وعلى هذا الإختلاف نتج الخطأ ولا أظن الأديب الناقد إلا موافقنا على ذلك .

الى هنا انتهينا من مناقشة الأديب الناقد فى آرائه وإعتراضاته وأما موضوعنا الأساسى ألا وهو « قيمة الحياة فى الخلق والإبتكار » فنقصد به إن للحياة نشوة وقيمة يجدها من ينشدون المثل الأعلى فى الخلق والإبتكار ولقد بينا مانعنى بالإبتكار ونحن لازلنا نقرر هذا الرأى وندين به ولانرى مايدعو لشرحه أكثر من هذا لأن ماكتب فيه إلى الآن فيه الكفاية لتوضيحه. وللقراء عيون ترى وعقول تفكر فليستخلص كل منكم الحقيقةلنفسه والأيام كفيلة بمقياسها القاسى أن تفند ماذهبنا اليه أو تثبته فيصير ملء العيون والأذهان .

٨

بين التفاؤل والتشاؤم (١)

ما أكثر ماتبدر فى مجالس الأنس وبين الخلصاء والأصدقاء مناقشات تؤدى الى أبحاث ذات أثر فى تقدم الرأى وأصالته ، وذلك لأن النفس تطلق على سجيتها ويجد الذهن من الحرية مايغريه بإظهار الغريب من الآراء والجرىء منها . وإن تلك اللفتات الفكرية التى تمر فى غضون الحديث جديرة بالعناية والتوضيح بعد أن ينفض الأنس وترجع كل نفس الى العقل الذى به تتصل، وإذا وجدت هذه اللفتات الفكرية عناية خاصة فى البحث وإيجاد الحجج المنطقية فهى بلا شك ستسفر عن نظريات جديرة بالإعتبار ، ولأقص عليك نبأ هذه العجالة التى أنا كاتبها اليوم لأن فى قصتها تأيدا لما ذهبنا اليه .

ضمنى وبعض الصحاب مجلس أنس وطرب وكان بين الحاضرين صديق لى فرقت بينى وبينه ظروف الحياة العامة مدى عامين فأخذت أسائله عن حاله شأن الأصدقاء حين اللقاء، ولكن سرعان ماجرفنا تيار الحديث الى معميات الفلسفة سألته « كيف تجد الحياة ؟» فأجاب « جد جميلة وإني لمتفائل، أرى فى كل آن من الحياة بسمة رضاء ونظرة عطف وحنان، ولست كأولئك المتشائمين الذين قطعوا حبال الرجاء والآمال وجعلوا ينظرون الى الحياة بمنظار أسود يبدى كل مافيها مجللا بالسواد » ولكنه ماكاد ينتهى من حديثه حتى بدهته بهذا الإعتراض « ان الأمل المتسع السامى سبب للتشاؤم فى هذه الحياة ولولا هذه الآمال التى تكذبها الحياة لما عبست النفوس وابتأست ولولا هذه الآمال التى غالبها الدهر فى مهدها لما وجد التشاؤم » فدهش لرأيى وعده نهاية التناقض. ولما كان الزمن والموقف لايسمحان لى بتدعيم رأيى وتوضيح وجهة نظرى صفحت عن دهشته وانتقل الحديث الى ميدان آخر. وهأنذا أوضح لك رأيى أيها القارىء وياشد ماتزداد دهشة صديقى حين يرى

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد السادس عشر – فى ١٧ يناير ١٩٣٢

أني اتخذت من تلك المحادثة الطارئة موضوعا للبحث . ولكن الصغائر في هذه الحياة أساس لأمهات الأمور ومنشأ كل عظيم من الأعمال .

التشاؤم نتيجة إستياء من حاضر الحياة وتخوف من مقبلها وهو حالة نفسية تلازم كثيرا من النفوس الطموحة التي ترى في الحياة مجالا واسعا للعمل والتبريز ولكن ماتلاقيه في زمانها من العراقيل ومايحيطها من شرور البيئة ، وما يلحقها من أذاها يجعلها سيئة الظن بالحياة وبنيها ، واذا مارأت خيراً تسعى للوصول اليه رأت حوله من جيوش السوء كتائب ومن أوضار الحياة أشواكاً يتعسر السير فيها ، وما دامت الحال هذه فالنفوس حقيقة بأن تتشاءم وتفترض الشر قبل الخير وتقدر الصعاب وتعمل حسابها . ومن هنا نرى أن التشاؤم ليس معناه اليأس الذي ينقطع معه حبل الرجاء ولكن الأمل الذي يتخذ صاحبه الحيطة والتدابير ويرى أن هذه الحياة لئيمة لاتعمل إلا على عكس مايهوى الإنسان ولاتألو جهداً في إخفاء أسرارها عنه وتبديل نعمائها شروراً وآثاماً . وان ذلك المتشائم لتزداد آماله ويقـــوى عزمه على الكفاح كلما تأكد من لؤم الحياة وانه ليعد لها العدة الكافية حتى لايصرع لأن الإنسان بطبعه يحب الإنتصار .

اذاً ما الذي يضاعف آمال المتشائم وهو جد عليم أن الحياة تعمل على عكس مايهواه ؟ العزم الأكيد الذي يذلل كل الصعاب ولايرى في الحياة مستحيلا ويدفع بصاحبه لإقتحام أوعر السبل والميادين ، هو الذي يضاعف آمال المتشائم ، وهذا العزم الأكيد هو الذي يخلق الفكرة في الذهن ويغري النفس بتنفيذها فيعمل الجسم جهده ليصل حـــد تلك الأمنية أو الحلم الذي رسم وحدد في عالم الخيال وتهوى النفس أن توجده في عالم المحسوسات .

قلنا ان التشاؤم نتيجة إستياء من حاضر الحياة وتخوف من قبلها ولكن ماسبب هذا الإستياء ان كنا نفوز من الحياة بكل ماينبغي ونجـــد فيها أعلى مانسمو اليه ؟ الأمر على نقيض ذلك فنحن لانستاء إلا اذا خيبت آمالنا وعرقلت مساعينا وليس هذا الإستياء دليل الخيبه الكامنة في النفوس إنما هو دليل الإحساس العميق والشعور الدقيق بكل مايلامس النفوس من التطورات الخارجية ، وهذا الشعور الذي نحسه في ساعة الفشل لابد تارك في نفوسنا من عناصر الإستياء مايجعلنا نرى الحياة لئيمة لاتستحق منا كل هذا العناء والتفاني من أجلها . وهذه الحالة النفسية بعينها ماندعوه التشاؤم ، وما التشاؤم سوى حالة نفسية وليدة شعور غريب يحسه المرء ازاء الحياة وتلازمه هذه الحالة اذا توالت عليه نكبات الأيام وتزايد لؤم الحياة . وبدهي أن هذه الحالة النفسية تسببها الآمال وعظمها ولؤم الحياة وامتناعها .

يقولون ان التشاؤم نضوب فى معين الحياة وفتور فى نفس الإنسان ولكن هذا الرأى منقوض من أصله والدليل القاطع على عدم صحته مانراه فى كتابات كبار المتشائمين وائمة هذا المذهب من جسام الآمال وقوة العزم ومواصلة الجهود حتى الرمق الأخير من الحياة ولو كان فى معين حيواتهم نضوب وفى نفوسهم فتور لألقوا عصا السير ووطدوا النفس الى شر الحياة وإنتظروا القدر المحتوم دون أن يخطوا سطراً يرجون من ورائه الخلود . واني لأرى فى كتابات «شوبنهور» والمعرى حيوية لا أجدها فى كتابات غيرهما من الكتاب والشعراء المتفائلين الذين يتغنون بالحياة ويوقعون أهازيجها فى أفراحهم المتواصلة ومرحهم الخلوب الجذاب .

ليس التشاؤم نضوبا فى معين الحياة ولكنه قلة ثقة بالحياة يوجدها الطموح الى أشياء ليس فى مقدور الحياة أن توجدها.والتشاؤم عندى نتيجة فيضان معين الحياة وكثرته فى النفوس الجياشة التى تطمع أن تعيش فوق مستوى البشر وأن تتغلب على الصعاب التى تنظر اليها الإنسانية بطرف كليل . وليس التشاؤم سببا فى تأخر الإنسانية وركودها ولكنه الداعى الى تقدمها وإصلاحها دون أن تعتمد على مساعدة الحياة وتسهيل ظروفها بل أن تقتحم الميدان غير عابئة بما تصادفه من أشواك الحياة وسمومها القاتلة وعبثا تحاول أن تصل حد الكمال .

وما أكثر مايقولون ان الشبان أكثر الطبقات ميلا الى كتابات المتشائمين وذلك لأن لها فى نفوسهم تجاوبا ومن ضربات قلوبهم وتفكير عقولهم تجانسا ولكن هل بدرلهم أن يسألوا لماذا؟ واذا وجهوا السؤال هل أفلحوا فى الجواب؟ ان الشباب أكثر الناس تشاؤما وذلك لأنهم أكثر الطبقات آمالا . وما الشباب سوى سلسلة آمـــال سرعان مايخيبها الدهر فتنقلب آلاما . وإن هذه الآمال التى منها يتكون الشبان والتى ماهى سوى نسيج لحمهم وقطرات دمهم ، كلما خيبها الدهر حزت النفوس وآلمتها وغيرت وجهة نظر الفرد وجعلته يرمق الحياة بغير نظرته الأولى . وإذا تكررت هذه الآلام وإستفحل أمرها تصبح النظرة تشاؤمية ويصير المرء عديم الثقة بالحياة وبنيها .

أما أن الشبان بعد أن ينقضى عهدهم ويأتي زمن الشيخوخة تتغير وجهة نظرهم ويرون أن ما كانوا عليه بالأمس خير من حاضرهم وأنهم لن يظفروا من الحياة بما عودتهم فى ماضى أيامهم وان سخطهم على الحياة لم يكن صادقا بل كان أرشد بهم أن يمتدحوها ويحمدوها على تلك النعماء فما هـــو إلا لأن الماضى عزيز محبوب لدى النفوس حتى

وإن كان مؤلما . وإن الماضى عند كل نفس خير من الحاضر لأن النفوس لاتقنع بحاضرها وهذا الرضاء عن الماضى لا أراه سوى سخط على الحاضر والشاب المتشائم الذى قلت ثقته بالحياة وساء ظنه بها فلا أراه أبدا يحمدها عند ماتداهمه الشيخوخة. بل سوف يزداد سخطه على الحياة وهو عند مايرى ماضيه خيراً من حاضره بينما كان بالأمس يلعن ذلك الماضى فما ذلك إلا دليل الإستياء من هذه الحياة التى تنقله من سيىء الى أسوأ ومن تعس الى أتعس وبهذا يزداد تشاؤما .

والى هنا دعنا نجمل مافصلنا فنقول ان جسام الآمال أساس للتشاؤم فى هذه الحياة وان التشاؤم نتيجة فيضان فى معين الحياة وإن الشباب المتشائم لاتغير الشيخوخة من تشاؤمه بل تزيده ضغثا على إبالة .

٩

البراعة والتقدير (١)

سألني صديق فاضل : أليس لما يلقاه الكاتب من تقدير قرائه الأثر الأكبر في الإتيان ببراعاته ؟ ولكني أجد السؤال مبهما يحتاج الى إيضاح قبل الإجابة عليه . لأن التقدير يختلف حسب القراء ودرجات تفكيرهم واذواقهم وميولهم الأدبية . فمن القراء من لايود البحوث المتصلة التي تنتهي الى معميات الفلسفة وسبحات الفن ويجد كبرى حاجته في العادي من الكلام الذي لايرتفع عن درجة تفكيره ولايبعد عن مدى مقدرته ، ومن القراء من يتطلب من الكاتب نوعاً خاصاً من المواضيع ونوعاً خاصاً من المعالجة ولايعجب بالكاتب ولايقدره إذا تعدى هذا المدى . وهنالك القارىء اللبيب الذي يرحب بجل مايكتب في مختلف البحوث ويتطلب أبرع الأفكار في أحكم الأساليب وأمتنها ، وينظر لما يقرأ نظرة نافذة لاتقنع بالقشور ولكن تغوص الى لب اللباب ويناقش الكاتب بعد ذلك الحساب مناقشة عسيرة ، ومن ثم يدلي برأيه فاما أن يعجب بالكاتب إعجاب الأديب بالأديب أو يلوى عنه لن يعود اليه بعدها . فالفريق الأول يصفق للضعفاء والميتين من الكتاب ويتملقهم ليقدموا له من الطعام مايوافق معدته ، والفريق الثاني يغرى الكاتبين ان يحصروا إطلاعهم وأذهانهم لارضاء القراء والفوز بعواطفهم وإعجابهم وهذا مايجعل الكاتب عبدا لقرائه وملكا لهم يتصرفون به حيث شاءوا والفريق الثالث هوماينشده الأديب الحر الضمير الذي يرى لنفسه حقها على القراء وللقراء حقوقهم عليه .

وعندي ان تقدير الفريقين الأولين لايساعد على النبوغ والإتيان بالبراعات إنما هو يحد مقدرة الكتاب ويضعف ملكاتهم بل ويغريهم بالكسل الذهني ويحولهم إلى تجار يتخذون من الأدب سلعة يتاجرون بها ويتصيدون رضاء زبائنهم من القراء ليفوزوا

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد السابع عشر – ٢٤ يناير ١٩٣٢ .

بعطفهم ويسيطروا على مشاعرهم. وليس هذا الرضاء اليسير، والعطف الذى لايقوم على أساس من القوة مايتطلبه الأديب الذى يود أن يغالب الزمن ويكتب للأجيال حاضرها ومستقبلها، ويبتغى لنفسه شهرة أدبية « تشب كالنار من القبر ولايخمد لهيبها » وعندى ان من يقنع بمثل هذا الإعجاب ويركن اليه، كالممثل الذى يقوم بدور البطل على المسرح ويمطره النظارة بالتصفيق والهتاف فيظن نفسه بطل الرواية فى الواقع ويتطلب هـذا الإعجاب من الناس أين سار وأين وقف، فيتيه زهواً والناس منه يسخرون وهو يحسب بسماتهم الصفراء بسمات الرضاء والحنان.

قليل من الكاتبين من لايعبأ بالتقدير من جمهرة القراء ولايود الفوز بإعجابهم وهتافهم المتواصل، وقليل منهم من لايحصر جهوده فى سبيل إرضاء قرائه قبل أن يرضى فنه ويقنع كبرياء عقله، ولكن فى هذا من الويلات مالا يفطن إليه الكاتبون إلا بعد أن يجوزوا عهد الشباب ويشرفوا على حافة القبر وتطالعهم الحقيقة المرة ألا وهى ان تصفيق الجماهير وإعجاب الأصدقاء والمخلصين من المعارف لاتكفل للكاتب حسن البقاء وصادق التقدير بعد مماته وان التقدير المنشود هو ماتفوز به آثار الكاتب من البقاء بعد مضى الزمن ونسيان الكاتب ذاته إلا فى ماخلفه من آراء.

ان للأدب معاييره الصادقة ونقاده الذين يعرفون تطبيق تلك المعايير سواء فى ذلك أكانوا كتاباً لبقين أو قراء فطنين، لأن للقـــراء من المميزات الأدبية مثل ما للكتاب ولعل القارىء الفطن السريع اللفتات الذهنية والحاضر الفهم أقدر على نقد أعمال الأدباء وإنصافها من الأدباء أنفسهم، وذلك لممارسته للقراءة القائمة على الإنتقاء والتخير وتقدير مثل هذا القارىء يساعد الكاتب على الإجادة والتفوق ويحمله على إجهاد نفسه حتى يفى رغبات قارئه وكلما سما القارىء وتطلب المزيد سما الكاتب وجعل كبير همه إقناع قارئه. ومثل هذا التقدير هـــو مايحتاجه الكاتب ليعلم حقيقة نفسه لأن الكاتب عندما يأمل فى إرضاء فنه وإشباع كبرياء نفسه قد يخونه التقدير وقد لايفطن الى مواضع القوة والجمال فى فنه كما انه قد يقنع باليسير ظنا منه إن فى ذلك أقصى مايصله الفكر وأجمل ماتصوره العواطف وما أحوج الأديب الى العين التى تريه نقصه فيسده وتبين له حسنه فينميه ويتعهده.

ولعل أزهر عصور الأدب التى تمخضت عن جهابذة الكتاب الذين خلفوا من البراعات مالانهاية لبقائه ولافناء لجماله وقوته، والتى خلقت من الفنانين من موسيقيين ومصورين أبدعوا فى الفن وجازوا حد الأبداع، لعل أزهر هذه العصور هى التى يكثر

فيها النقد وتبادل النصح بين الأدباء من الأصدقاء الذين لايحرجهم قدح ولايرنحهم ويهز أعطافهم مدح بل قصارى مناهم أن يصلوا ذروة عملهم ويستفيدوا من تحمل الثائرين عليهم ومن عطف الموالين لهم . وإذا تقصينا تاريخ الآداب نجد ان الأدب العربي لم يبلغ ذروته إلا فى القرن الثالث للهجرة فى عهد العباسيين حيث كان الأدب العربي فى دور النماء الصحيح ويشارف النضج ولا أقول يشرف على الذبول . والسبب فى إزدهار الأدب فى ذلك الحين يرجع لإنتشار الثقافة بين عامة الشعب ولتشبث الناس بالأدب وتذوقهم لجيده وسخطهم على رديئه ولكثرة المحاورات والمناظرات فى شتى فنون الأدب بين الأدباء وكذلك بين عامة الشعب وبذلك تيسر للأدباء من التقدير الصادق والتلهف الملح لإلتهام الجديد من آرائهم وإساغتها ماجعلهم يجدون السعى فى تحسين منتوجاتهم فخلفوا أحسن الذخر وأبرع الآيات .

وفى فرنسا فى عهد الصالونات الأدبية المنظمة التى كان يرتادها الأدباء من كل حدب وصوب ويقضون بها طيلة ليلهم يبحثون فى شتى المواضيع ويتناقشون فى بعض مايصدره البعض منهم وينهالون على الفاسد من الآراء بالهدم ويمتدحون الطيب منها ، ويتطلبون المزيد ، إنتعش الأدب وازدهر وبلغ درجة تحسد عليها فرنسا وكان نتاج ذلك العهد الزاهر من كتاب فرنسا «فولتير» و«روسو» و«كونستاين» و«مدام دى ستايل» وغيرهم من كتاب ذلك العصر الذائعى الصيت . وقل مثل هذا عن الأدب الإنجليزى حيث كان عصر «هازلت» مزدحما بكبار الأدباء وكانت الدوائر الأدبية نشطة سريعة الحركة عنيفةالبحوث لايهدأ لها ثائر وحيث كانت سوق النقد البرىء قائمة على قدم وساق. وكان الأدباء مندفعين مع هذا التيار الجارف مجتهدين أن يشيدوا من الآراء مايغالب الزمن ويضمن لهم البقاء ومن أولئك « هازلت » و« كولردج » و « لام » و« ويرد سورث » و « ارفنج » و « لورد بيرون » و«ولتر أسكت» وغيرهم .

بعد هذه الإلمامة التاريخية البسيطة نرى على ضوء الماضى ان للتقدير الصادق من الكتاب للكتاب ومن القراء للكتاب كبير أثر فى الإتيان بالبراعات وتقدم الفكر الإنساني وقل مثل هذا عن الفنون والصناعات الجميلة ولكن ليس المقصود من ذلك ان التقدير هو كل مافى الأمر ولكن هنالك المقدرة الشخصية والإستعداد الطبيعى وصفاء الذهن وتحفز العواطف والنشاط الجسماني ، فإن لها أثرها فى كل مايخرجه الكاتب من براعات ومايسمو اليه من إجادة . والعناية بهذه العوامل وتنميتها وصقلها والزيادة اليها أهم عندى

من الإهتمام بتـــقدير الناقدين والقارئين والإلتفات اليهم لأن الذهن إذا ترك لنفسه يعمل حسب مايرى قمين بـــأن يشق طريقه فى الحياة ويعبده ويضع الأساس للشامخ من بنايات الفكر التى ينوى إشادتها بل ويشيدها . وهذا الإعتداد بالمقدرة الشخصية والتفرد بإيحاء النفس لايستطيعه إلا الجبابرة من أصحاب الأذهان الأصيلة والعزم الأكيد الذين تنتقـــل أفكارهم من فكرة إلى فكرة ويولدون من خيالهم أروع آيات البيان . ولكن هذا الإعتداد بالمقدرة الشخصية إذا تعدى حدوده جرف بالكاتب إلى الغرور وربما قضى على بريق فكره وأخمد جذوة ذهنه فيعود عقيماً بعـــد أن كان خصب الفكر والجنان . ويستحسن أن يصغى الكاتب فى مثل هذه الأحوال إلى همسات الأصدقاء ويقدرها ويعمل حسابه ليتجنب الأخطاء التى يشير اليها الأصدقاء من طرف خفى . لأن المرء لايرى قفاه إلا بإجتماع مرآتين .

وكما أن البراعات ترتكن الى حد بعيد على التقدير الصحيح من المعاصرين فكذلك الشهرة ترتكن على هذه البراعات ووفرتها وجودة نوعها لأن الأجيال المقبلة لاتنتظر من الكاتب أن يبهرها بأخلاقه وحسن معاملاته ولابما له من الأصدقاء المخلصين والمعارف الكثيرين ولكن تنظر الى مايخلفه فى فنه من آراء فريدة وآيات بينات . ولعل أصدق أنواع الشهرة مايناله المرء بعد موته لأنها قائمة على أساس متين من التقدير ، ليس تقدير الأفراد وحسب ؛ بل تقدير الزمن الذى لايكذب مقياسه والذى لايبقى الا الصالـــح للبقاء والذى تحتاجه الإنسانية ليتم مافى الحياة من نقص ويشرح مافيها من غموض . ولايعبأ بمثل هذه الشهرة ويعمل حسابها إلا القليل من الكتاب الذين وهبوا بسطة فى العقل وبعداً فى النظر والذين يحصرون همهم فى إرضاء الأجيال المقبلة قبل إرضاء جيلهم ويتعظون بالماضى ومافيه من كتاب ذهبت آثارهم بعد موتهم وقضى عليها قانون النسيان بأن تنسى وتدمر ، ومثل هؤلاء الكتاب يندر أن ينالوا فى زمانهم من الشهرة وعطف القراء مايليق بمقامهم بل يظلون فى خمول شامل لايكشف ظلمته إلا الموت والزمن . وما أعدل الموت حيث تتجرد النفوس من النزوات والأغراض وتنظر الى أعمال الرجـــال بالعين المجردة فاما أن تحلها مكانها من العظمة والإجلال وأما أن تقبرها فلا تتطلع اليها بعد ذلك العيون ولاتتطلبها العقول ، وان الجرى وراء هذه الشهرة الخالدة لخلة كريمة يتصف بها الجهابذة من الكتاب الذين يطمعون فى الخلود ويعدون عدته ويوفرون المواد التى تنيله ويجهدون أنفسهم ويحاربون شهواتهم ولذاذاتهم الدنيوية ليفوزوا بنشوة الأبد .

يقولون « لايكرم نبى فى وطنه » وأضيف على ذلك « ولا فى زمانه » لأن أبناء وطنه يعرفون فيه ذلك الطفل الذى كان بالأمس يلعب ويمرح كما يلعب سائر الأطفال ويعفر ثيابه بالتراب ويملأ الشارع ضجة وصراخاً ويشترك مع الأطفال فى العابهم وقد يكون بينهم هزيلا لاينال سوى الهزيمة فى كل ماينوى ولذلك يستكبرون عليه كل أمر جليل وينظرون الى عمله نظرة الإحتقار، وكذلك أهل زمانه يشعرون بوجوده معهم على هذه الأرض يتنفس الهواء كما يتنفسون ويشع عليه نور الشمس كما يشع عليهم ويصيبه المرض كما يصيبهم، ويفرح كما يفرحون، ولذا لايصدقون فى نبوغه ولايؤمنون بكتابه. ولكن هذه الإعتبارات والإحتمالات لاتخطر للأجيال المقبلة ولاتؤثر عليها ولذا فحكمها صادق لايقبل النقض ولايحتمل الجدل، انما هو حكم الزمن والزمن أصدق الحاكمين.

نحن الآن فى بدء نهضة فكرية ولانستطيع الإتيان بشىء من البراعات مادمنا نجامل بعضنا البعض وننظر لإخواننا نظرات الشفقة والرحمة ولاننبههم الى أخطائهم ظنا منا اننا سنجرح إحساساتهم بذلك، والحقيقة أن ليس فى عملنا هذا شفقة ولا رحمة، بل فيه الويل كله والغدر والخيانة، وسوف يسخط علينا أصدقاؤنا عندما تتقدم بهم الأيام ويبدو لهم شبح المستقبل مخيفاً مكشراً عن نابه مستعداً ليقضى على كل مالا يصلح للمستقبل ولايسايره. ونصيحتى الى أصدقائي ومعارفى من الكتاب والقراء النابهين أن يتبادلوا النصح وأن يصغوا الى آراء بعضهم البعض ويعطوها من الإعتبار المكان الأول عساهم أن يتمكنوا بذلك من تجويد مايكتبون، ويخرجوا آيات من الفن بينات، ويأتوا بالبراعات التى تضمن لهم الخلود وتضمن لهذا البلد مجدا أدبيا عامراً، ولعل نقد الأصدقاء للأصدقاء هوخير مايفيد ويساعد على الإجادة والتفوق لأن الصديق أدرى بنواحى صديقه وأعلم باتجاهات أفكاره من عامة الناس، وذلك لوقوفه على حياته الخصوصية ودراساته وطرق تفكيره ونهج البحث الذى يتخذه ولما فى نفسيهما من تجاوب سريع وتفاهم أكيد هو وليد الإحتكاك الدائم وتلاقح الأفكار من جراء المناقشات والمحادثات فى ساعات السمر والصفو حيث النفوس طليقة من كل قيد حرة لاتتكلف ماليس عندها ومجالس السمر عند الأصدقاء من الادباء أشبه بالصالونات والأكاديميات. والأصح أن نقول هى النواة التى تبنى عليها تلك المجامع الأدبية المنتظمة.

وان مجرد وجودنا فى أوساط تكيل لنا المدح جزافا وتسايرنا فى كل مانفعل ونقول، وتخضع لآرائنا دون أن تناقشها أو تغربلها، وتنقاد لأفكارنا على مافيها من سخف ومتانة

دون أن تفرق بين نوعيهما — ان مجرد وجودنا فى مثل هذه الأوساط يكفى لأن يخمد جذوات عقولنا ويغرينا بالإستكانة والإطمئنان إلى ماوصلنا اليه، ويجعل نفوسنا تغتر بأبسط ماتتوصل اليه العقول العادية فى الأوساط المهذبة التى لايكاد المرء يأتيها بجديد إلا ويرى بين أفرادها من سبقه الى هذا الرأى وطالبه بغيره، وهكذا دواليك، يظل يندفع فى تيار أفكاره والوسط يطلب منه المزيد، ليس في الكمية ولكن فى النوع . ومثل هذه الأوساط الجائعة المتحفزة تلتهم كل مايصلها دون أن يشبع نهمها أو يروى سغبها لجديرة أن تغرى بالإنتاج المستمر المثمر وكفيلة أن تخلق من الأدباء والمفكرين من لايزعجهم التحدى ولا يقنعون بغير الصفوة المختارة، فيأتون ببراعات الفنون والآداب .

١٠

حياة السآمة والملل[1]

وأثرهـــا فى تأخـــير الفنون والآداب

إعتدت وأنا طالب أن أقضى جزءاً من عطلتى الدراسية فى قرية بالقرب من «الدويم» أفلح الأرض مع ذوى، وكنت أجهد نفسى فى العمل وذلك بدافع نفسى يهمس شيطانه فى أذني أن أساوى أقراني من أبناء البادية حتى لايسخروا منى . وكنت أذوق للحياة لذة فى تلك القرية لم أستطع تعليلها غير اني أذكر سمر الليل خارج القرية حيث يجتمع شباب الحى وفتياته فى نصف دائرة وأحيانا فى دائرة كاملة يلعبون ويمرحون . واذكر أيضا بساطة النفوس ونقاء الضمائر وقوة الشعور وغليان الحماس . وأذكر ضعة المعيشة وحقارة المساكن حيث تختلط الماشية بالناس وحيث تمتزج أصوات البشر وصراخهم لبعضهم البعض بعواء الكلاب وثغاء الشياه .

وفى صيف سنة ١٩٣٠ ذهبت الى القاهرة فكنت أذوق للحياة لذة تعدل تلك التى كنت أحسها فى القرية على الرغم من إختلاف الحياتين . ففى القاهرة حركة صاخبة وفخامة فى المظاهر وسرعة مدهشة وخلق كثيرون من مختلف الأجناس والألوان— وفى القاهرة مرح المدنية المنظم وسبل الراحة الحديثة . والذى يدهشنى وقد يدهش القارىء إتحاد الشعور فى نوعى الحياتين على كبر إختلافهما بل وتناقضهما، ولا أكاد أدرك المسببات النفسية لهذا الشعور الغريب ، إلا حين أنظر الى حياة السآمة والملل التى نسلكها ، وما نصادفه فيها من فتور الأجسام والأذهان ، وتحجر العواطف وتبلدها وجمود الخيال وقصره .

إن عيشة البساطة فى حضن الطبيعة وتحت قبة السماء الزرقاء تفصلها السحب عقوداً وينيرها البدروهو أنور ماتكون البدور، ويسودها الهدوء العميق والسكون الرهيب، فيها

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد التاسع عشر – فى ٧ فبراير ١٩٣٢

من الفن مايسحر الألباب ويغذى العواطف ويبعث فى النفوس سروراً شاملاً ينسيها أتراح الحياة وأتعابها. والحديث البسيط السلس الذى لايتم إلا على طيب الخواطر وصفاء الضمائر فيه تعلة للنفوس وفيه جمال يخفف من ضغط الحياة ويلطف قبحها وزمهريرها اللافح. ومثل هذه الحياة لايملها المرء ولايعافها لخلوها من قذارات المجتمع وفداحة العيش وهى حياة الشعراء والفنانين الذين يودون الإتصال بالطبيعة والأخذ من جمالها الساحر الفتان حيث مجال الخيال واسع وحيث جمال الصـــور وتعاقبها وتنوعها يغرى الأذهان بالتصوير والإفتنان فيه .

فالذى أعجبنى فى القرية آنذاك وأشعرني بجمال الحياة ، هو مافى القرية من جمال الطبيعة ذات الفن الأزلى ، والطبيعة كما يقول عنها عشاقها المتفانون فى حبها هى ينبوع الفنون ومصدرها ، وهى المورد الذى ينهل منه الفنانون ، والمثل الذى يحاكونه وينسجون على منواله . والذى أعجبنى فى القرية وجعلنى أفتن فى حبها هو مرح الشباب فيها وصفاء السرائر حتى تخال كل من فيها رجالاً ونساء ، صغاراً وكباراً ، تخالهم أطفالاً عليهم طابع الطفولة الجميل وتلوح عليهم سماتها حيث يبتسمون لكل من يصادفهم بسمة الترحيب والرضاء . والذى أعجبنى فى القاهرة وأعاد الى نفسى تلك النشوة التى كنت أحسها فى القرية ، هو مافيها من جمال العمارة وجمال البشر ومافيها من فنون الحياة وألوان المرح ومافيها من تعاقب الصور وتنوعها ومايبدو عليها من الجمال الفنى الذى أكسبته لها يد الإنسان الذى شاء أن يستعيض عن جمال الطبيعة بجمال هو من صنع يده ومن إبداع فكره فهنالك الحدائق الغناء ، وهنالك الموسيقى الشجية المطربة ، وهنالك دور التمثيل والسينما التى يرودها النظارة حتى منتصف الليل ، وهنالك الأندية المائجة المزدحمة بأصحاب الثقافة الحقة والأمزجة المتآلفة حيث السمر الشهى المثمر . فمصدر إعجابي بنوعى الحياتين على إختلافهما هو مافى الحياتين من فن تجد النفوس فيه إفصاحا لحالاتها الداخلية التى لاتجد تعبيراً إلا فى الفنون الجميلة المهذبة . ومصدر إعجابي بهما يرجع الى مرح البداوة فى الأولى ومرح المدنية فى الثانية ، ولكن البلد التى تفقد العنصرين فليس فيها سوى السآمة والملل ، وليس فيها سوى تقطيب الجبين وتعبيس النفوس المتحفزة التى ترى فى الحياة التى تحياها هذا النقص ولاتستطيع إصلاحه لما فى الجو من عراقيل لاسبيل إلى إزالتها الا إذا تغيرت النفوس وتبدلت الأمزجة بأحسن منها وسلمت الأذواق .

ليس بين شبابنا المثقف المستنير من لايشعر بفداحة الحياة وثقلها ويجد إنقباضاً فى

نفسه وكراهة لعيشه وأصحابه الذين يجتمع بهم ويود أن لو تغيرت هذه الحال وتبدلت بأحسن منها، وليس بينهم من لايحس هذا التكرار الممل وهذا القبح الكريه ويود لو تنوعت صور الحياة وأخذت من الأشكال والقوالب غير هذا المأخذ، وتبدل هذا القبح بجمال ساحر في خارج المنزل وفي داخله ولكن ليس بين هؤلاء من أقدم على العمل والإجتهاد لتحسين الحال وإنعاش هذه الحياة الراكدة الخاملة، وقد يكون السبب في جمودهم وعدم إنتباههم لتغيير هذه الحياة التي يعافونها ماتركته الحياة في نفوسهم من ملل وسآمة وما أغرتهم به من خمول وعدم إكتراث. والأدواء الإجتماعية إذا كثرت وتأصلت تمادى خطرها وأصابت حتى أطباءها الذين يعالجونها.

إن سبب الملل والسآمة في حياتنا راجع إلى قلة الفن بل وفقدانه، وليس أدل على ذلك من تأخر فن التصوير عندنا . فهذه البلد الناشئة التي بدأت تكــون نفسها فكان لها من الشعراء والكتاب على علاتهم العدد الكبير ، لم يظهر بين أبنائها حتى اليوم مصور واحد يرسم على اللوحة مايسنجه خياله ويستخرج من حياتنا صوراً يكون لها نصيبها من الجودة والبراعة، مع العلم بأن فن التصوير من أقدم الفنون وأعظمها، وله المكان الأول في معظم الأمم . وبعض شباننا يعالج التصوير ولكن ماذا يعالج ؟ يحاول رسم الفتيات كما يراهن ويتفاني في إتقان الشلوخ وتمشيط الشعر وعلى هذا يقصر كل جهوده، والسبب في هذا التقصير راجع الى جمود الحياة وبلادتها والى عقمها الذى أصابها من البداية . ولو كان ثمة في حياتنا تنوع وفيها مرح لكان بين شباننا من يهتم بفن التصوير ويطمع في البراعة والتفوق، ولكان بينهم من يأتينا بصورة لتعانق النيلين هذا التعانق الطبيعي الهادىء في غير ماجلبة ولاضوضاء والذى فيه من معاني الحسن مايبعث أرقى الخيال وأجمله في الأذهان، ولكن جمود الحياة جعلنا ننظر الى هذه الآية الفريدة نظرنا الى كل مافي حياتنا ببلادة وعدم اكتراث يمازجهما سقم الذوق وتبلد العواطف ، وبيننا من الأجانب من وجدوا في جو بلادنا ومناظرها مادة لصورهم لاتفنى وجعلوا يخرجون صوراً خاصة بالجمال وعليها طابع التفرد والإبتكار، وذلك لأن حياتهم نشطة متجددة وفيها من العوامل مايجعلهم أصحاب عيون فاحصة وأفكار ثاقبة وأيد حاذقة . فإلى متى نصبر على جمود هذه الحياة ونحتمل العقم الذى تسببه لنا .

محال أن ينبغ في هذا البلد شاعر أو كاتب ويبلغ قمة المجد مادامت الحياة على سيرتها هذه، لأن خير الشعر والكتابة مالامس الحياة وإشتق منها، ومثل هذه الحياة بدهي

لاتنتج غير السأمة والملل ، فشعر شعرائنا جامد لاروح فيه ولاحياة ، وعلى الرغم من ذلك متكرر على وتيرة واحدة ونغم فاتر محزون كفتور الحياة عندنا وكآبتها . فإما غزل لايمت الى الجمال الذى نصادفه فى أوساطنا ولايعرب عن عواطفنا واما شعر محاكاة ككل شعر لايصدر عن رغبة فى النفس ملحة وشعور صادق . وقل مثل هذا عن الكتابة ؛ فهى سلسلة مقالات فى مواضيع متقاربة فيها من الموت مثل مانلقاه فى الحياة من خمول . اما القصة والدرامة والرواية تلك التى ترتكن على الحياة وعظمها ومافيها من مرح خلوب وحركة رشيقة فلا وجود لها عندنا ولاسبيل اليها ، وإذا حاولنا كتابتها فإنما نحن ننقل عن غيرنا أو نعبر عن حياة لم نألفها ونتحدث عن أشخاص لاوجود لهم فى مجتمعنا ، ويكون نصيب قصصنا ورواياتنا ودراماتنا الإمتهان والخمول والنسيان لأنها لاتمت الى صميم الحياة ولاتفصح عن صادق المشاعر والعواطف . والقراءة فى الكتب والإمعان فيها وإستقصاء البحث وما سواه لاتنتج فناً صادقاً ولاتأتي بجديد يركن اليه ولن يجد المرء فيها عزاء لنفسه وقد فقد الفن فى حياته ، ولاعوضاً عن مرح الحياة ، بل تزيده ألماً على آلامه وتزيد الحياة فى نظره بؤسا ووضاعة لأنه يعلم من الكتب أن هنالك حياة أحسن من التى يحياها وأمتع ، ويجد الوصول الى مثل تلك الحياة محالاً .

وحياة السأمة والملل بلاشك تؤثر فى سير الفنون والآداب وتجعل الإنتاج ضئيلا وقليل القيمة ، وإذا نحن شئنا أن نقدم الفنون والآداب فى بلادنا فلنلجأ الى أساليب الحياة التى نسلكها ونغيرها حتى تكون حياة مرح ونشاط ، لأن حياة الموظف والتاجر والصانع عندنا حياة آلية لاتتعدى الذهاب الى المكاتب والسوق والمصانع والرجوع منها . ثم النوم العميق والتبلد ، أو العربدة وفساد الأخلاق ، وقليل منهم من يعبأ بالقراءة وزيادة المعلومات ، ولكن القراءة كما قدمنا لاتغير جمود الحياة ولاتبدل قبحها . أما مسارح السينما فلا يرودها إلا الأجانب والنذر اليسير من شبابنا المثقف الذى يشعر بحاجتنا للفن فى حياتنا ولتنويع سبل عيشنا . والأندية التى نغشاها أندية طائفية تتكرر فيها صورة المكاتب وعملها المرهق والحديث عن الرؤساء والدرجات والتخفيض ، وتلعب فيها بعض العاب بليدة لاتهذب الأذواق ولاتصقل الأذهان ، وحتى اليوم لم أسمع بجماعة فكرت فى إنشاء ناد لترقية الفنون الجميلة أو ناد لترقية الآداب وتحسين مستوى الثقافة فى البلد . والأندية الحالية لاينطبق عليها إسمها لأن المنتدى مايجمع فريقا من الناس متحدى المشاعر متآلفى الأمزجة والمشارب وإلا كان أشبه بمقهى يغشاه من يود الراحة ويتطلب المرطبات .

والسبيل الى تغيير نماذج الحياة عندنا واضح ، ولكن يحتاج الى عمل وتآزر ويحتاج إلى جرأة محمودة وتفان فى سبيل الحق والإصلاح . وأول خطوة أن نعمد إلى منازلنا ونعمرها بتحف الفنون التى تشرح الصدور وتجعلها جنات نجد فيها مايخفف عنا وطأة عملنا اليومى . ولعل مكابراً يقول « ان الفقر يحول دون ذلك » ولكن مانصرفه فى الترف الكاذب والبذخ الغير محمود يكفى لتنسيق منازلنا تنسيقا فنيا يكون له أثره فى خيالنا وتفكيرنا ويساعد على تربية الفنون الجميلة فى مجتمعنا والخطوة الثانية فى تغيير نماذج الحياة هى تحسين مجالسنا وتهذيبها وتغيير مايتبادل فيها من الحديث المبتذل بالحديث الطريف المهذب الذى يساعد على التفكير وينمى القوى العقلية كما يصقل الأذواق . والخطوة الثالثة وهى التى ترمى الى تغيير حياة المجموعة هى ابدال الأندية الطائفية بأندية ذات أغراض معلومة وذات خطط مرسومة تؤدى الى غايتها السامية التى تنشدها . وهذه الخطوة صعبة تحتاج إلى جهود وإتحاد وتحتاج إلى المال أكثر من سواها . لكن هذه السآمة وهذا الملل وهذا الفتور الذى نجده فى حياتنا يهون فى سبيل تغييره والقضاء عليه كل عظيم من التعب والمال ، ومن منا لايشترى الإنشراح والمرح بكل عزيز لديه .

إن حاجتنا لتأسيس أندية من هذا الطراز لعظيمة وملحة . فالآداب والفنون لاتزال متأخرة وسبب تأخرها كما بينا يرجع الى حياة السآمة والملل التى نعيشها ولاسبيل لإنعاش هذه الحياة الجامدة البليدة إلا على نحو ماقدمنا فى الخطوات الثلاثة السالفة الذكر . والأندية هى ثالثة الأثافى وأهمها والعناية بها مما يهم الشباب المثقف المستنير الذى يجد الحياة سقيمة وبليدة ، ويود تغييرها . وقبل أن أختم هذا المقال أدعو كل من يجد فى نفسه ميلا للفنون والآداب ويرغب فى ترقيتها أن يسعى لأيجاد ناد لترقية الفنون والآداب وسيكون لهذا النادى أثره المحمود فى نهضتنا وسوف يأتي اليوم الذى نقول فيه « نحن جد مدينين ، لنادى ترقية الفنون والآداب ، لأنه ساعد على إنعاش الحياة وتغيير نماذجها وجعلنا نحس لها جمالا ساحراً فتانا » وإني لآمل أن تجد هذه الدعوة تشجيعا من الأخوان . وليخلصنا شبابنا المثقف من هذا الكابوس الذى نحسه وليقضى على حياة السآمة والملل .

١١

الشعور القومى[1]

وحاجتنا إليـــه

ليس أدعى الى الألم والإبتئاس من فقدان الشعور القومى فى بلد تتوفر فيه كل دواعيه . وهذا البلد هو الإقليم المنكود الذى نسكنه وبيننا علاقات الموقع الجغرافى والجنس والدين واللغة وليس لنا من الشعور مايجعلنا نحس هذه الوحـــدة ونحترمها وذلك لأسباب سنذكرها بعد تعريف القومية والشعور بها وذكر خصائصها ومميزاتها .

القومية معناها شعور الناس بما يربطهم من أواصر المنفعة المشتركة التى تجعل منهم كتلة ذات كيان واحد إذا قيسوا الى غيرهم من البشر ، وهى ترتكن فى الصميم على إتحاد اللغة والمميزات الجنسية ، وعلى الإتفاق فى الدين والمثل العليا التى تسعى المجموعة الى تحقيقها ، وعلى الإخلاص والإحساس اللذين لايمكن وصفهما لصعوبة التعبير عنهما . وليس معنى هذا أن لاسبيل الى القومية إلا بإجتماع كل هذه الدوافع التى اذا توفر بعضها أغنى عن البعض الآخر .

وأما الشعور بالقومية فمعناه إتحاد النفوس وتضافرها لتحقيق تلك المصالح المشتركة وتقوية الرابطة الجنسية ورفع عماد الدين والدفاع عنه ، وإتحاد المقاصد حتى تكون الأمة ذات إتجاه مخصوص ونهج معلوم يسعى الكل لأن يسلكه . والشعور القومى هو العصبية التى يحسها إبن الوطن نحو أخيه والغيرة التى تأخذه عندما يذكر وطنه بين المواطن ويود أن يراه فى طليعتها وهذا بعينه مانفقده نحن . فلاتجدنا نعطف إلا على ماليس له صلة بنا مباشرة أو غير مباشرة ولاتجدنا نسعى لخيرنا المشترك أو نساعد العاملين على الوصول اليه ناهيك عن الإشتراك فى العمل لإيجاده .

والشعور القومى مثل شعور المرء بذاتيته وجهاده المستمر لأن ينال من المجـــد مايقنع

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الحادى والعشرين – فى ٢١ فبراير ١٩٣٢

كبرياءه ويكفل خلوده ، وكما أن الفرد إذا فقد الشعور بذاتيته لايمكنه أن يحصل على ما من شأنه أن يزيد فى قدره أو يرفع مكانه فى الهيئة الإجتماعية ويجعل لإسمه جلالاً تحسه القلوب قبل الآذان ، فكذلك الأمة إذا فقدت الشعور بذاتيتها لاتستطيع أن تحقق أحلامها الجميلة من مجد وغنى وحرية وعلو كعب فى العلوم والفنون والآداب . وإن من يلقى نظرة عاجلة على ملخص تاريخ الأمم يرى أن الشعور بالقومية هو حجر الزاوية لكل مجد قديما كان هذا المجد أو حديثا، لأنه يبعث الشعوب من رقدتها ويحفزها الى جليل الأعمال. فهل نحن الى هذا الشعور سائرون وبقوته مندفعون الى تحقيق آمالنا والتخلص من آلامنا التى نشعر بها أفراداً ونقدرها ولكن حتى الساعة لم نشعر بها كجماعة وذلك لفقدان التفاهم بيننا ولانعدام الثقة فى بعضنا البعض ولتخوفنا حتى من أنفسنا وإنكماشنا وتضاؤلنا أمام الأوهام التى يرسمها خيالنا وتصدقها عقولنا لما فطرت عليه من خور هو ربيب الجو الذى ولدت فيه ، فتراع نفوسنا ونقضى على جهودنا فى مهدها .

ان المـــرء ليجد فى ذكرياته الماضية أسطع البراهين لكثـــير من قضايا الحياة التى يصادفها، وإني لأذكر يوم شعرت بفقداننا الشعور القومي وحاجتنا الماسة إليه وذلك حيث كنت طالبا بالكلية وسأل أحد المدرسين وهو إسكتلندى الجنس، سأل أحد زملائي عن أنواع المقاييس فقال الزميل « ان هنالك نوعين إنجليزى وفرنسى » وعندها ثار الأستاذ صارخا « قل بريطانيا فهنالك إسكتلندا تشارك إنجلترا وتتمتع معها بكل الحقوق والواجبات » وقد بدت عليه علامات الإنفعال والغضب وهو ذلك الوديع الدائم الإبتسام الطلق المحيا . وسألت نفسى آنذاك ولماذا كل هذه الثورة وماهى إلا كلمة طالب لاتغير نظام الدنيا السياسى ولن تبدله وقد تكشف عن جهل الطالب بما يقول، ولكن سرعان ما أجابنى هاتف نفسى على أن شعور الأستاذ بقوميته ومافى نفسه من الوطنية الصادقة التى رضعها وهو طفل قبل أن يعرف كلمة الوطنية، جعله ينظر إلى هذه الكلمة نظرة الإعتبار كأنها قيلت فى البرلمان وهو يتولى الدفاع عن وطنه . فعذرت الأستاذ وتمنيت لزملائي ونفسى مثل هذا الشعور النبيل، ولكن هيهات فالفرق بين البلدين بعيد المدى ففى اسكتلندا روح وثابة وأناس يشعرون بما لهم من مجد وحق فى الحياة يجب أن يتمتعوا به كما يتمتع به سائر البشر الأحرار ، ولاسكتلندا ذكرياتها الخالدة وأبطالها الخالدون الذين تنقش عظمة جهودهم فى قلوب الأطفال — ولاأقول عقولهم — وهم لم يعدوا الرابعة، أما نحن فلاروح تثب للعلا ولا أبطال تلقن بطولتهم للأطفال لأن أبطالنا محكوم عليهم بالخمول والنسيان

وذلك لتعدد القبائل وتحزبها ولما بينها من الصراع الذى لايجعل احداها تعترف بفضل رجال الأخرى وإن كان الجميع أبطال وطن واحد وفخر وطن واحد .

والدليل على تعدد القبائل عندنا وتشعبها نسوقه أيضا من ذكريات الدراسة حيث سئلنا عن قبائلنا وكان عدد طلبة الفرقة ثلاثين وعدد القبائل عشرين . وليس أدل على كثرة القبائل والبطون من هذا المثل. وليست الكثرة مانشكو فقط ، ولكن العصبية البليدة العمياء والشعور الذى لايسوق إلا إلى التهلكة ودمار القومية هومايؤذى النفوس التى تود خير هذا البلد وتتمنى أن ترى بين أبنائه من الشعور مايربطهم ويجعلهم يتركون عصبية القبائل ويبدلونها بعصبية الوطن والعمل لخيره المشترك . والشباب المثقف قد بدأ يتجاهل هذه الفوارق وكاد يدمرها ولكن هل للشباب أن يشعر بحق وجوده ووجود وطنه ويجعل همه الوحيد بث الشعور القومى بين كل طبقات الشعب ؟ وجدير بنا أن نتساءل عن الطرق التى يمكن بها بث الشعور القومى ونوضحها على قدر الإمكان حتى يمكن العمل بها والوصول الى القصد المنشود .

ما أصعب بث الشعور القومى وما أثبته وأبقاه إذا غرس فى النفوس ، فهو قوة لاتهب مجاناً لعظمتها ، وباقية خالدة ككل شيء نفيس يتفانى صاحبه فى إدخاره وصيانته. وسمو الغاية يبرر الوسيلة مهما صعبت . ونحن كشعب يجاهد فى الحياة ليبنى نفسه — وان كان فى بداية السير — يجدر بنا أن نعرف الطرق التى يمكن بها بث الشعـــور القومى فى مجموعتنا ونتفذها على الرغم من صعوبتها ، لأن فقدان الشعور القومى يقف حجر عثرة فى سبيل المشاريع العامة ، والأعمال الحرة تقوم على عطف الشعب عليها وتعضيده للعاملين فيها والقائمين بأمرها ، والإماتت فى مهدها ، وقبل أن تتم حول الرضاع ، والدليل على ذلك فشل شباننا فى الأعمال الحرة لفقدانهم النصير ، وتفوق اليونان والطليان لما يمطر عليهم من عطف جالياتهم أولاً ومن عطف ضعفائنا ثانياً .

وأول الطرق لبث الشعور القومى هـــو أن نعمد الى عصبية القبائل الحالية ونحولها إلى عصبية وطنية شاملة ، والطريق الى ذلك أن نلقن أطفالنا فى قصص مبتكر يحل مكان أحاجى الغيلان والسحار — نلقنهم بطولة عثمان دقنه وعبد الله ولد سعد وعبد الرحمن النجومى ومحمد احمد المهدى وغيرهم على وجه السواء دون أية تفرقة بين القبائل والبطون ونعلمهم أن هولاء يكونون مجداً مشتركا هو مجد الوطن وعظمة خالدة كـــان الدين الذى نعتنقه جميعا باعثها ، وبذلك نجعلهم يؤمنون بدين الوطنية وسلطانها ويحسون فائدة

الدين ويمجدونه وحبذا لو نظمت قصص هؤلاء الأبطال فى شعر عربي يحس جلاله الشباب الناهض المثقف وفى غناء سوداني يفهمه ويسيغه الجمهور والأطفال .

وثاني الطرق أن نبدأ بكتابة تاريخ بلادنا من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر لأن الأمة إذا جهلت تاريخها لايتيسر لها الشعور بقوميتها . ولابأس أن يكتب هذا التاريخ بكل مافيه من مفاخر وآلام ؛ لأن للمفاخر عملها فى بث الشعور القومى وللآلام التى يرزح الشعب ويئن تحت عبئها مفعولها فى إثارة النفوس والتوحيد بينها. وعبء هذا التاريخ يقع على أبناء هذه البلد ، أما مايكتبه الدخلاء ويضعه المغرضون فلا يساعد بحال من الأحوال على بث الشعور القومى إن لم يعمل على قتله . وليلاحظ من يكتبون التاريخ مسألة القبائل وليحكموا عليها بزوال السلطان وليكن تاريخهم مما يساعد على بث الشعور القومى ، ولاغرابة فى ذلك لأن «إبراهام لنكلن» محرر أمريكا الثاني يقول « ان تاريخ واشنطون عن أمريكا من أهم الكتب التى ساعدتنى على بناء حياتي » ولعل التاريخ الذى نقول بضرورة وضعه يخلق من شباب هذه الأمة كثيرا ممن يقتفون أثر «لنكلن» العظيم .

والطريق الثالث لبث الشعور القومى اللغة التى نتكلمها ، ومعنى ذلك أن نشعر بعظمتها ونمجدها وأن نضعها فوق سائر اللغات ونجهد أنفسنا فى تعلمها واتقانها لنعبر بها عن أفكارنا وعواطفنا ونعرب عن تمنياتنا وآلامنا . واللغة خير رابطة بين أبناء البلد الواحد تجعلهم يحسون ويفهمون مايجوس فى صدور بعضهم ويكونون فكرة عن حالهم وحال بلادهم، وإذا ماقلنا اللغة تبادر الى الأذهان مايخلفه الأدباء من شعر ومقالات وقصص وروايات وغناء، وهذه بدورها إذا تعهدها القائمون بها ساعدت على بث الشعور القومى . والشاعر الذى يصور الحياة حسب مايتخيلها العقل السوداني وتحسها النفس السودانية ويفيض فى تصوير الآلام والآمال التى يحسها الأفراد فى وحدتهم ولم تجمع عليها كلمتهم كجماعة يقوم بين قومه مقام الوسيط، يوحد مشاعرهم ويجعل منهم وحدة متينة البناء .

والقصص والغناء خير الطرق لبث الشعور القومى لأن القصة والغناء تميل إليهما دهماء الشعب وخاصته على السواء، لأن كلا منهما يسيطر على العواطف والمشاعر . وهى التى إذا اثيرت وتحركت فلا راد لثورتها، والقصة عندنا لازالت فى البداية، ومن يكتبونها لايجهدون أنفسهم للتغلغل فى صميم الحياة السودانية ودرس الأوساط حتى يخرجوا لنا قصصا عليه طابع بلادنا ومسحة عواطفنا وأفكارنا . وإني لأرى ضرورة إصلاحها والأخذ بناصرها حتى تأخذ إتجاهاً محموداً، وأما الأغاني فلم يفرغ أصحابها بعد من التغزل فى

النهود والأرداف . وجزى الله خليل فرح كل خير عنا، فقد وضع الأساس للأغاني القومية التى تبعث الوطنية فى إثنين من قصائده التى يرددها الأطفال والشبان على السواء . ولو أخذ شعراء الأغاني عندنا على هذا النهج لكان ذلك خيراً لهم وأهدى الى السنن القـــويم .

وللتعليم على وجه الإجمال أثره في بث الشعور القومي، والمدارس فى الأمم الراقية تقوم بقسطها الأوفر لبث شعور الوطنية الصادقة فى نفوس طلبتها حتى ان الطالب يترك المدرسة وهو على إستعداد لأن يدخل معترك الحياة كرجل يشعر بواجبه نحو وطنه ومواطنيه وإني لأشعر بالحاجة الماسة لتغيير برامج التعليم فى مدارسنا ، وعلى الأخص الأولية منها ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث على حدته وفى النهاية أراني مدفوعا فى شديد من الأسف وعميق الحزن لأن أقول « ليس أدعى إلى الألم والإبتئاس من فقدان الشعور القومى فى بلد تتوفر فيه كل دواعيه » .

١٢

حرام أيها المتأدبون !!(١)

ليس بين قراء الأدب الإنجليزى من يجهل «جوزيف أديسن» صاحب جريدة «الرقيب» (The Spectator) التى كان يحررها وصديقه « ستيل » وكانت « جريدة يومية تصدر فى ورقة واحدة من الحجم العادى، فى عمودين ومن الجهتين» وظهر العدد الأول منها فى أول مارس سنة ١٧١١، ول «أديسن» شهرة بين رجالات الأدب الإنجليزى ويعد من الأقطاب الذين شيدوا صرح الأدب الإنجليزى وخصوصا « المقالة » وقد ساعدت جريدته على دراسة الأوساط الأدبية فى زمانه وعلى إصلاح مستواها واعتنت كثيراً بالبحوث الإجتماعية . وكان أدبه مشتقا من الحياة التى يحياها والأشياء التى يصادفها ولذلك وجد ذيوعاً فى كل الأجيال وسيستمر كذلك .

ول «أديسن» ميزة فى مقالاته ، وذلك أن يبد بسرد أشياء تافهة من ملاحظاته ثم يبنى عليها نظرياته فى الإجتماع وآراءه في الفن والفلسفة، وهذه الطريقة لها قيمتها لأنها تنتج أدب التجارب الذى يسفر عن أمتن الآراء وهذا مانفقده نحن لأننا جبلنا على التقليد وأخشى أن أقول السرقة والتهجم على آراء الغير وليس الدليل يعوزني لأن الدافع الذى حملنى على تسطير هذا المقال فيه الكفاية على جرأة المتأدبين عندنا وإبتغاءهم الشهرة من أى السبل أتت حتى عن طريق السرقة .

قرأت فى العدد الحادى والعشرين من النهضة مقالا (وليست قصة كما زعموا) عنوانها «النظير والخرافات» وهالنى أن أرى الحياة التى تصفها على غير ما ألفنا فى هذا البلد، الأمر الذى دعاني أشك فى نسبتها إلى الذى لم يستح وذيلها بإسمه وعنوانه بالكامل حتى يقال عنه من الأدباء، وسرعان ما أسعفتنى الذاكرة على اننى قرأت مقالا يشبه هذا

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الثانى والعشرين – فى ٢٨ فبراير ١٩٣٢

لـ«أديسن» ، وبينما أنا كذلك مر على أحد الأصدقاء المشتغلين بقراءة الأدب الغربي والعربي وسألني في شيء من الدهشة والتلهف عن « إسحاق إبراهيم خليل » هذا الذى ظهر على حساب غيره ليعد أديبا ، فسألته لماذا يسأل عنه ؛ فقال : لأن المقال الذى ذيله باسمه لـ«أديسن» صاحب «الرقيب» فوافقته على ذلك وقلت لنا رجعة لـ«أديسن». وكذا فعلت وماكدت أفتح الجزء الأول من « الرقيب » إلا وقعت عيني على المقال بنصه وقصه وهو السابع من تلك المجموعة وقد صدر في الثامن من شهر مارس سنة ١٧١١ .

ما الذى كان يضير ذلك المتأدب لو قال ان المقال مترجم عن«اديسن»هل كان ذلك مما ينقص قدره؟لا والله بل لأكسبه الشهرة التي يبغيها، ولأكبرنا فيه تلك الروح التي دفعته الى نقل ماخلفه أحد أقطاب الأدب الإنجليزى الى اللغة العربية حتى يستفيد منه من لم تسعدهم الظروف بقراءة هذا الكتاب وأضرابه في لغتهم الأصلية، ولكن حب الظهور آفة هذه النفوس الضئيلة ، وحسبنا منهم أن يدعوا الجمهور ويستغلوا جهله ، ولكن للجمهور عيونا أنابها عنه وخول لهـا حق الدفاع عن حقوقه وهؤلاء هـم النقاد الذين سيحاسبون اللصوص والدجالين حسابا عسيراً ولصوص الأدب سيحكم عليهم بالسجن في ظلمات نفوسهم وفي عقر دورهم كما يحكم على اللصوص بالسجن والأعمال الشاقة ، ولو كان للأدب في هذا البلد سوق للقى هذا وأمثاله من الجزاء مايليق بهم لأن هنالك المحاكم التي تحافظ على آثار الأدباء الأحياء منهم والأموات .

ماكان لنا أن نتعرض لصحة الترجمة أو لخطئها لو صرح المتأدب بأن المقال مترجم ، ولكنه وقد شاء أن يخدعنا فلنكشف الغطاء عن عيوبه حتى لايعود الى مثل هذا مرة أخرى .

بدأ الترجمة بإتزان ودقـة لابأس بهما ، وذلك حيث كان « أديسن » يذكر ملاحظاته البسيطة في لغته البسيطة ، ولكن عندما إنتقل المؤلف الى دور الإستنتاج والتدليل والى تحليل الأفكار الأولية ليستخرج منها زبدة المقال تعثر صاحبنا في الترجمة وصار يخلط حتى شوه الأصل وقد أهمل بعض أجزاء المقال لصعوبتها ومن ذلك قوله : « فكما أن الحكماء يصرفون شرور الحياة بالتأملات الفلسفية ، فكذلك البلهاء يضاعفونها بتخيلات الخرافة» وأيضا قوله : «أما من ناحيتي فأكون شديد الإضطراب إذا وهبت هذه الصفة الإلهية ، على الرغم من أنها ستخبرني يقينا بكل ماسيقع لى . أنا لا أستعجل نشوة أية سعادة ولا أشعر بعبء أى شقاء مالم يحصل لى فعـلا » . وغير هذا مما لايقع تحت عد . واما الخلط في الترجمة فندلل عليه بالمثل الآتي : قال المترجم الذى لايعترف بذلك « قد تتساءل أيها

القارئ ما الذى فعلته بعد أن جلبت هــذه الداهية العظيمة » والترجمة الصحيحة هى : « ليتصور القارىء حالتى بعد هذا النحس الذى جلبته » وإذا شئنا أن نصلح أخطاء هذه الترجمة وإدخال ماحذف من الجمل لاحتجنا الى ترجمة المقال ولكن حسبنا أن نقول ان فى ضعف الترجمة وسوء التصرف مايبرر السرقة التى إرتكبها هذا الشخص .

حرام أيها المتأدبون أن تسيئوا إلى أنفسكم وإلى الكتاب والشعراء الذين تسرقون منهم وإلى الوطن الذى تنتمون إليه . إن فى جو بلادكم وحياتها وحوادثها المتعددة مجالا لمن يود الكتابة وقد وهب معداتها ، ومؤهلاتها ووطن النفس على النزول إلى بحرها المتلاطم الأمواج . وإلا فكفاكم أن تقرأوا مايخرجه غيركم وأن تظفروا بنشوة الإطلاع الصحيح والتقدير لأعمال غيركم فذلك نعم الفوز لمن يود أن يعيش طاهر النفس صادق السريرة وإذا أنتم لم تنتهوا مــن أمثال هذه المحاولات المخجلة فسيضع لكــم الجمهور حداً وسيرجمكم بالحجارة لأنكم قوم أفاقون وعلى خزائن الأدب تجورون وللأمة الحق أن تتبرأ من لصوص الأدب تبرئها من لصوص الأموال والبضائع وسجنها لهم ولصوص الأدب آلم لكيان الأمــة فهم ينخرون فى عظامها ويقللــون من قيمتها وهى تود الرفعة والنهوض .

١٣

القدوة (١)

وجه الينا احد الأساتذة ونحن طلبة بالكلية هذا السؤال « معظمكم بلغ العشرين أو فاتها ومن الواجب أن يكون لكل منكم بطل يترسم خطاه ويتخذه مثلاً أعلى يحقق على ضوئه أمانيه فى الرفعة والكمال . فليحدثنى كل منكم عن بطله ولماذا إتخذه ؟ » وعندها ساد السكون على الجميع لأن السؤال يبدو لبعضهم مبهما ، ولبعض آخر غير صحيح لأن بعض الناس يود أن يشق طريقه ويعبده بنفسه ولايرغب فى أن يسلك طريقا سلكه الناس من قبله ، ويبدو للبقية الباقية صعبا لايمكن الإجابة عليه . غير ان أجرأنا على الإجابة مهما صعب السؤال وقف وفى بساطته المعهودة قال : « ان بطلى الذى أعجبت بـه وأقدسه وأترسم خطاه هو «فولتير» الشهير صاحب الشخصية الفـذة والسخرية اللاذعـة ؟ » ولكن الأستاذ كان ك «فولتير» فى سخريته فأمطر الزميل سيلا من الأسئلة التى أربكته وجعلته أضحوكة بين الرفاق حيث ظهر لنا جليا أنه لايدرى عن بطله أكثر من إسمه وأسماء بعض مؤلفاته . والذى يذكره كل الرفاق وأذكره ان الزميل كان أبعد الناس عن السخرية وأجهلهم بطرقها ، ولو كان يترسم خطى «فولتير» لكان ذا شأن فى هذا الميدان ولكنه التقليد الأعمى وحب الظهور والخداع النفسى ، دفعت بصاحبنا إلى هذه الدعوة العريضة التى سرعان ماكشف الواقع سرها وكذلك كل باطل بعد حين يزول .

ليست القدوة بالشيء الهين الذى يقول له الإنسان كن فيكون ولكنها صعبة المنال كصعوبة توفرها فى بيئتنا. فالقدوة هى المثل الذى يحتذى والشيء الذى يقتدى به ويتبع ويعدها علماء النفس فى الوقت الحاضر من أهم مايساعد على التعليم ويسهل الإستفادة للطلاب ولذلك يفترض فى المدرس أن يكون ذا شخصية أخاذة وحديث جذاب مؤثر

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الثالث والعشرين – فى ٦ مارس ١٩٣٢ .

وصاحب معلومات وافرة ورجاحة فى الرأى تجعل الطلبة يتلقفون حديثه بنفوس مطمئنة وآذان واعية ويهضمونها بشهية زائدة . وضرورة القدوة فى الحياة العامة كضرورتها فى حجرة الدراسة وذلك لأن المبتدىء فى حاجة الى نماذج يقلدها حتى يخرج مثلها ويتعداها الى ماهو أحسن منها بفضل مقدرته وتفرده النفسى والذهنى . غير أن القدوة فى عهد الدراسة ليست طوع الطالب أو نتاج تجاربه وإطلاعه، لهذا فقد لايتعدى أثرها حجرة الدراسة الى خارجها . ولكن القدوة فى الحياة العامة ينبغى أن تكون عن صدق تجربة وتجاوب بين نفسى المقتدى والمقتدى به وإلا كانت محض تقليد ودعوة كاذبة .

تتخذ القدوة غالبا من الحياة أو بطون الكتب ولاتتخذ من الحياة إلا إذا كانت البلد موطنا لأبطال الفكر والقوة الذين يعجب الشباب بهم ويقدسهم وتتقمصه أرواحهم وتدفعه الى إتباع خطاهم فى سلم الرقى والى تذوق آثارهم وتقديرها، وليس معنى ذلك أن يكون نسخة لهم ولكن حسبه الروح والحماس ليصبهما فى قوالب اخرى لينتج خلقا جديداً غير الذى صنعوه وإلا كان مقلدا ولن يظفر بشىء من العظمة التى ينشدها، ولكن البلد التى يستوى فيها الحابل والنابل ولايتميز فيهـــا رجل عن آخر فويل لشبابها وياشد مايعاني من الأتعاب فى تحقيق رغباته، حيث لايجد من يقتدى به إلا إذا أمعن فى قراءة تراجم الرجال العظماء وجعل يبحث عن نفس تماثلها نفسه ويكون بينهما تآلف وتجاوب وقـــد يوفق وإذا وفق فسوف ينقصه المثل الحى الملموس الملىء بالحركة والقوة وسوف يجد صعوبة فى تجسيد بطله وترسم خطاه .

لست أعنى بالقدوة عبادة البطولة التى تقرب من أيمان النساء فى خرافات السحرة والدجالين ، فقد مضى ذلك الزمن الذى يعبد البطل دون أى ترو فى آثاره ودلائـــل بطولته، وأتي الزمن الذى يحاسب فيه البطل حتى من أعز المعجبين به المفتونين بعظمته، وقد يعجب القارىء اللبق بـ«أرسطو طاليس» الفيلسوف اليوناني ويقرأه بأمعان شديد، ولكن هذا الإعجاب والتقدير لايمنعه أن يلاحظ بعض الأخطاء الظاهرة فى مؤلفاته والتى أظهرتها القرون التى توالت والآراء التى إستجدت . ولايمنعه ذلك أن يثور على بعض طرقه ويحطمها وفى هذه المحاسبة والثورة أعظم الإجلال والتقدير. كما أن الشاعر المبتدىء قد يعجب بالمتنبى ويقرأ أشعاره بنية حسنة وقصد محمود، ويكرس زمنه على دراسته ولايبعد أن يكون المتنبى أول من يثور عليه من الشعراء وأول من يعمل على نقد آرائه وتصفيتها من الأدران ولكن بالرغم من ذلك ستصيره قراءة المتنبى والإعجاب به من أعظم الشعراء حيث يشق

لنفسه طريقاً غير التي عبدها المتنبي متأثراً بالروح التي دفعت المتنبي إلى ذلك، والذهن الذي خول للمتنبي التفرد والخلود. وكذلك المصور المبتدىء قد يجعل كبير همه تقليد صور عظماء الفنانين الذين سبقوه والعمل على ضوئها؛ ولكن سرعان مايلاحظ عيوبها ويتبين حسناتها ويكون طريقته التي بها يصبح في عداد الفنانين ويصير عما قليل قدوة لغيره من الهواة والمبتدئين .

إذن القدوة معناها التبعية التي تديرها عين فاحصة وعقل ثاقب وصبر ومثابرة وهي الخطوة التي تؤدي الى التفرد والإبداع سواء في ذلك الإبداع في عالم الفكر أو عالم القوة . والغرض من القدوة هو الاستفادة من تجارب الإنسانية السالفة والإجتهاد في الزيادة اليها وليس الغرض أن يجعل المرء من نفسه عبداً ذليلا لقوم آخــرين . وإذا كانت القوى الكامنة في نفس الإنسان تساعد على الإتيان بالبراعات فإن القدوة بلاشك تساعد على إكتشاف هذه القوى الكامنة وإخراجها الى حيز العمل لأن المرء بتصفحه أعمال غيره وحياتهم يرى نفسيته على صفاء الصحف البلورية المجسدة في أعمالهم ويأخذ من حماسهم وتصهره نار عبقريتهم وعند بلوغه درجة الرشد تظهر عبقريته بكل مميزاتها وخواصها لاتشبه ماسبقها في شيء إلا في تأجج النار وصفاء النفس .

والقدوة ينتج منها تزاوج العبقريات وتآلفها وقمين هذا التزاوج أن يحسن النسل فيأتي بأفكار قوية وجميلة، فكثير من أعجبوا بـ «شكسبير» وجدوا في قراءة مؤلفاته وصاروا يطمحون الى مثل عظيمة والى إخراج آراء تشبه آراءه في المتانة والصدق فكان لكل منهم مكانه من العظمة غير أنهم لم يقلدوا «شكسبير» ولكنه فتح عيونهم وجعلهم ينظرون الى عوالم كانت عنهم مستورة فوجدوا فيها من الآراء الجميلة والمواضيع التي عليها تقوم الثروة الفكرية مالم يجده «شكسبير» نفسه . وذلك لأن في أنفسهم ماكان ينقص «شكسبير» كما ان في نفس «شكسبير» ماينقصهم وبإخلاصهم لـ «شكسبير» وإعجابهم به وإمعانهم في دراسته تمموا مافي نفوسهم من نقص وأضافوا الى عواطفهم ماينقصها من القوة والحماس واطلعوا على حياة غير التي يألفونها وعلى شخوص لاوجود لها في مجتمعهم وبهذا فازوا بالذي كانوا ينشدون .

ومن هذا نرى أن اتخاذ القدوة ليس بالهين ،لأنه يحتاج الى الإخلاص والجد ولكن من يقلد فلاناً في مشيته وذاك في ملبسه وآخر في كلامه وينتظر أن يكون عظيما مثلهم لأنه يمشي كما يمشون ويلبس كما يلبسون ويتكلم على نفس الطريقة التي بها يتكلمون فهو

كالغراب لايبقى على شخصيته ولايستطيع ان يتلمس أسباب العظمة التى فتن بقشورها دون اللباب ، والتقليد لايخرج غير الآلية التى تجعل من الرجال مسوخاً وقرودا وحذارى من مثل هذه الخطة الطائشة التى يراها الشباب الغافل الجاهل بما يعمل من طرق العظمة ،واني لأذكر فى شيء من الضحك والسخرية مايقوله بعض الصحاب « اني أشرب الشاى لأن « هازلت » كان يكثر منه وأدخن اثناء الكتابة لأن كبار الكتاب تعودوا على ذلك » وكثير غير هذا من هذر الطفولة . ويظن ذلك البعض أنه سيصير مثل هؤلاء بهذا التقليد الأعمى . وليته قال « اني ادقق فى تعاريف مواضيعى وأسلسل اسلوبي وأهتم بتناسقه لأن «هازلت» كان يفعل ذلك وإني اقرض الشعر ماسكا برقاب بعضه متآلف الصور متجاوب الأوزان لان ابن الرومى تفرد بذلك وأعجبت به » واذا قال ذلك لقلت مرحى فإن هـــذا الفتى سيصبح فى يوم من الأيام مثل هؤلاء العظماء الذين يقتدى بهم ويود لنفسه مثل مكانتهم .

القدوة مهمة فى الحياة وخصوصا فى بلد يود النهوض من عثرته ويحتاج الى قادة فى الفكر والسياسة ، وذلك لأن القدوة تساعد على تجديد مافيه من مياه راكدة بمياه من منبع آخر وذات طعم عذب وما دامت بلادنا خالية من الأبطال الذين يقتدى بهم الشباب فلنول وجهنا شطر الأمم الأخرى و فى كتب التاريخ سنجد من الأبطال من نقتدى بهم . والذى دعاني إلى هذه الدعوة ماأراه فى نفوس كثير من شبابنا من الطموح والتطلع ولكن ينقصهم المثل الذى يحتذونه والقدوة التى يتبعونها ولولا ذلك لظهر منهم عدد كبير وتفوقوا فى سن العشرين أو بعدها بقليل كما ترى فى الأمم المتمدنة ،ولكن فقدان القدوة جعلهم يتعثرون فى طريق شائكة ذات صخور ناتئة ومنحدرات عميقة كثيرة السراب قليلة الماء يكثر فيها الخداع ويسهل التمويه .

اشتهر الشرق بروحانيته والغرب بماديته ، والغرب لازال يتلمس من روحانية الشرق لتنير له الطريق وكثيراً ماظفر ببغيته . ولا أحسب روحانية الشرق بمفردها تكفى للحياة ولا مادية الغرب تكفل ذلك . ومادمنا نحن فى صميم الشرق وعندنا من روحانيته الضوء القوى المنير فلنول وجهنا شطر الغرب ولنتخذ من أبطاله النماذج التى نتبعها فى البداية ولنأخذ الصالح من طرقهم وآرائهم ونضيفه الى ماعندنا من روحانية، وبذلك تكمل عندنا معدات الحياة . أرى بلادنا محاطة بسور من التقاليد سميك يمنع دخول النور والهواء اليها ومادمنا قد بدأنا النهوض فلنفتح فى هذا السور نوافذ تسمح بدخول مانحتاجه من النور والهواء ونقفلها فى طريق مالانود دخوله . والطريق الوحيد ، مادام الفقر يمنعنا من

التغلغل فى الغرب والأخذ منه، هو الإطلاع المثمر والفحص الدقيق والنقد المفيد لأنفسنا على ضوء القدوة التى نتخذها وكذلك نقدنا للقدوة ومانستهجنه فيها ، وكفانا بعد هذا الركود ولتتحرك امواجنا وقد صخبت كل البحار .

١٤

أدب التجارب (١)

كثيرا ماقلت ان خير الأدب مالامس الحياة واشتق منها وذلك لأني أدين برأى أرجو أن اوفق الى شرحه فى هذه العجالة وخلاصة الرأى ان الأدب حصاد تجارب الإنسانية ماضيها والحاضر، وتتبلور هذه التجارب فى أعمال الأدباء المبدعين الذين يأخذون من الحياة ويهدون اليها فى كثير من الدقة وصدق الأداء غير غافلين ما اخرجه غيرهم من الأدباء والاستفادة منه لأن نتاج أولئك الأدباء جزء من الحياة اخذ منها ورد اليها فى قالب نظمى أو نثرى وبترتيب يسهل فهمه على من لاتعوذهم العين الثاقبة والبديهة الحاضرة على ان للرأى إتجاهـــا آخر يذهب بالأدب نحو العلم حيث يشاركه الدقة والإستقصاء والتروى الناجم عن إعتدال فى الذهن وقوة الملاحظة .

ان الناظر فى أدب الشرق فى الوقت الحاضر يراه مجموع سبحات فى عالم الخيال وأخرى فى الروحانيات وذلك لما طبع عليه الشرق منذ البداية حيث كان مهبط الوحى ومقر الديانات السماوية، فتأثر بها وامتزجت بلحمه ودمه وأثرت فى معيشته، وبالتالى فى تفكيره وفى أدبه . ولابأس فى ذلك عندما كان يزينه سلطان الملك وتدعمه قوة الحياة فكان الأدب الشرقى طافحا بالخيال مستجليا لصور الحياة. غير ان الزمن – بعد ان طال – أضعف تلك الميزة فى روح الشرق ولم تعد بعد تؤدى وظيفتها كما كانت من قبل وذلك لأسباب تتلخص فيما يعانيه الشرق من العبودية والخمول وماطرأ ويطرأ عليه من الإنقلابات المؤلمة فى الأنظمة وسبل الحياة وقد بدا الشرق فى شيخوخة أقرب الى الموت والفناء ولكن أبناءه يودون له الحياة من جديد غير أني أراهم ضلوا سبيل الرشاد إذا كانوا يرون حياته فى التقليد والنقل عن الأمم الأخرى التى لاتحيا حياته ولاتدين بما عنده من التقاليد

---

(١) نشرت بمجلة النهضة السودانية – العدد الخامس والعشرين – فى ٢٠ مارس ١٩٣٢ .

صالحها والفاسد، وخصوصا فى الأدب الذى قام دعاته اليوم فى الشرق فهو أدب غربي فى الشكل والروح وفى التفكير والأسلوب، ولا أبالغ إذا قلت فى الآراء المنقولة وفى وصف حياة أبعد ماتكون عن حياتنا. وهذا عجز ظاهر منا إن دل على شيء فلا يدل إلا على ضعفنا وتقدمنا نحو الفناء بخطوات سريعة.

لنا ان نأخذ من الغرب طرقه فى الأدب ودرس الحياة لأن الأدب فى الغرب على وجه الإجمال هو إستجلاء الحياة وتصويرها والإستنتاج منها. وما الحياة عندهم سوى المادة الخامة يأخذها الأديب فيصفى منها الذهب السبيك، أو يحوك منها الجميل والقوى من الثياب، ثم يردها الى الحياة فيتخذها الناس حليا للنفوس ورداء لها، والقصة فى أوربا عامة والروسيا خاصة ماهى سوى حياة القوم صورت بكل مافيها من مرح خلوب وحزن وكآبة ومافيها من حركة وجمود ومايسودها من عدل وظلم وحب وبغض وغنى وفقر. ولكن القصة فى الشرق هى صورة من اوربا مع تغيير أسماء الأشخاص والأماكن ولذلك تجدها فاترة بليدة لاتنبىء عن شيء سوى عقم الشرق بعد أن كان خصب التربة وافر الإنتاج.

ومحاولة فاشلة تلك التى يقوم بها من يريدون إقتفاء آثار الغرب فى الأدب، لأن أولئك النفر أخذوا القالب ولكن جهلوا إستعماله وتطبيقه على حياتهم فكان لايخرج غير الصورة ولكن الروح التى تزينها وتكسبها الحياة فلا وجود لها وإذا شئنا أن نستفيد من اطلاعنا على الأدب الغربي فالسبيل الوحيد أن نسعى لإيجاد أدب يرتكن على تجاربنا الخاصة فى الحياة، وتكون مادته مانلاحظه فى غدونا ورواحنا، ومانصادفه من الصعاب فى مجتمعنا ونود تسهيله، ومانجده فيه من المسرة ودواعى الإطمئنان ونرجو تدعيمه وزيادته. ومحاولة فاشلة أيضا تلك التى يقوم بها أنصار الأدب العربي، لأنهم بدورهم يحاولون إقتفاء آثار أمرىء القيس والنابغة وعبد الحميد الكاتب والجاحظ وغيرهم من شعراء العرب وكتابهم فى جاهليتهم وإسلامهم، فلا تنتج جهودهم غير التقليد فى صور ممسوخة باهتة وآراء مشوشة، لأنهم يتغزلون كما كان امرؤ القيس يتغزل ويبكون مثله العرصات ويمتدحون الأنواق على الرغم من ان الجمال الذى كان امرؤ القيس يهواه غير الجمال الذى يلفت الأنظار اليوم ويستهوى القلوب، وعلى الرغم من ان المنازل صارت من الآجر والحجر والخرسان المسلح، وطرق المواصلات أصبحت بالبخار فى البر والبحر، كما إنها إرتفعت الى السماء وسابقت الطير وغاصت فى البحار مع الأسماك. وكفانا من امرىء القيس

وصحبه اللغة التي كانوا يستعملونها بما فيها من جزالة ومرونة وحسبنا أن نخلص لأحبابنا إخلاصهم لأحبابهم وأن ندرس حياتنا ونصورها كما فعلوا بحياتهم .

أدب التجارب هو الذى ينال الخلود، لأنه مبنى على الملاحظة الدقيقة والمقارنة بعد الإستعراض ، ولأنه مأخوذ من الحياة ومردود اليها بعد أن اكتسب القوة والجمال بفضل ماعند الأديب من فن وماله من سحر البيان وبراعة التصوير . وأدب التجارب يقرب من العلم لأنه مبنى على الحقائق الظاهرة الملموسة والتى أثبت الواقع صحتها فلم يبق الا تصويرها وتوضيحها والإستنتاج منها، والتى يصح تطبيقها على غيرها من ظواهر الوجود والإنسان ومراقبتها عن قرب وإتصال والإندماج فى الأوساط لتعرف أخلاقها وطباعها وميولها وتصويرها بغرض التحسين فيها والإضافة اليها وبذلك يكون أدب الأمه قائما بواجبه لأن للأدب مهمته في الحياة وليس الغرض منه التسلية وقطع الزمن والتفكهة التى يرسلها المرء ضحكات فى الفضاء . وما قيمة الأدب إذا لم يساعد على الثورة والإنقلاب فى المعيشة والأفكار وعلى تنبيه المشاعر وإيقاظ النفوس والدفع بها فى تيار الحركة والتطور.

يحتاج أدب التجارب الى دراسة علمين رئيسيين يملك المرء بمساعدتهما زمام أدبه ويضمن نجاحه ، وهما علم النفس وعلم الإجتماع . وكــلا العلمين حديث فى الإسم والقوانين غير انهما بدأت نواتهما منذ ان بدأ الأدب عند اليونان والعرب وبقى على الملاحظة والإستنتاج والتوليد ونقــد اساليب الحياة وتوضيح سبلهــا ، وكان الأدباء يعملون بما فى نفوسهم من عناصر هذين العلمين بالفطرة على درس الأوساط والتمكن من معرفتها على الرغم من ان العلمين لم يعرفا آنذاك ولم توضع لهمــا الأسماء والقوانين وكانت مهمة الأديب فى ذلك الزمن صعبة لأنه لم يجد أمامه من القوانين الثابتة مايساعده على الدرس وضمان النجاح ولكن الآن وقد عرف علم النفس وأصبح فى متناول كل أحد أن يدرسه ليقف على أسرار نفسه ونفوس من حوله الى حد بعيد وذلك بتطبيق نظرياته ونواميسه على مايصادفه فيخرج بذلك أدبا دقيق النتائج صادقها على قدر الإمكان وقد يصل أحيانا الى قوانين جديدة يضيفها الى علم النفس فيساهم بذلك مع العلماء بعد ان أدى مهمة الأدب. كما ان علم الإجتماع إتسع وقطع شوطاً بعيداً وفى مقدور الأديب بعد دراسته ان يتعرف نفوس الجماهير وميولها وأسباب تدهورها وتقدمها الى غير ذلك من المسائــل التى يعالجها هذا العلم . والأديب إذا عرف هذه الأشياء كان قادراً عــلى الإفصــاح عما يخالج نفوس الجماهير التى يجتمع بها وعلى تقدير مشاعر الجماعة التى يحيا معها وعلى

التلطف بها ليملكها وعلى التحبب اليها ليرشدها .

والأدب الحديث يرتكن الى حد بعيد على علم النفس حتى كاد يكون جزءا منه فالناقد لايتصدى الى نقد أى أديب فى أى عصر قبل دراسة وافية للمشاعر السائدة فى عصره ولنفسية الأديب حتى يعرف ماكان يجب ان يقال ومالايقال وليرى الأشياء التى كان من واجب الأديب ان يعنى بها والعواطف التى كان من حقه أن يفصح عنها وعلى هذا القياس يناقشه الحساب، فإن كان يؤدى رسالة عصره ويمثله بخيره وشره وكماله وإنحطاطه وحركته وجموده وصدقه وكذبه فهو أديب يشبه المرآة الصافية تبدى كل مايعكس عليها وإلا كان فاتر الإحساس وعليه فهو عديم الفائدة ولايستحق التقدير .

ولأدب التجارب قوالب كثيرة ينصب فيها، من أهمها القصة والرواية والقصيدة وذلك لضرورة ملازمة هذه الحياة وإستخلاصها منها . ولأن القصة والرواية غرضها العرض سواء للقارىء أو للمشاهد على المسرح ولايتم هذا الغرض إلا إذا كانت فى القصة أو الرواية حياة وحركة يحسها المرء وفيها شخوص يخيل للمرء انه يعيش معهم ويصادفهم فى طريقه ويستمع اليهم كما يستمعون اليه ويبادلونه الحب كما يبادلهم ويصارحونه بالكره كما يصارحهم، وإذا كانت القصة أو الرواية مزدحمة بالمناظر التى تطفح بمثل هذه المشاهد الحية المفصحة فهى من نتاج الحياة وهى براعة يحمد عليها المؤلف، وجدير ان يقدر عمله لأنه من أنصار أدب التجارب، أما إذا كانت القصة أو الرواية كالصورة بهاء ولكن لاروح تسيرها، وكالتمثال قوة ولكن ليس فيها من الحياة مايشعرنا بقوتها ، فهى بلاشك تقليد وعرض زائل سوف يمضى بعد زوال الألوان التى تزين الصورة وإنطماس المعالم التى تظهر الدمية .

ولى كلمة هنا عن القصة والرواية أتقدم بها الى أبناء هذا البلد وذلك لأننا فى أول الطريق وبلادنا عذراء وفيها من صور الحياة ومثلها مالايتوفر عند الأمم الأخرى وفى وسعنا أن نخلق شخوصاً لقصصنا ورواياتنا يتحدثون كما يدور الحديث فى أوساطنا ويفحصون عن حياتنا ، وفى وسعنا أن نخلد مناظر بلادنا ومشاهدها ونجعل منها مادة للكتابة نبدع فيها ونتفرد بالإبداع وإذا قرأتها الأمم الأخرى وجدت فيها من عناصر الحياة ماينقصها، وعليه تكبر أدبنا وتمعن فى دراسته لما فيه من التفرد والإبداع وأى بلاد فيها من السحر والخرافة و«الكجور» وفيها من بساطة البادية وطيب النفوس والخواطر وصدق الإيمان فى كل مايقال مثل بلادنا ؟ سبحان ربي فقد وهبنا مانخلق منه ثروة وفخراً

لأنفسنا ولكننا نأبي إلا أن نقلد غيرنا ولانحسن التقليد . ونرضى بجمود القرائح وعقم الأفكار وكل ماحولنا مثير للفكر ومساعد على الإبداع .

وأما أن القصيدة من أهم القوالب التى ينصب فيها أدب التجارب فهذا مالايجهله كل من مارس الشعر وقرضه عن صدق وإخلاص ، وتذوق جيده من غثــه . وميز بين صادقه وزائفه. وكفى أن نقول الشعر أصله الشعور والشعور معناه الإحساس النفسى بما يلامس الحواس من ملموس ومسموع ومرئي . وإذا كنا نخلص فى تصوير مانحسه من الحياة ومايغرينا به ماحولنا من ظواهر الحياة ونترجمه من لغة الضمير ومافيها من أنات ألم وسرور ، ومافيها من إنقباض وإنشراح ، نترجمه إلى اللغــة التى يفهمها البشر بكل مافيها من أنغام محزونة ومسرورة ونحسن الأداء اللفظى؛ فنحن أحسن الشعراء. ولعلــى لا أخرج عن جادة الصواب إذا جزمت بأن الشعر لايبلغ درجة الإجادة إلا إذا كـــان وليد التجارب الشخصية وصدى للإحساس النفسى، تسمعه أذن الشاعر فيجرى به لسانه وتسطره يده على القرطاس، وأما الشعر الذى يقال للتسلية وقطع الزمن ولايقصد به تخليد التجارب والذكريات فهو شعر الفقاقيع يفنى سريعا كما تظهر وتختفى فقاقيع الماء . ومن هذا النوع شعر الغزل الذى لاحب فيه، والرثاء الذى لاحزن وراءه، والمدح المغرض وغيره من غثاثات المتشاعرين .

وختاما أقول إن الأدب هو البقية الباقية من حقوقنا من غير حجر ولاقيد وإذا شئنا بقاءه حراً طليقاً فعلينا أن نتخذه من حياتنا وتجاربنا وأن نسلك فيه منهج الصدق ، والإخلاص ، لامسلك التقليد والمحاكاة البليدة وعلى الأخص فى القصة والرواية والقصيدة وإن شئنا فقدان هذا العزاء الباقى فلنكبل الأدب بأغلال آلم من أغلالنا، ولنقض عليه بسجن الأبد الذى لافكاك منه إلا إلى القبر . وما أرانا إلا فاعلين ذلك مادمنا لانتتج من الأدب إلاتقليدا ولانجنى إلا الصيداً . فليرحم الأدباء الأدب وأنفسهم وليغنموا له ولهم من الحرية الذاتية مايخفف عليهم وحشة الخمول والإنكسار، وذلك بأن ينحتوا الأدب من الحياة ويردوه اليها ليكون حليا للنفوس العاطلة ورداء للأجسام العارية . وفى أدب التجارب حرية الأدب ونجاته من أغلال التقليــد للأمم الأخرى. وفى أدب التجارب حرية الأديب وخلاصه من قيود غيره من الأفكـــار، فإلى الحياة ومنها فليكن العطاء والأخذ وفى ذلك فوز المخلصين المبدعين مـــن الأدباء .



مقالات

مجلة الفجر

٢ يونيو ١٩٣٤ - ١٦ مارس ١٩٣٧

١٥

صالح عبد القادر [١]

شاعر ينقصــه الفن

تظلل وجهه سحابة من الكآبة والحزن . وتلوح عليه سمات السآمة والملل مما يلاقيه من عسف دهره، وماصادفه من الفشل فى حياتيه الغرامية والسياسية، فقد حدثنا بعض عارفيه إنه أحب ولم يوفق فى حبه حيث زفت حبيبته الى سواه، وخاض بحر السياسة فصرعته أمواجه المتلاطمة وراح وجاء مع جزره ومده . وليته تعهد ناحية هى الى نفسه أحب من الإثنتين وإن قال هو غير ذلك، وخصائصها متوفرة فيه ووسائلها سهلة لديه وطوع بنانه، وتلك هى الحياة الأدبية التى وضع صالح حجر الأساس لها فكان فذاً متينا ولكنه كف عن البناء ولم يشأ أن يبنى لنا قصوراً من الشعر شامخات باقيات مابقيت عناصر الحياة .

مرت به ظروف حرجة مسيئة أثرت فى نفسه وحولته عن مجرى حياته المرحة التى كان مشهوراً بها بين الأخوان والخلصاء، وصار صاحب طابع تشاؤمى يشكو الدهر وهو يائس من خيره، موطن النفس على لقاء شره ولكن طبع الفكاهة الذى فطر عليه لازال يلازمه رغم آلامه التى يقاسيها وشظف العيش الذى هو فيه، فلا يخلو حديثه من نكتة حزينة يرسلها دون أن يبتسم لها والسامعون فى موجات من الضحك يغرقون . لم يعرف السرور إلا لماماً، فاذا شكا الدهر فهو محق فى شكواه، وإذا ابتأست نفسه من رؤية الأشباح التى تمر به آناء الليل وأطراف النهار فذلك دليل اليأس من أمة شاءت أن تخذله وقد أراد نصرتها .

على أني لم أر الشاعر إلا نادراً، فلأكف عن الكتابة فى حياته وتفاصيلها، ولأعرضه

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – العدد الأول – فى ٢ يونيو ١٩٣٤ .

عليك فى شعره، فهو نجوى نفسه الحزينة المتشائمة وذكرى غرامه الدفين ومجالس أنسه التى يود أن ينسى فيها نفسه وآلامه المتصلة .

شعر صالح المثبت فى ديوان شعراء السودان يمثل أربعاً من نواحى فكره المختلفة ففيه تشاؤم من الدهر وسأم من غلوائه، وفيه روح فكهة ساخرة، وأخرى متصبية بالجمال تحسن التغزل وتجيد الوصف، وروح سكير عربيدة لايلوى صاحبها على أمر فى الحياة ولايقيم لما فيها وزنا إذا ظفرت نفسه بكاسات الخمر . وهذا التنوع فى مثل ذلك العدد القليل من القصائد يندر أن تجده بين شعرائنا، وذلك لأن صالحاً يعرف كيف يختار مواضيعه وهو أيضا يفرغها فى أوزان متنوعة، فكل قصيدة تكاد تكون من بحر مخالف لبحور القصائد الأخرى . وليت شاعرنا عرف كيف ينظم هذه المقدرة فيأتينا بآيات من الفن بينات ولكنه كما سترى مهمل لايعير فنه أدني التفاتة .

وقصائده التى يثبت فيها عقيدته التشاؤمية ــ ولو انه لاتخلو قصيدة من قصائده من بيتين أو ثلاثة عليها هذا الطابع الفكرى ــ اثنتان على مابينهما من تقارب فى المعاني، الأولى مطلعهـــا :

شباب تولى والليالى كما أرى	على صعاب كم بحادثها أشقى
ألا هل معين أو مؤاس فأشتكى	اليه هموما بت عفوا لهـــا ملقى

والمطلع فيه ضعف يقلل من قيمة القصيدة الفنية، ولو كنت مكان الشاعر لجعلت مطلع القصيدة مثيراً للعطف ولبدأت القصيدة بهذه الأبيات :

الى الدهر أشكو وهو عنى معرض	أصم فلم يسمع ولم يحسن النطقـــا
صموت ويقضى كل مالا أريده	فيا بئس مايقضى ويابشر ما ألـــقى
أسائله عطفـــاً فيــزور نائيـــــا	ألا ماكفى ظلماً بأن حبس الــرزقا
وأســـأله سلمـــا فيشهر سيــــفه	فيا دهر ما أقسى ويابؤس ما أبقى
شباب تــولى والليالى كمـــا أرى	على صعاب كم بحادثها أشــقى
ألا هـــل معين أو مؤاس فأشتكى	اليه هموما بت عفوا لهـــا ملقى

والذى دعاني الى هذا التقديم والتأخير فى أبيات القصيدة مايتطلبه المطلع من الروعة. وان القارىء ليجد فى هذا المطلع الجديد صورة تحمله على العطف على هذا الشاعر البائس الذى يشكو الى الدهر والدهر عنه معرض بل وأصم وأبكم، لايحسن النطق. يقضى الدهر

مالا يريده ، ويغفل مايوده ، وإن امرأ هذا حاله لأحق الناس بعطف الناس ومشاركتهم له في بلواه. وإن هذه الروعة فى المطلع التى تأخذ لب القارىء فى بداية القصيدة وتستمر معه حتى نهايتها لمما يتطلبه الفن . وبراعة الإستهلال فى فنون الشعر قديمها وحديثها محمودة يستحق الشاعر عليها الثناء .

والقصيدة فى جملتها زاخرة بالعواطف الصادقة التى يشارك فيها الشاعر كثيراً ممن صرعهم الدهر وجرعهم كؤوس سمومه . وتبدو فى هذه القصيدة عقيدة صالح التشاؤمية فى أوضح صورة، حيث يرى أن الدهر لايعامله كما يعامل سائر الخلق بل يتعمد ظلمه والشاعر يضرع الى الدهر أن يعدل معه ويكتفى بما حمله من بؤس فى عهد الصبا :

تعمدت ظلمى أيها الدهر ما الذى ... يضرك لـو أنصفت متبعا حقا ؟
تحملت طفلا منك كـل عظيمة ... وما العدل أني بعد ذا علقما أسقى
وتطلب منى أن أغـير مـبدئى ... فيا بعد مطلوب به طارت العنـقا .

وكأني بالشاعر يرى أن الدهر وعده أن يغير معاملته اذا غير مبدأه وسرعان مايثور شاعرنا أمام الدهر ويركب رأسه ويوطن نفسه لشر الدهر وييأس من خيره مادام هذا الخير يكلفه تغيير المبـدأ. وفى هذه الصورة الشعرية مطابقة لحـياة صالح وإني لآسف حين أرى الفاظها مضطربة تكاد تنبو عن الذوق السليم ولو إنتبه صالح لالفاظه وتخيرها وأحكم وضعها لكان لنا فى مثل هذه الصورة مايجعلنا ننادى بشاعريته .

ومن أبرز عيوب هذه القصيدة تفكك أبياتها فإن مخاطبته لربة الخـدر بعد قوله للدهـر :

وتطلب منى أن أغـير مبـدئي ... فيا بعد مطلوب به طارت العنـقا
ألا فأعلمي يا ربـة الخدر انهـا ... سحائب صيف تضمحل ولاتبقى

لاتدل على إتصال بين الصورتين، فهلا إجتهد الشاعر فى ربط أجزاء قصيدته حتى يكون منها وحدة كاملة الأجزاء متصلة الحلقات . وموسيقى القصيدة فاترة لاتليق بشعر الشكوى الذى لو كان الشاعر ماسكاً بناصية فنه لأسمعنا فيه رنة الأنات وأشعل قلوبنا بحرارة التنهدات ولأسبل دموعنا حزنا على أنفسنا المهضومة الحقوق كنفسه ولو جد منا عطفاً عليه ومؤاساة له فى بلواه .

لايجيد صالح مطالع قصائده والظاهر أنه لايعير الناحية الفنية أدني التفاتة وكل

مايراعيه فى شعره هوان يودعه مايجول بخاطره من الأفكار ومايجيش بصدره من العواطف فهو شاعر بطبيعته ، متوفرة فيه دلائل الشاعرية ، ولكنه لايتقن قواعد فنـــه، وحظه من الصناعة غيركبير ، والشاعر لايسمى شاعراً إلا إذا كان ملهما صناعاً وناقداً لشعره قبل أن ينقده الناس . والمثل الذى نسوقه للتدليل على ماذهبنا اليه قصيدته الثانية فى شكوى الدهر والتى مطلعـــها :

لا تلمننـــى فتكـــن متهمـــى ... ان عقلى لم يكـــن متهمـــــا
ولم الـــدهر عـــلى تقصيره ... أخطأ الدهـــر وعمدا ظلما
لـــيته يعلـــم مـــا أعلمـــه ... حيث لايجعـــل حظى ندمـــا

ولايصح أن يكون هذا مطلع قصيدة، والشاعر لم يأت بالبيت الأول الا ليثبت كلمة « لاتلمنى » ويردفها فى البيت الثاني بكلمة و « لم الدهر » والبيت لامعنى له ولاطائل وراءه وماهى علاقة اللوم باتهام العقل؟ ومن قال لصالح ان عقله متهم بالجنون ــ لاسمح الله ــ وعندى لو مزج البيت الأول بالثاني وكون منهما مطلعاً لأجاد، وذلك أن يقول مامحناه « لاتلمنى وانما لم الدهر فهو المسىء وهو المقصر الظالم » .

وهذه القصيدة فيها أفكار سامية وعواطف نبيلة ولكنها مختلة النظام منفرطة العقد تشعر بإضطراب فى أداء الصور الشعرية وتلاحقها بعضها البعض وهذا الإضطراب دليل الإهمال وعدم مراعاة الفن واصول الصناعة . وعندى أن شاعرنا يفكر فى حاله وحالة قومه، وكلما جاشت بخاطره فكرة أو بنفسه عاطفة نظمها فى بيت ويظل كذلك إلى أن يجتمع له العدد الكافى من الأبيات لتكوين قصيدة فيضعها دون أى ترتيب أو مراعاة للوحدة وإلا فما معنى قوله :

أيها الدهـــر أنا من معشـــر ... حكموا الرأى وهزوا القلمـــا
فلكـــم أزعجنى منتقمـــــا ... ولكم وجـــه نحوى تهمـــا
فاســـأل العالم عنـــا إننـــا ... أمـــة كنا وكانوا خـــدمـــا

الخطاب فى البيت الأول للدهر والشاعر يخبر الدهر أنه من قوم « حكموا الرأى وهزوا القلما » وتحكيم الرأى وهز القلم من عنصر واحد ولو كنت مكان الشاعر لقلت « حكموا السيف وهزوا القلما » لأجمع فى أمتى مقدرتي الحرب والسلم. ثم قل لى بربك أيها الشاعر ــ ولا أقول أيها القارىء لأن ذلك إحراج له ــ على من يعود ضمير الفاعل فى

أزعجني؟ أيعود على الدهر والدهر مخاطب بينما الفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو؟ ان هذا الإهمال البسيط جعل فى القصيدة خللاً بليغاً وقد أصبح هذا البيت فى وسط البيتين كمحيط بين قارتين لاسبيل الى إتصالهما.

فى هذه القصيدة تكثر قفزات الشاعر من رأى الى آخر ومن حديث إلى حديث دون أن يشبع نهمنا أو يروى غليلنا وهذا التنقل جعل القصيدة عديمة الوحدة والداخل اليها لايخرج منها إلا بتشويش يفسد عليه ماقد يعثر به من معنى جميل هنا وهناك. وانا لننصح الشاعر أن يجعل وحدة القصيدة نصب عينيه فقد إنقضى ذلك العهد الذى كان فيه البيت قوام القصيدة وفى كل قصيدة بيت قصيد تسير به الركبان، وأصبح الشاعر محاسباً على قصيدته بجملتها كما يحاسب المصور على صورته جميعها لابإجادة تصوير العيون وتوريد الخدود فقط . وإذا حاول الشاعر أن ينظم قصائده مراعياً الوحدة وبراعة الفن ودقة التعبير فسوف يضع نفسه فى مستوى من الشاعرية يحسد عليه .

إني لآسف حين أرى الفكاهة المعروضة فى قصيدته « فى هجو محدث نعمة » ليست من النوع العالى الذى يثير الضحك وفى نفس الوقت يثير العقل ليفكر فى ما وراء تلك الفكاهة من عبر وآراء فى شتى نواحى الحياة . كانت فكاهته من قبيل السباب والشتائم التى يتبادلها الجهلاء وأنصاف المتعلمين واليك نموذجاً منها :

أخطأت ظـنـا بالزمـا ن	قضى الزمـان بالإنقـلاب
فسقطت حـيث صغرت فى	نظر الشيوخ وفى الشـباب
ولقـد رماك الدهر حـتى	هنت فى نظر الكلاب (؟)
إنا على ماضـيـك لـم	نسدل سـتاراً أو حجـاب
أنسيت نومـك فى التراب	فصرت تحكـم فى الرقاب ؟
أيام كنـت تسير فـى	الطرقـات عار مـن ثياب
أيام كنت مـن الضعـاف	وكنت مهضوم الجنـاب
أنسيت أيـام « البليلـة »	و« البصارة » والهـباب
فغـدوت تأكـل ما علمت	وما جهلـت مـن الكـباب

والبيتان الأخيران نزلا بالشاعر الى درجة العامة فهما كلام لاتشتهى ان تسمعه، زيادة على أنهما لايتعدى معناهما قولهم « كنت تأكل رديئا وأصبحت تأكل جيدا » وانا لننصح

لصالح أن يكف عن مثل هذا النوع من الشعر وأن يودع شعره غزر فكاهته التى عرف بها بين أصدقائه وعارفيه.

والآن دعنى أسوق الحديث عن غزله ، واني لأبشر القارئ باشراق الديباجة وجمال الموسيقى وحلاوة الوصف التى تهيمن على كل شعر صالح الغزلى . وذلك لأنه أحب فتحدث عن الحب بلسان من ذاق عذبه ومره . وأولى تلك القصائد التى أحدثك عنها قصيدته التى مطلعها :

لاتقل صبراً فمالى جلد ودع اللوم فقلبى لايعى

وحبيب مر بي ما اكترثا خيب الظن وعهدى نكثا وبقلبى فى الهوى قد عبثا

فبكى لى الناس مما أجد

وبكت أهل السموات معى

ويحق لى أن أقول إنها خير مثال للغزل فى ديوان شعراء السودان ، وذلك لتوفر خواص شعر الحب الجيد فيها ، فهى خلو من وصف الأعضاء ، والإغراق فى قيود المادة التى تنزل بالشاعر الى درجة الحيوانية ، بل كانت عواطف منسكبة ، وشكوى حارة ورجاء تمليه الذلة والإستكانة أمام جلال الحبيب ويقويه صدق العاطفة وإيمان الحب الذى لايقبل منطقاً ولا جدلاً وليس للعقل ثمة من سلطان . والقصيدة عذبة الألفاظ حلوة الموسيقى تذكرني بإبن المعتز فى غزله .

وفى قصيدة أخرى أرسل بها الى زميله الشاعر عثمان محمد هاشم يرينا شاعرنا نموذجاً من شعر الحب والهيام مازلنا ننشده من شعرائنا :

لاتلوموا ذا شجون	سن للناس الغراما
حمل الحب على الضعف	ولم يشك السقاما
كلما ناح اشتياقا	علم النوح الحماما
أيها اللائم عفوا	فيه لم أقبل ملاما

وهذه قطعة من القصيدة يجد فيها القارىء صورة لوجد الشاعر جاءت فى أحر موسيقى وأقوى الفاظ ، والقصيدة فى جملتها شكوى وهيام كسابقتها لاعلاقة لها بوصف الأعضاء . واني لأناشد الشاعر أن يكثر من نوع هذا الشعر وأن يغنينا من أنات نفسه المحزونة العاشقة ، فهذا مجاله ، وأخيراً دعنى أتقدم الى صالح ناصحاً وعاتباً ومشجعاً .

سيدى الأديب ،

لك فى الشعر قدم ثابتة ، وإن مايلاحظه المطلع فى قصائدك المثبتة فى ديوان شعراء السودان من دلائل الشاعرية يجعله شديد الأسف على أن يخبو ذكاؤك وتقتل شاعريتك الناشئة ، بل ويجعله يشدد النكير عليك راجيا أن تأخذ بناصر الأدب وتترك ماسواه ، ولتعلم أن الأدب أساس كل النهضات فى الأمم بل هو تعبيد للطريق ووضع للأساس ، فإن كنت مخلصا لأمتك فاعكف على شعرك وزودنا بالكثير منه لتشترك فى غرس الأدب الذى نرجو له أن يزدهر سريعا .

ولتلاحظ أن قصائدك فى شكوى الزمان مفككة الأجزاء فاقدة الوحدة فاترة الموسيقى ، وأن الفاظك مضطربة فى كثير من المواضيع عن الذوق السليم ، ونرجو أن تهتم بوحدة القصيدة وأن تكون موسيقاك حارة حلوة الرنين . ولتعلم إن شعرك فى الحب والهيام خير ما أخرجته لمواطنيك وفيه الدلالة على شاعريتك هذا وأتمنى لك فى عالم الشعر كل نجاح وتوفيق .

١٦

الفوضى الأدبية والاجتماعية(١)

يشاهد الناظر الى مجتمعنا — بعين الباحث المدقق — أن الفوضى تغمر جميع نواحي حياتنا، وقد تبدو له النهاية المريعة التى ستؤدى اليها مثل هذه الفوضى إن لم يتداركها الناس. وكثيراً ما يأخذ المرء الحيطة لنفسه خشية أن يجترفه التيار القوى والهوة التى ينحدر اليها سحيقة. واني لأسائل نفسي على الدوام : — « لماذا لاتماز الرجال فى هذا البلد فلا كبير ولاصغير إلا وهو زعيم وصاحب صدارة وأدب وشاعر ان دعى الأمر لشعر ، الأن الناس إنعدمت بينهم الفوارق والمميزات أم لأن حالهم فى الحضيض فلا فرق بين من ساخت أقدامه فى الوحل وحاول الخلاص أو كاد وبين من رضى بالوحل وتمرغ فيه ، أم لأن الناس ليس لديهم من المقاييس ماتعرف به قيم الرجال ؟ » .

والحقيقة التى يسوقها المرء — وهو محزون لأن يقررها — هى أن الفوارق والمميزات لاوجود لها. لأن درجات التعليم المدرسى واحدة أو متقاربة، ولأن الناس لاينظرون للجهود الفردية التى يقوم بها من لم يرض بالنصيب الذى ناله من التعليم وشاء أن يحسن مستواه العلمى والأدبي وإذا نظروا لتلك الجهود فبعين ملؤها الحسد والتقليل من قيمة كل طماح أبي النفس. إن الناس وجدوا أنفسهم فى حال تقارب العدم ، فالجهل المريع والفقر المقعد والقيود والآلام ذات اليمين وذات اليسار ومن خلفهم ومن بين ايديهم فاطمأن معظمهم لهذه الحياة الميتة وعاشوا فى المؤخرة بعد أن مرت بهم قافلة الأمم وهم لايبدون حراكا وتعاقبت عليهم السنون وهم يغطون فى نومهم ناعمين بموسيقى النيام ذات الوتر الواحد. والذين لم يطمئنوا لتلك الحياة — وقليل هم — لايزالون فى عراك مستمر كلما رفعوا قدما ساخت الأخرى فى الوحل ، وهكذا دواليك الى أن يقدر الله لهم خلاصا من وهدتهم إذا

(١) نشرت بمجلة الفجر — المجلد الأول — العدد الثالث في ١ يوليو ١٩٣٤ .

لم يتعلق بهم الأحياء الأموات فيثقل العبء ويموت الجميع. وإن المقاييس الثابتة التى تعرف بها قيم الرجال لاوجود لها، وذلك لأن المقاييس لاتتوفر إلا حيث يوجد الماضى المجيد والتقاليد العريقة الموروثة بعد أن تعرضت لمقياس الزمن وبرهنت على صلاحيتها للبقاء.

ولكن هل معنى هذا أن نخلد لهذا الموت ونرضى هذه الفوضى التى تغمر مجتمعنا أم أن هناك حلولا يصح أن يتقدم بها مقترح فيبحثها من يود الإصلاح ويحمل بها الناس بعد صدق التجربة عسانا نصل الى الطريق المؤدية الى شاطىء السلام والتى وإن كثرت فيها الصخور وإعترضتها الفجوات وقامت فيها السدود هنا وهنالك لاتعدم بعض الأشجار الظليلة على جانبيها والجداول الرقراقة على مسافات متباعدة ومتقاربة وفى نهايتها تجد الجنات والبحيرات والأنهار والنعيم المنشود؟ ولتكن تلك الحلول بعض تلك الجهود التى يقوم بها الأفراد للتخلص من الوحل الذى وجدوا أنفسهم فيه فإن صادفت قبولا ولقيت نجاحا فهى جهود مثمرة ستؤتي أكلها بعد حين وان قدر لهـــا الفشل فليكن شعارنا «ان الفشل هو الخطوة الأولى لإحراز النصر».

ولعل أول الأسباب لتمادى هذه الفوضى وازديادها عدم الصراحة ومحض النصح وعدم النقد النزيه الذى لايقصد منه سوى الإرشاد والإصلاح، فنحن لاتقدم الينا مـــدع إلا وأقررناه على إدعائه وشهدنا بأنه صاحب فضل وأديب نابه ولاتقدم الينا صاحـــب بضاعة كاسدة وحصاد هو كالهشيم ان لم يكن أدني، إلا وقلنا له إن بضاعتك نافعة وحصادك نعم الحصاد، وذلك لأن النفوس لم تتخلص من أدرانها ولازالت تشعر بالضعف وتعلم أن الحق لانصير له وأن من يتصدى لقول الحق فسيصيبه ما أصاب الأنبياء والصديقين وما أقل من يحتمل الصعاب فى سبيل الحق، وإذا كان بيننا من المصلحين أصحاب العزائم القوية والأرواح الطاهرة من يمحض النصح ويعطى كل ذى حق حقه ويقول للمخطىء انك مخطىء وللمصيب انك مصيب لكانت حالنا غير هذه ولأنعشنا خامدنا وقوينا ضعيفنا، ونمينا جيدنا، ولكن الآن فكل امرىء مقتنع بما حصل عليه فخور به لايقبل المناقشة فى آرائه ولايصدع للحق ان جوبه به. ومركب النقص يفعل فعلته فيغرى من يشعر بضعفه أن يستره فيعمد إلى ناحية يظنها من نواحى العظمة فيجسمها ويختال بها ولايتحدث إلاعنها وسرعان مايمتلكه الغرور وتعلو به الكبرياء فيتعدى طوره فيهزأ منه الناس وهو يحسب هزأهم تقديراً لعظمته وتمجيداً. ونحن وإن كنا فى بداية الطريق فلا يحسن بنا أن نضل الطريق وسوف نصبح أمام الواقع فنحتاج الى تقدير المميزات ووضع المقاييس وخير لنا أن نفطن للداء قبل أن يصبح عضالاً وأن نشرع فى الدواء قبل أن يعز الدواء.

جماعة من الشبان بزغت شموس حياتهم فى مدى سنة أو سنتين وشبوا وترعرعوا وتلقوا تعليمهم الأولى والإبتدائي والثانوى فى زمن واحد وفى مدرسة واحدة . وبلاشك لكل واحد منهم مميزاته العقلية والخلقية وله أمنياته الخاصة ونظراته الخاصة فمنهم من رزق قوة فى الذاكرة ومنهم من رزق صبراً على العمل ومنهم من رزق عيناً فاحصة وبديهة حاضرة، ومنهم من عنده ملكة أدبية . وقد تركوا المدرسة جميعهم فذهب كل واحد منهم الى مقر عمله في ميدان الحياة فاختلفت بيئاتهم ومهنهم كما اختلفت أميالهم وحظوظهم وأخذ بعضهم فى مواصلة درسه فى الناحية التى يرغبها، ومضى بعضهم فى لعب كرة القدم وتأني فيها وترك ماسواها ومضى بعض آخر فى اللهو « وانساه الشيطان ذكر ربه » فتلك الجماعة من الشبان إذا جمعتها الأيام فى صعيد واحد أمن الإنصاف أن يوضعوا فى كفتى ميزان ولايتضح الفرق بين صاحب الموهبة العامل على تغذيتها المفنى ماله وراحته وشبابه لاشباع نهمها وبين من شغلته نفسه عن واجبه فطاشت أحلامه حتى عجز عن واجب نفسه ! أيصح أن يستوى من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه لأنهما تخرجا من مدرسة واحدة !؟ تلك والله لغاية فى الظلم .

الجهود الفردية وماتثمره هى التى تميز الرجال لا الشهادات المدرسية وإلا فما قولكم فى العصاميين والعباقرة الذين خرجوا من مدرسة الدهر ووجدوا من إستعدادهم الشخصى وقدرتهم على العمل حافزاً الى المعالى حتى أصبحوا وهم الحجة وقولهم الفصل اذا أدلهم ليل الرأى وحارت الأفكار . وعليه فلتكن خطوتنا الأولى نبذ تلك الشهادات وتحطيم الأصنام القائمة فى زوايا بعض النفوس تقدسها ولاتنظر الى سواها وإن جاءوا بالشمس فى يد والقمر فى أخرى .

عندما يبتديء السباق لايظهر المجلى ولا المصلى ولكن بعد أن يقطع نصف الطريق فمن السهل أن نشاهد القائم على رجليه الماضى فى عدوه ونرى الفرق بينه وبين من ساخت أقدامه وزهد في المضى ووقف مكانه،وليس هنالك من غضاضة فى أن نبدى رأينا عن قوة الأول وضعف الثاني، وليس من عيب على الثاني أن يظهر فضل زميله وأن يعترف بعجزه ويضاعف جهوده ليكون فى الدورة المقبلة من الناجحين . أما أن نكابر فلا نعترف بضعفنا ويعمينا الحسد فنغمط فضل زملائنا؛فهذا باطل وعجز مضاعف لايخفيه اللجج وسوف تكشف الأيام عنه ويكون الخذلان سريعا . ولهذا أرى من الواجب أن نظهر فضل النابغين ونشجعهم على الإستمرار فى عملهم، ونوضح للعاجزين عجزهم فيأخذوا لكل

أهبته فلا يضلهم الغرور ولايقتلهم الحسد، ومن الواجب أن نعرف قدر نفوسنا وقدر من نسمو الى مثل مكانتهم، وبهذا نقضي على هذه الفوضى التي تعمل على تأخرنا أكثر من تقدمنا

على أن النبوغ النسبي لاقيمة له وقد يكون من دواعي الركود بل الرجوع الى الوراء لأن النابغ في بلد رضيع كالمبتدىء في بلد قديم الحضارة عريق المجد، وإذا اقتنع بتلك الدرجة النسبية وركن اليها فسوف يمضي عليه الزمن وهو قاس لايرحم ولايبقى الا على الصالح للبقاء . ولهذا لابد لنا من وضع المقاييس الأدبية والإجتماعية لنعرف بها قيم الرجال، ومادمنا في طفولتنا وليس لنا من الآثار والتقاليد الثابتة مانتخذه مقياساً صادقاً فأمامنا الأمم المتحضرة ، فلنعمد الى دراسة مقاييسها وتعديلها لتناسب أخلاقنا وعاداتنا ولغتنا ونتخذها قسطاطا لرجالنا فيبين الزعيم والأديب والعالم ويظهر الجاهل ويخجل من جهله ويعمل على رفعه . على أن هنالك مقاييس تستوى فيها جميع الأمم وفي جميع الأزمنة فلا يكون زعيما من يحتاج الى من يهديه سواء السبيل ولا يكون زعيماً من لاأخلاق له ولاعلم ولاجاه ولامقدرة على الخطابة ولاقوة سحرية يسيطر بها على النفوس ، وليس لديه من صفات اللين والشدة مايحتاجه في ساعات اللين وساعات الشدة وليس له من مضاء العزيمة ورباطة الجأش مايقابل به الصعاب فيها، ولم يوهب من نفاذ البصر مايجعله يسبق الحوادث فيأخذ لها الحيطة، ولايكون أديبا من لامادة للأدب عنده ولاملكة يتعرف بها مايقرأه في صفحات الكتب أو في صفحة الزمن، ولم يقف على فنون الكتابة قديمها وحديثها ويعرف كيف تفعل الألفاظ إذا أحكم وضعها وكيف تسكر المعاني الشعرية النفوس وتلعب بها، ولايكون شاعراً من لايعرف من الشعر غير البحور والأوزان والفاعل المرفوع والجار والمجرور، لأن الشعر يتطلب ذوقاً وحاسة فنية دقيقة ويتطلب تذوقا للجمال في البشر وفي العمارة وفي الصورة وفي الطبيعة مصدر كل جمال وأصل كل الهام. وإذا اكتفينا بهذه المقاييس والمستلزمات المعترف بها وطبقناها على أنفسنا وعلى من يحيط بنا أنصفنا أنفسنا وأنصفنا الناس .

وإذا كنا حقا قد شعرنا بخطورة الفوضى فتعالوا لنعمل لأزالتها، ولتكن الصراحة رائدنا والنقد النزيه الطاهر سلاحنا ، ولنقدر الجهود الفردية ونعرف قيم الرجال وننبذ الشهادات المدرسية ولانتخذها وحدة للمقارنة ،ولنعترف بفضل النابغين،ونوضح عجز العاجزين ،ونحملهم على تقوية ضعفهم ،ولننصف الناس من أنفسنا كما نطلب اليهم أن ينصفونا من أنفسهم ،ولنطبق المقاييس الأدبية والإجتماعية ذات الصبغة العالمية على رجالنا حتى لاتكون العظمة نسبية لبلادنا ذات صبغة محلية .

١٧

الملاح التائه

أو المهندس الشاعر (١)

— ١ —

ديوان شعر مطبوع فى ورق صقيل وبه صور فنية رمزية لبعض القصائد . وضعه مهندس شاعر وأهدانيه مهندس شاعر وأكتب عنه وأنا مهندس إتخذت الشعر والآداب مسلاة لأقطع بها أوقات فراغى وأنسى عندها همومى وآلامى فأصادق أناساً لاقبل لى بمعرفتهم وأتحدث الى أشخاص تفصل بينى وبينهم صحارى وبحار، أسر لجيدهم وآسف لهفواتهم ،وعجيب أمر هذه الهندسة والشعر، يرى الناس أن لاصلة بينهما ولكننا معشر المهندسين نرى أن الهندسة شعر والشعر هندسة . وإذا أنـــا ذهبت فى هذا الحديث سيطول وسيقتصر بحثى على علاقة الهندسة والشعر وأهمل الزميل المهندس الشاعر « على محمود طه» دون أن أفيه حقه، ولكن لابأس من أن أقول كلمتى فى هذا الموضوع ثم أعود الى « الملاح التائه » .

— ٢ —

الهندسة ، وعلى الأخص فن العمارة ، تنظر إلى أشياء ثلاثة — القوة والجمال والإقتصاد . فالقوة لتكسب البناء البقاء المعقول . والجمال لتستروح به النفوس المتعبة وتجد فيه عوضاً عما فاتها من نصيب فى جمال الطبيعة ولينسى عنده العامل المجد أتعاب العمل . والإقتصاد لئلا تستهلك من المواد ماهى فى غنى عنه ، ولتنظـــر إلى حاجة الإنسان فتقدمها له لا أقل ولا أكثر. وكذلك الشعر فيه قوة فى التركيب وجمال فى اللفظ والفن ، وإقتصاد فى التعبير . فالشعر لايكون خالداً إلا إذا كانت تعابيره قوية وصحيحة ، ولاتستسيغه النفس إلا إذا كان جميل اللفظ منوعه، ولايميل الناس إلى قراءته

(١) نشرت بمجلد الفجر – المجلد الأول – العدد الثاني – ف ١٦ يونيو ١٩٣٤ .

إلا إذا كان يقدم لهم العظيم من المعنى ، والجليل من الأغراض فى القليل من الكلمات ولهذا كان الشعر مسجل الخطوات النفسية ونجى العواطف النبيلة لأن إقتصاده إيضاح .

— ٣ —

وعلى هذا الإتصال المكين بين الشعر والهندسة . أتقدم لدراسة « الملاح التائه » والإسم وإن كان عنوان قصيدة قصيرة فى الديوان فهو جميل ساحر جذاب ، غير أني ألاحظ أن التسمية لاتتفق مع قصائد الديوان جميعها ولاتتفق مع فن الشاعر على الرغم من هيامه وشوقه الى « الشاطىء المهجور » ولاتناسب طبيعة مصر التى ليس لها سفن فى البحر وأبناؤها لايحتملون فراقها ، وإن فارقوها ، فسرعان مايهيج بهم الشوق إليها ، لأن مصر ساحرة جميلة ، حبيبة إلى كل من يراها فعذر أبنائها واضح فى حبها وبقائهم تحت سمائها الزرقاء الصافية وفوق أرضها التى تنبت الذهب ويفيض عليها نيلها العذب الفياض . ولكنى على الدوام أسائل نفسى « لماذا لايتغنى شعراء مصر بحبها ولماذا لايصورها كتابها وقصاصوها ؟ » وأبحث عن السبب فلا أظفر بما يرضينى وأخيراً أراني مضطراً لأومن أن بيئة مصر المختلطة من مصريين وفرنسيين ويونان وطليان وإنجليز وألمان وسوريين وهنود إلى آخر الأجناس البشرية ، ومايحدثه ذلك الخليط من تبلبل الألسن وامتزاج الثقافات جعل من العسير أن يكون للمصرى طابع خاص يميز أدبه ويجعله ناطقاً عن مصريته مصوراً لطبيعة وطنه وحياة شعبه ، ولهذا أعذر الزميل الشاعر إن مال إلى هذه التسمية وأثرت عليه ثقافته المكتسبة وطغت على طبعه المصرى الأكيد ، فجاء شعره إنجليزى الطابع عربي اللفظ والتركيب « فالملاح التائه » يذكرني بالبحرى العتيق (Ancient mariner) لـ « كولردج » وغرفة الشاعر ، ورجوع الهارب ، ومخدع مغنية ، وصخرة الملتقى ، وعاصفة فى جمجمة والأمسية الحزينة ، والشاطىء المهجور ، كل تلك عناوين تصح أن تكون إنجليزية الأصل ، ولن يرجع الباحث فى دواوين الشعر الإنجليزية بالخيبة إذا حاول أن ينقب عنها وعن أمثالها . وإذا لم يصدق شاعرنا طبيعة وطنه فقد صدق ثقافته ، وكان أثرها ظاهرا فى شعره ملفتا للنظر ، وكفاه ذلك مغنما فهذه باكورة ستلحق بها كميات وافرة من النتاج الفنى ، وسوف نسمع شاعرنا فى دواوينه المقبلة متحدثا عن جمال مصر متسماً بطبيعة أهلها الفكهة المرحة .

— ٤ —

وقبل أن أنظر فى ألفاظ الشاعر ومعانيه أقول كلمة عن فنه ، وأول مايلاحظه ناقد

الشعر تنوع موسيقاه، فإن وجد أوتاراً عديدة يوقع على كل منها نغماً من ألحان تلك النفس المرحة المحزونة والمستبشرة اليائسة، إطمأن إلى أن الشاعر فنان صاحب موسيقى وسحر. وبعد أن جبت خلال ديوان « الملاح التائه » ورأيت أني أطالع على الدوام نغماً واحداً مطرداً حدثتني نفسي أن أقوم بأحصائية للديوان. فوجدت إن ست عشرة قصيدة من بحر واحد والديوان فيه أربع وثلاثون قصيدة واني لمن يطمعون أن يكون الاستاذ على محمود طه وأضرابه من شباب مصر المثقف فى طليعة من يقضون على السآمة والملل فى الشعر ويدخلون إليه من فنون الشعر الغربي مايكسبه مسحة فنية،وليس فى ذلك عيب لأن الفن إنساني مشاع لايقتصر على بلد دون آخر ، ولكن العيب أن نتحدث عن مواضيع غربية ومشكلات بلادنا ومناظرها فى حاجة لمن يفصل فيها بثاقب رأيه ويصورها بريشته، واني الفت نظر الشاعر لأن يكون صاحب أوضاع فى شعره وأن ينوع أنغامه حتى يجيء شعره كالحياة جمالاً وروعة وشيوعاً ، وليس بعيداً أن يكون صاحب طابع ممتاز وهو مهندس لايقنع بتصميم واحد فى البناء بل ينوع فى تصميماته وليته إستلهم وحى الهندسة فى شعره .

كثير ممن عرفت يعدون الأستاذ صاحب الديوان فى طليعة المجـــددين فـــى الشعر العربي ولكنى أرى غير ذلك لأن التجديد أول مايظهر فى الوضع والأستاذ محافظ فى أوضاعه، يكاد يكون من طراز شوقى وحافظ، على أني لا أنكر أنه كثيراً مايجنح الى التجديد فى آرائه وتعابيره، ولهذا هو حلقة إتصال بين المجددين والمحافظين وخليق بعطف الفريقين يجد أنصاره فى كلتا المدرستين ، ولكنه لايخدم فنه بهذه الطريقة، ولو كنت مكانه لحاولت نقل البحور الغربية مع تعديل بسيط حتى تناسب اللغة العربية، وإن تمكنه من لغته وقوة ألفاظه مما يسهل له القيام بهذه المهمة .

وطريقته فى إستلهام الوحى وسوق الخيال تخرج به فى كثير من الأحيان عـــن دائرة المعقول ، فهذه قصيدته « ميـــلاد شاعر » صدر بها ديوانه وهى طويله فيهـــا جزالة فى اللفظ وفخامة فى الأسلوب غير أنها لاتتقبلها النفس لأن الشاعر كسائرخلق الله لايهلل له صبح ولايطرب له مساء ولاتستبشر به طيور الروض وتغنى له بلابله . والقصيدة لاتشبه شيئا سوى قصة المولد النبوى الشريف نظمت شعراً ولو كانت هذه الأوصاف والمعاني قيلت فى موت شاعر شدا بمحاسن الكون وغنى مع طيور الروض فخفف من أنات المحزونين وضمد جروح المكلومين لكانت آية من آيات الفن . والإغراب فى الخيال سيىء النتيجة كفقدان الخيال .

أسلوبه ، فى معظم قصائده ان لم أقل كلها ، فخم ولفظه جزل وتعابيره قوية غير أنه يطيل حيث لاداعى للإطالة . وإن توفرت فى شعره القوة والجمال فإنه يفقد الإقتصاد ، وإذا جنح الى توفر هذه الخاصية فى شعره سيمحو هذه الضجة والضوضاء العالية التى يشعر بها القارىء فى ديوانه وقليل بين الشعراء من تتيسر له هذه الفخامة فى الأسلوب .

إنها ذكريـات أمسية مرت	وأيام غبطـة وسـرور
وبرىء إبتسامة فـى فم الأيام	كانت عزاء قلـب كسـير
قد طواها النسيان إلا شعاعـاً	غمر الروح فى بقية نـور
رمق ذاك مـن أشعة شمس	علقت فى غروبهـا بالصخور
أخذ القلـب لمحها من وراء	الموج يجتاز لجة الديجـور
فتبينت فـى الشواطىء حولى	أثراً من غرامنا المـأثور

وإنه يعبد النور لأنه خاطف كلمحات فكره ، ويهيم الى البحر لأنه عميق كنفسه واسع كعطفه ، ولايخطىء المرء فى أية قصيدة من قصائده لمح النور وهدير الموج وظلمة الليل وتألق النجوم فى قبة السماء الزرقاء ، ولعل عنده حباً على ساحل البحر يحبب اليه ذكر البحر ، ولعل له أملا فى الغيب وتطلعاً الى المجهول يحبب له النور لينير له الطريق .

شعره ملىء بالتأملات ، وأثر العقل واضح فيه ، وذلك لنشأته العلمية ، ولكن وجوده فى مكان تجول فيه حبات القلوب وعلى الأرض تسير وتنقله بين ظباء البشر ، فى بلد هى ملتقى جمال الشرق والغرب ، أكسبه عاطفة قوية تظهر جنبا إلى جنب مع أثره العقلى ولهذا شعره جماع للعاطفة والعقل ، وفى قصيدته « الله والشاعر » التى ناب فيها عن البشر ورفع ضراعتهم الى الملكوت الأعلى وأعرب عن آلامهم وآمالهم ومرئياتهم وتخيلاتهم كثير من الأمثلة التى التقت فيها عاطفته بعقله .

يارب ما أشقيتنى فى الوجود	الإبقلبى : لـيته لم يكـن
فى المثل الأعلى وحب الخلود	حملته العبء الذى لم يهـن
خلقته قلبـا رقيق الشغـاف	يهيم بالنور ويهـوى الجمال
حلت له النجوى ولذ الطواف	بعالم الحسن ووادى الخيال

بعثته طيراً خفوق الجناح — على جنات ذات ظل وماء
أطلقته فيها قبيل الصباح — وقلت غن الأرض لحن السماء
فهام فى آفاقها الواسعة — النور يهفو حوله والندى
مصفقاً للضحوة الساطعة — ومنشداً ماشاء أن ينشدا

ففى هذه المقطوعة تلمح أثر العقل والعاطفة ، العقل فى التعبير واللفظ والعاطفة فى القلب الرقيق الشغاف وإن كان مثل هذا القلب ضعيفاً لايحتمل الصدمات ، وفى الطير الخفوق الجناح الذى أطلق قبيل الصباح ليغن الأرض لحن السماء .

— ٦ —

والأستاذ وان لم يكثر الحب فى شعره غير أنه فى ذلك القليل عابد حسن خبير بألوان الجمال ، يتهالك وراء البسمة ويغيب فى ثناياها ، ويذوب فى القبلة ويزداد خفقان قلبه مع رفة الشفاه على الشفاه. وحبه أكثر مايبدو فى قصائد الذكريات المبثوثة هنا وهناك فى ديوانه . ولعل أسحر مافى الديوان تلك (القبلة) التى قرأتها وتذوقتها ووددت لو أني ظفرت بها :

قبلة من ثغرك الباسم دنيا وحياة
تلتقى الروحان فيها والمنى والصبوات
لغة وحدت الألسن فيها واللغات
نبعها القلب ومجراها الشفاه النضرات
قبلة من ثغرك الباسم رفت شفتاه
من رحيق لم يحرمه على الناس الإله
كلما أترع منها القلب ضجت رئتاه
مستزيداً وهو ان عل به زاد صداه

٭ ٭ ٭

وما أجمل الذكرى عنده وما أحلاها وكم تثير فى النفس عطفا عليه ، فأسمعه يناجى البحر وله فى أعماقه قلب ضاع بين أمواجه أفلا تشعر بحرارة الذكريات وقوتها ؟

لى وراء الأمواج يابحر قلب — نازح الدار ماله من مآب
نزعته منى الليالى فأمسى — وهوملقى فى وحشة وإغتراب

ذكريات تدني القصي ولكن أين مني منازل الأحباب
أنا وحدي هيمان في لجك الطامي غريق في حيرتي وارتيابي

— ٧ —

وفي الختام لايسعني إلا أن أقول للزميل المهندس الشاعر أمضي في سبيلك، وقو ضعيفك، وتعهد جيدك، وزودنا بالكثير من شعرك، ونوع لنا من موسيقاك، وكن ناطقاً عن المؤثرات التي تحيط بك، مصورا لبيئتك، أو كن كشاعرك الذي يناجي الله :

ان جاء صيف أو تولى ربيع حياه منه عبقري الغناء
وكم خريف في نشيد بديع تظل ترويه لنا الشتاء
قيثارة تصدر في فنها عن عالم السحر ودنيا الخفاء
على الصدى الحائر من لحنها يستيقظ الفجر ويغفو المساء

١٨

الادب والحـــياة (١)

صديقي أمين بابكر فيه من صفات الإخلاص وحب النفع لوطنه مايحسد عليه، وهو حسن القصد طيب النية، وفي كتابه الذي وجهه إلى رئيس تحرير «الفجر» داعيا الكتاب والشعراء الى أخذ المادة لكتاباتهم وقصائدهم من الحياة السودانية ، حتى يخلقوا لنا أدباً سودانياً أصيلا نفاخر به الأمم الأخرى ونمدها بما عندنا من محصول كما تمدنا من خيراتها ومحاصيلها ، مادفعني الى كتابة هذا الفصل وان كنت لا أتفق معه في التفاصيل .

نشأ الأدب مع الإنسان يوم وضع اللغات معجزة الإنسان الباقية، لأن الأفهام نواة الأدب الحية التي يتوقف عليها نجاحه أو سقوطه . أما البراعة والإفتنان في التعبير وتخير اللفظ فهذه مكملات لايقصد اليها إلا إذا استوفيت الضروريات ، وقديما كان الأدب من شعر ونثر أداة الإفصاح عن مكنونات النفوس وأنات الصدور والعواطف الغريزية في الإنسان، ولم يقصد به أن يكون ذخرا للإنسانية من بعد تجد فيه غذاء ومتعة ، وظل كذلك الى أن أصبح يعني أبرع ماخلفه الشعراء والكتاب وصار تحكمه القوانين وتسلس قياده الأغلال من قواف وأوزان وبلاغة وبيان ويتعرض للمعايير التي أقساها وأصدقها معيار الزمن . وهكذا تبدأ الأشياء بسيطة ثم تصير معقدة متداخلة .

وأما الأدب فله من الأغراض والمقاصد ومن الإتجاهات مالا يقع تحت حصر . فالأدب يشارك العلم في إكتشاف أسرار النفس البشرية، بل تفوق على العلم لأن الأدب يستطيع بما فيه من قوة الإيحاء أن ينفذ الى أسرار لايجد لها العلم برهانا في ميدان «التجربة» التي تميزه عن الأدب . والأدب يتكهن عن المستقبل ويضع صوراً للحياة نستنكرها ولكن لايبعد أن يحققها الزمن كما حققت الأيام بساط سليمان وغيره من أحلام الماضي وتخيلاته.

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الرابع – في ١٦ يوليو ١٩٣٤ .

والأدب يصور الحياة وينقدها ويفصح عن العواطف النبيلة ويشارك علم النفس فى إكتشافاته... أفهل مثل هذا الأدب تكفيه الحياة لمادته ؟

علاقة الأدب بالحياة كعلاقة الحياة بالحياة . هو جزء منها استحدث ثم اضيف اليها وامتزج بها . وأصدق الأدب وأبقاه مالامس الحياة واشتق منها لأن الحياة متجددة الصور متقلبة المظاهر فهى فى كل يوم تأتي بجديد وتدفع الذهن الى شيء طريف . وهى فى كل حين تحول فصلا من فصولها وتغرى الأديب أن يجاوبها ، وإذا تعثرت الحياة وغدت جامدة ونشط الأديب : جعل يغرى الحياة لتجاريه ويحضرها للسباق فتسبقه لأن قوة الحياة بكليتها أقوى من الفرد ، وكثيراً مايتشابه عمل الحياة وعمل الأديب ويصعب التفريق بينهما فيذهب الغلاة إلى أنهما عالم واحد ورأبي هواة التجديد إلا أن يضعوا حدا فاصلا ولكن مايعتبره أحدهم نقطة إنتهاء للأول ونقطة ابتداء للثاني يعتبره آخر جزءا من أحدها. فالحياة والأدب كل وجزء اشتق الجزء من الكل وأكتسب الشكل والأوضاع ثم رد الى الكل وإندمج فيه وهكذا يستمر الأخذ والعطاء .

وللأدب علاقته بالجماعة من شعب وحكومة . وهو يتأثر بها تأثراً ظاهراً لأنه الصلة بين الشعب وأدبائه ، وهو يخاطب روحه الحساسة ويدفعه للخير أو إلى الشر وكثيراً ما يقف من الحكومات موقف المناصرة أو العداء ، وعلاقة الأدب بالجماعة أهم العلاقات لأن الأدب وظيفته تبليغ الرسالات الفكرية الى الوسط ، ثم الى العالم الحاضر والمقبل. ولايستطيع اداء الرسالة إلا إذا وجد من الناس عطفا ومسايرة وتقديراً صحيحاً ، ومعنى ذلك أن يكبوا على قراءته ويمعنوا فى دراسته ويميزوا صادقه من زائفه ليساعدهم على القيام بأعبائهم والنهوض من عثراتهم ولفك وثقهم أو لزيادة ماعندهم من نعم وخيرات ودوام ماعندهم من حرية . وكثيراً مايدفع الأدب بالناس إلى الثورة والهياج وكثيراً مايردهم إلى رشدهم بعد أن يبلغوا درجة الجنون ، وذلك حسب ظروف الحياة ومستلزماتها. فالأدب كان من أهم مسببات الثورة الفرنسية ، لأن كتابات «روسو» و«فولتير» وغيرهما نبهت الأذهان وهيأت النفوس لتحس الظلم فتصده ، ولتتعلم الحرية فتطلبها فواجب الجمهور تجاه الأدب والمساعدة على تقدمه عظيم جداً ، لأن الجمهور يغرى الكاتب بما عنده من نشاط لإلتهام آرائه وهضمها ليكثر الإنتاج ويحسن النوع ، وهو الذى يغريه بما عنده من خمول ليضع القلم جانباً ويندب الحظ ويئد ماعنده من أفكار . والجمهور إذا كان واسع الصدر كثير التسامح قليل التعصب يعطى الكاتب مجالاً ليظهر مكنوناته ،

ولكن إذا كان الجمهور أحمق متعصبا فالكاتب يـ دائرة محصورة لايطيق بها حراكا إلا إذا ربت على الظهور وفرق البسمات يشـ بها القلوب . وواجب الحكومة نحو الأديب أن تسهل له حرية الرأى والتنقل من مكان لآخر لدراسة الأوساط المختلفة في وطنه ، وأن تمهد له الإختلاط بالطبقات لا أن تضع فى سبيله الحجارة الناتئة وتضع في يديه ورجليه الأغلال والسلاسل ثم تقول له أين نتاج أدبك وفيض عبقريتك. ومهمة الأدب أن يؤثر على جمهوره من شعب وحكومة حتى يكسب العطف ويجد لنفسه مايحتاجه من صراحة فى القول وحرية فى الرأى .

ليس الأدب نتاج الحياة التى يحياها الفرد وكفى ، ولكنه حصاد تجارب الإنسانية ماضيها والحاضر ، وهو بدوره مادة التجارب الإنسانية المقبلة، لأن الأدب من شعر ونثر من رواية وقصة ودرامة ، لايبلغ حد الجودة إلا إذا كان وليد التجارب والملاحظة ، ولا أقول الإطلاع ، لأن الإطلاع المثمر نوع من التجارب الجاهزة. فشعر الشاعر مجموع وقائعه من غرامية وأخلاقية وسياسية ، ومجموع وقائع من حوله من معاصرين أو من تقدمه من ناس نقلت إليه عن سبيل السلف فزاديها واستنتج منها ، وبذلك يخرج غير ما أخرجوه من آراء وكما يقرأ المرء شعراً لسواه فيحسبه له لأنه يفصح عن نفسه وكثيراً ما يأسف لأنه سبق الى ذلك الشعر. ولايفوتن القارئ ان الحياة واحدة وإن تغيرت مجرياتها وإنها قمينة أن تحدث في نفوس عشرات من الناس أثراً واحداً فى لفظ متقارب وقمين ذلك الأثر أن يخلف طابعه على عشرات أخر من الناس عند قراءته .

وما يقال عن الشعر يقال عن بقية قوالب الأدب من قصة ومقالة ورواية ودرامة بقليل من التحوير لايمس جوهر الرأى ، فالأدب وليد التجارب وبعض التجارب وليدة الأدب ، لأن المرء بقراءته لأدباء متفرغين يستخلص من تجاربهم تجارب أخرى وتنفتح له عوالم غير العوالم التى تفتحت لهم .

فالأدب وليد الأدب وذلك لأن مخلفات كبار الأدباء تبقى من بعدهم ذخراً للإنسانية تجد فيه صفوة تجاربهم. فخذ «شكسبير» مثلا تجده كون عالماً إلى جانب الحياة ، فيه شخوص تحيا وتتكلم وتسير وتتشاجر وتتفق ، تمرح وتصخب وتغضب وتثور ، يرى فيها الناظر إليها متعة كالتى يجدها فى الحياة ، ويأخذ من التجارب مايتعذر وجوده فـى الحيـاة وهذه العوالم التى يبسطها «شكسبير» فى رواياته تدفع القارىء الأديب لأن يجاريها ويخلق شخوصاً إلى جانبها ، فيبذها حينا ويتخلف عنها أحيانا وهو بهذا يأخذ من الأدب ويضيف

اليه . ولست تغالى إذا قلت إن قراءة شعر المتنبى كثيراً ماتدفع إلى قرض الشعر ولكن ليس فى الأغراض التى نظم فيها المتنبى . وكثيراً ماتكون مضادة لها ولكن النشوة النفسية التى تجدها فى قراءة شعر المتنبى تبعث فى النفوس طموحاً لتقرض من الشعر مايبعث فى النفوس مثل تلك النشوة ومن هنا يتضح ان الأدب وليد الأدب مثلما هو وليد الحياة. وليس فى ذلك غرابة ، لأن قانون الحياة يحدث الشيء من غيره ثم يجعل قدرته على البقاء فى تناسله من بعضه البعض فكما أن الإنسان إبن الإنسان فكذلك الأدب إبن الأدب .

والآن بعد أن رأينا علاقة الأدب بالحياة وعلاقته بنفسه لنر هل حياتنا فيها من البواعث والمرئيات مايجد فيه الأديب مادة لأدبه . نحن فى عصر إنتقال لاتستقر الأمور فيه ولاتبين فيه الأشكال ، لأنها كالسراب لاتمتلىء العين منه. وحياتنا حياة كفاف فى الغذاء وفى الإجتماع وفى التعليم ، وأحلامنا أحلام الأطفال لاتتعدى ذاتية الفرد ، والشعب لايقبل النصح والفرد لايقبل الآراء المخالفة لآرائه ، والكاتب الذى يحاول معالجة تلك الحياة لايجد من قرائه صدراً رحباً ، وسرعان مايضيقون به لأنه مضطر ليلبس ثوب الأستاذية والوعظ وهو ثوب بغيض . والحياة جامدة ليس فيها من البواعث والحوادث مايضعه المرء فى قصصه أو يخلق منه شخوص رواياته إلا إذا تنزل إلى مالا يرضى تسطيره أديب حر غيور على سمعة وطنه . وإلا إذا شاء التعمق فى الأوساط الموبوءة التى يأنف الأديب الحر الضمير أن ينقل أحاديثها إلى من هم فى غفلة عنها .

وان من يطلب إلى الكتاب والشعراء والقصاصين درس الحياة وأخذ مادة أدبهم منها عليه أن يطلب الى الجمهور أن يتسامح وأن يترفع عن الحزازات ويتنزه عن الأغراض والأنانية المشينة ، وأن يطلب الى الأوساط أن تكون نشطة مغرية بالنشاط توحى اليه مايلهب نفسه ويوقظ عبقريته فيأتي بأدب أصيل من نتاج الحياة .

وإذا كانت الحياة جدبة فمعذور من يتلمس مادة لأدبه فى بـــطون الكتب وشخصيات التاريخ السالفة ، لأنه لابد واجد أثراً طيبا لحياوات لم يحلم بها ، فيحفزه ذلك الأثر وينبه شيطان شعره ويحركه للكتابة المثمرة التى فيها من عناصر الخلود ماقد يضمن له الخلود وهو لاشك واجد فى شخصيات التاريخ مايدرسها ويستخلص منها مثلا عليا وقدوة حسنة لقوم فقدت بينهم القدوة دون أن يثور عليه ثائر ولا أن يعاديه شخص . وما دام الأدب وليد الحياة وهو كذلك وليد الأدب وانفقدت الحياة فليكن أدبنا فى الوقت الحاضر نقداً وإستخلاصاً وتوجيهاً لقوم غافلين حتى يفتحوا عيونهم على الدنيا فيرحبوا بأدب الحـــياة .

١٩

الشعـــر (١)

الهـام وصناعـة

الشعر احساس بالحياة ، وعواطف سامية . وعبادة للحسن ، وتقدير لما فى الوجود وهنالك روح علوى ينبه فى النفس ذلك الإحساس ويثير تلك العاطفة ، ويبارك فى العبادة ويزيد فى التقدير . وهذا الروح العلوى مانسميه بالوحى أو الإلهام وهو من حظ جميع النفوس البشرية مع تفاوت فى الكيف والكم ،وعلى قدر جودة الكيف و كثرة الكم يكون حظ المرء من الشاعرية. هذا أصل الشعر ومعدنه، ولكن هذا الروح العلوى يحتاج الى لغة تجلوه وتنقله الى القراء ويحتاج الى الوضوح والإفهام وإلى بساطة تجعله مقبولاً وإلى قوة فى الأداء وتفنن فى العرض حتى تتقبله النفس وهذا مانسميه بالصناعة . والشاعر الواضح المنهج . الثابت القدم الذى تتيسر له سبيل الخلود أكثر من سواه من كان وافر الحظ من الإلهام والصناعة .

مادة الشعر الحياة البشرية بما فيها من خير وشر وحزن وسرور ، والطبيعة بما فيها من جميل محبوب وقبيح ممجوج ومافيها من صفاء و كدر وهدوء وثورة ، لأن تلك إذا لامست الشاعر أثارت فى نفسه عواطفه المكنونة ، وتركت فيه أثرها الفعال وسرعان مايغريه قانون النفع العام لينقل ذلك الأثر الى الناس بكل مافيه من جلال وروعة ووضوح وغموض وموسيقى وجمال . وإن من يستطيع نقل ذلك الأثر فى وضع جميل ، ولفظ رائع ، وموسيقى ساحرة وبكل أمانة هو الشاعر الفذ الذى كملت عنده الروح والعدة. الروح التى تلهم، والعدة التى يتيسر بها الأداء، ولو إن العبقرية اهملت ولم تجد من يولد من حرارتها قـوة دافعة ومن لهبها نوراً هادياً ، ولم تجـد من اللفظ والتعبير مايفضى بسرها الى من حولها لما إمتاز صاحبها عن البله والمعتوهين والحمقى ومن لاحس لهم ولاعقل يميزهم عن سائر الحيوانات .

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الخامس – فى ١ أغسطس ١٩٣٤ .

والشعر لايكون إلا بإجتماع الإلهام والصناعة، لأن الإلهام وحده لايكفى أن يجعل صاحبه شاعرا ، فالشاعر يحتاج الى دقة فى التعبير وإختيار فى اللفظ وإلى إفتنان فى الوضع. وهذه محض صناعة يتقنها الشاعر بالإطلاع على قواعد اللغة وفقهها وأصول الشعر وأحكامه وقيوده وبالإطلاع على التراث الفكرى الذى خلفه الأقدمون وبتفهمه والنفاذ الى أسرار غامضه وإستساغته وبالممارسة ، لأن المادة لها فعلها فى كل أعمال الإنسان الجسمية والفكرية. كما أن الصناعة وحدها لاتجعل المرء شاعراً فهو وإن عظم مقدار علمه بإصول الصناعة وأحكامها لايجد مايفرغه فى هذه القوالب ولايجد مايلبسه هذه الثياب الفضفاضة المزركشة ويحلى جيده بهذه العقود المنمقة، ومثل هذا إن قال شعراً بدا كعروس البوص البست ثياب الحرير وحلى الذهب.

وليس الشعر وصفا لما نرى فحسب ولاتصويراً لما نحس وكفى ، لكنه فن رفيع يحاكى الطبيعة ولايأنف من أن يشذ عنها ، ويحكى أعمال الإنسان وطبائعه ولا غرابة فى أن يتسامى بها ويشذ بها ، والشعر لايقف عند حد ولكنه كثير الإتجاهات دائم الإشعاع فهو إن حدثنا عن جمال الزهر وطيب عطره قرن لنا نضارته بخدود الملاح وطيب عطره بندى الأكف وطيب النوال. وإن حدثنا عن الموت ذكرنا بالحياة قبل الموت وبعد الموت وأغرانا بالعمل طلباً للخلود ، والشعر فى كل اللغات أقرب السبل إلى الإفصاح عن خلجات النفوس ونزوات العواطف لأنه كالتصوير ينقل اليك فى بيتين ماينقله الكاتب فى عشرات السطور. والقارئ الفطن يقرأ البيتين ويقرأ مابينهما من معان ومايلوح بين ألفاظهما من أسرار، ويجد فى كل ذلك تعبيراً لأفكار الشاعر ولأفكاره. والشعر تبدو ميزته فى السهولة والعظم : سهولة اللفظ وعظم المعنى.

ليس كل مايخطر بالذهن أو يثور فى النفس يستحق أن ينظم شعراً ، لأن هنالك خواطر تقوم فى الذهن فى ساعات خموده وعواطف تثور فى النفس وهى فى ثوب حيواني وإسفاف فى قيود المادة، فهل مثل تلك الخواطر والعواطف خليقة بأن يتضمنها شعر شاعر يعرف مقدار مايقوله ومالايقوله ؟ لهذا كان من واجب الشاعر أن يترك أفكاره لتتخمر وتنضج ، وأن يترك عواطفه حتى تخمد ثورتها ، فإذا بقيت الأفكار بعد التخمير محتفظة بصحتها وقوتها ، وإذا ظلت العواطف مشبوبة النار متجددة اللهب . عرف أن تلك الأفكار وتلك العواطف خليقة بالعرض فيضعها فى شعره بعد أن يرتبها ويحكم أداءها ويلبسها الثوب الذى يليق بها وتزهو به ، وإلا أعتبرت صرخات المجانين وشدوهم

شعراً. وخير الشعر على هذا النحو، ما كان عاطفة جامحة يحكمها العقل وتجلوها الألفاظ والتعابير المنتقاة ، وما كان تأملات فى الكون وسبحات فى الخيال يعلوها مزاج فلسفى ينم عن نفسية الشاعر ومقدار فهمه لما حوله ومايسمو له من المثل العليا .

ويظهر فن الشاعر في إختيار الفاظه وصوغ عباراته ووحدة أبيات قصيدته وتسلسل معانيه وتجاوب فكره ، وفى إجادته الوصف وإتيانه بكل جديد مبتكر من الآراء فى أبهج حلة من الألفاظ والمعاني وفى وضع جديد يناسب الفكرة ، ولأن يدرك الشاعر هذه المكانة لابد له أن يمعن النظر فى كل مايقع تحت نظره ويستوعبه ويتأثر به،حتى إذا لامس نفسه وإستولى على مشاعره أرسله شعراً فيه من العاطفة والعقل الشيء الكثير ويكسوه طابع شخصه . وان تناسب الألفاظ لبعضها البعض وعذوبتها وجمال رنينها فى الأذن ومخارجها كل ذلك له أثره فى جودة الشعر . وليس الصناعة معناها درس البحور والقوافى فحسب ولكنها معرفة صادقة لما يقال ومايناسب الشعر من المواضيع أو ما لايناسبه، وإلمام صادق باللغة وفقهها ، وأذن تميز اللفظ المناسب وتتخيره ، وذوق مصقول هذبه الإطلاع والممارسة يعين الشاعر على إختيار الموسيقى التى تليق بموضوعه والوضع الذى يتطلبه لأن الموسيقى والأوزان لايحسن وقعها إلا إذا كانت مناسبة للموضوع من حيث الحزن والسرور ، والبساطة والعظم ، كما أن ما يصلح للشعر الغنائي من الفاظ لايصلح فى شعر البطولة أو شعر المراثي والملاحم والقصص . والشاعر الفنان من يراعى هذه الخصائص والقيود ، لامن يعبأ بالطباق والجناس ويفسد من أجلهما المعنى .

على أنك لاتجد بين الشعراء واحداً كتب له الخلود ولم يكن صناعا ملهما وناقداً لشعره ، فهذا المتنبى أقل شعراء العرب المعروفين نتاجاً ، ولا أغالى إذا قلت أعظمهم مكانة ، كان مقلاً فى شعره لايصدر فيه إلا عن عقيدة وصدق تجربة ، لايسترسل إلاحيث يستحب الإسترسال متخير اللفظ جيده نخم الأسلوب كامل الوحدة تتعاقب صوره كأنك تشاهدها على الشاشة البيضاء ، فهل تظن ان السليقة والإلهام كانت تكفى لخلق شاعر عظيم المكانة مثـــل أبي الطيب ؟ نشأ المتنبى فى بادية من أرض الشام كان أبوه قد ساقه اليها فتنقل بين أعرابها حتى حذق اللسان العربي وأتقنه ، ثم قرأ لمن تقدمه من الشعراء وكان كثير الإطلاع على شعر أبي تمام والبحترى حتى زعموا أنه عند موته لم يوجد فى حقيبته غير ديوانيهما . فأعانه هذا الإطلاع وذلك التمكن من اللغة على إظهار شاعريته وتوضيح معانيه المعجزة التى كان يسوقها فى بساطة يخيل اليك أنه يومىء اليها فتتبعه وتعدو

لتلحق به فلا تلحقه منها إلا الصالحة للبقاء والتى فازت فى المعركة؛ فيلتفت اليها ويتناولها ويصقلها، ثم يضعها فى أحسن نظام لاإنفكاك لها بعده ولاوضع لها أحسن من ذلك الوضع.

وهو إن تغزل أو مدح أو هجا فعن معرفة وروية، يختار لكل مقال مقامه ولكل معنى لفظه المناسب وموسيقاه اللائقة، فهل ذلك محض إلهام وسليقة :

حاولن تفديتى وخفن مراقباً   فوضعن أيديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه   من حر أنفاسى فكنت الذائبا

ألا تجد فى هذه الصورة دقة فى التعبير لاتتيسر لغير المتنبى ؟ فهو يحدثنا عن حسان أردن تفديته تفانيا فى حبه، ولكن خوف الرقباء عقد الألسن عن أن تفصح، ورفع الأيدى الى الصدور بلا شعورية الحب والعاطفة القوية فقامت الإشارة مكان العبارة وفى البيت الثاني دقة تشبيه تظهر فيها قيمة الصناعة والذوق . فهو يشبه الثغور الباسمة بالبرد فى بياضها ونصوعها وذلك لأن البرد لايحتمل الحرارة بل يذوب أمامها وهو يتلاعب باللفظ ليكمل الصورة ويقول إنه خاف أن يذيبها بانفاسه الحرى ويتحايل ويعكس الآية فيصبح شاعرنا ذائبا من حر الفراق . أليس فى هذا إلهام وصناعة تجلو ذلك الإلهام .

وكالمتنبى جميع فحول شعراء العربية، لم يضمن لهم الخلود إلا إلهام صادق وصناعة تجلو ذلك الإلهام ، ولهذا أتقدم الى شعرائنا الذين وهبوا إحساساً دقيقاً وعواطف سامية وعبادة للحسن وتقديراً لما فى الوجود يوقظها روح علوى ، أن يكملوا نعمة الله عليهم بإطلاع واسع يناسب تلك الهبة وتوفر على صناعة الشعر وسبر أغواره ، وممارسة لقرضه حتى تتوفر لديهم الروح الملهمة والعدة التى يتيسر معها العرض وحسن الأداء ، أما من يعوزهم القبس الساطع الذى هو النواة الحية فليريحوا أنفسهم وليريحوا الناس .

٢٠

الرثـــاء(١)

عند أبي العـــلاء المعـــرى

عاش المعرى كفيف البصر حيث حجب عنه ضوء الحياة وهو لم يبلغ الرابعة من العمر ، وكأن القدر الذى سطر له العمى فى لوحه شاء أن تكون ولادته عند مغيب الشمس فلا يحس نور الحياة وهو يهبطها للمرة الأولى وقــد رزىء بموت أبيه وأمه بعد فقدان بصره ، وعاش معدما فى شظف من العيش يزيده بؤساً وتواضعاً زهده فى الكثير من خيرات الدنيا وتشاؤمه بالحياة وتبرمه بما فيها ومن فيها . وزاد فى ألمه ان وهب حساً دقيقاً وعلماً وفيراً وذاكرة حافظة ونفساً صافية وعقلاً يدخل فى كل معترك ويخرج برأى صائب ومعنى طريف ، فكان يشعر بالدنيا حوله قبل أن يشعر بها المبصرون وتلامس وقائعها نفسه فتصهرها وتحرك مشاعره وتدق على أوتار قيثارته فترسل النغم الشجى الذى إخترق القرون والأجيال الى أن بلغ آذاننا فطربت لسروره وتألمت لحزنه .

عالج المعرى جميع فنون الشعر سهلها وعصيها وتفوق فى بعضها وأخفق فى البعض الآخر ، وإن تمكنه من اللغه وتوفره على دراسة الآداب والعلوم حتى كان كعبة القصاد وقبلة الطلاب ، وبراعته فى أفانين الحديث وضروب البلاغة ، جعلت لشعره روعة تلهى القارىء عن تعرف نواحيه والنفاذ إلى جيده ونبذ رديئه ، ولكن حسبك أن تسمع أبا العلاء وهو يتألم من عسف الدهر ويرسل الزفرات فى شعره ، تكاد تشهدها بعينيك وتسمعها بأذنيك وتلمس حرارتها بأناملك ، فأنت ترى إبتكاراً فى المعاني ودقة فى التعبير وإختياراً للفظ ومن غير أبي العلاء أحق بالشكوى والألم ؟ ألم يفقد الدنيا المرئية فهو لايعرفها إلا سماعا ولايكاد يحسن تجسيدها بل ولايحسن رسم خطوطها؟ والمعرى يشعر بفجيعة نفسه كلما فقد عزيزآله ، لأن فى ذلك الفقدان تجديداً لحزنه الذى لاينفك مؤلماً محزناً ، وتجسيما لجده العاثر

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد السادس – فى ١٦ اغسطس ١٩٣٤ .

وعيشه المنكود ومضاعفة للحرمان الذى منى به قبل أن يعرف خير الدنيا من شرها، ولهذا كان أبو العلاء فى الرثاء فريداً وهو لايقاس بشاعر من بين شعراء العربية فى جملة ماقاله من رثاء .

كثر الرثاء فى الشعر العربي كالمدح ، وعلى كثرته لايجد الباحث بين أكوامه المتراكمة مايميز شعر الرثاء ويكسبه الخلود، وذلك لإغراقه فى المبالغة، ولإسراف الشعراء فى التحسر واللوعة على من يرثونهم حتى فقد الأثر والحزن وكادت الألفاظ تدل على غير المعاني التى وضعت لها ، فمن لطم للخدود وشق للجيوب ، وذوب لحبات القلوب وذرف للدموع ، وسكب لدماء المهج ، الى فؤاد مكلوم ، وكبد حرى ، وجفن مقروح ومن بنيان قوم يتهدم وركن فضيلة يتزعزع ، الى آمال قوم تودع الثرى وأمة تسير فى او ينظموا شعرا ماسنحت لهم الفرصة، فهم يبكون كل ميت ويرثون كل راحل عن هذه الدنيا ويدبجون فيه من آيات الثناء ويصوغون من حرارة الحزن والألم مالم يقل عن أعظم العظماء ، فهم يزلزلون الأرض ويخرقون السماء ويقيمون الدنيا ويقعدونها لأن فلاناً مات وفلان هذا لم يشعر بفقده غير أقاربه وجيرانه وأصدقائه المقربين .

أما أبو العلاء فمن حقه أن يجيد الرثاء وذلك لما مر به من الحزن المتصل والآلام التى تترى ، والمصائب التى جعلت فلسفته مفعمة بالتشاؤم وإنه لعجيب أن يكون رثاؤه لأبيه وأمه خاليا من تصوير العواطف وبث الآلام التى يشعر بها الإبن عند فقد من يحنو عليه ويتكفله ويسهر على راحته . فلم تكن مرثيته لأبيه من جيد مراثيه لأنه لم يحدثنا عما كان يجده فى حياة أبيه من عطف وما كان يسمو له من خير على يديه ولم يصور لنا مافقده بفقده بل ذهب يحدثنا عن أم دفر ويعدد من خياناتها وغدرها وكيف أن النفوس لاترضى الموت وتتقيه ، وأن هذا مادعا نوحا وابنه الى صنع الفلك ، وان روحى آدم وموسى لم تستعذبا الموت على الرغم مما فازا به من وعد بدخول جنة عدن . ثم ساق الحديث الى والده مشيراً الى القبر بأنه نعم الدار سائلا له أن يتوسد يمينه. وجعل يسائل جهينة عن خبر الموت وصحته فلم يظفر منها بما يطمئن اليه ، وأخذ يطوف بدار كان يسكنها والده

كما يطوف بالبيت والحجر والركن ، وكذلك رثاءه لامه لم يكن إلا ضرباً من ضروب الوصف والإسترسال عند العرب .

ليس هذا كل مانظمه المعرى من رثاء لأن له بعض القصائد سلك فيها طريقا لم تبن لسواه . حيث كان فى رثائه فيلسوفاً يحدثنا عن الموت والحياة ومابينهما وما بعدهما بل وماقبلهما ، ويحدثنا عن فلسفة الحزن والسرور وعن غرور ذوى الحسن وصلف أرباب الجاه والمال ويصور لنا الحياة حتى نكاد نعبدها . ويسخرمنها حتى يزهدنا فيها ، ويروعنا خبر الموت حتى نرتاع لسماعه ، ويحسنه لنا حتى نشتاقه ونسارع الى لقائه . وهنا تبدو شاعرية المعرى يغذيها الألم الممض ويصهرها الحزن الفاجع ويمدها الإلهام الفذ وتجلوها الصناعة الحقة ، فأى رثاء أبلغ من رثائه لعلى بن جعفر بن المهذب ، الذى لم يفتح الجفن على نده . ألم يفرض الأسى على نفسه فرضا لو ان الردى قال بفدائه ولم يفده ، ألم يعتب على الدهر الذى ينجز وعيده ولايفى بوعده والذى يبلى جديده ويردى أقرانه ويجمع سيله بين ذوى الفضل وأضدادهم فى مده . ألم يرنا أن الغى أنفع من الرشد إن كان رشد الفتى غير نافعه ؟ وحسب المعرى تساميا فى الرثاء أن يرينا ان حالة الباكى على آبائه كحالة الباكى على أبنائه، وان مجده فى أفعاله لامجد الذين جاءوا من قبله ولا الذين يأتون من بعده فيدفعنا لنعمل لحياتنا ولنبنى مجدنا قبل أن يعاجلنا الموت لأنه نقاد ينفق مايختار من نقده :

ان زماني برز اياه لى — صيرني أمرح فى قده
كأننا فى كفه ماله — ينفق ما يختار من نقده
لو عرف الانسان مقداره — لم يفخر المولى على عبده
أمس الذى مر على قربه — يعجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذى أجل فى سنه — كالذى عوجل فى مهده

وما معنى الرثاء إن لم يبعث ما كمن فى نفس الشاعر من آراء فى الموت والحياة وفلسفة الحزن والألم ، وينطقه بمثل هذه اللوعة :

أحس بالوجد من وجده — صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبي فى الرزء غير الأسى — كان بكاه منتهى جهده
فليذرف الجفن على جعفر — إذا كان لم يفتح على نده

ولكن تعال أيها القارىء الى معجزة أبي العلاء فى الرثاء ، تلك التى لا أرى لها

مثيلا فى كل ما قرأت من المراثي لشعراء العربية ألا وهى قصيدته الدالية التى رثي بها فقيها حنفيا وبسط فيها فلسفته فى الحياة والموت والسرور والألم وإستطاع فى موقف التأثر والحزن أن ينفذ بقوة عاطفته وإيحائه الى جوهر الحقائق وأماط اللثام عن المسائل المعقدة والمتضاربة ، وصحيح أن الإنسان فى ساعات الحزن قادر على الإجادة التى لا كلفة فيها فانظر كيف إستهل قصيدته :

غير مجد فى ملتى وإعتقادى ... نوح باك ولاترنم شـــاد
وشبيه صوت النعى إذا قيس ... بصوت البشير فى كل نـــاد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت ... على فـــرع غصنها الميـــاد

فهو يبادرك برأيه فى الحزن والسرور على أنهما شيء واحد ، فإن رفع الصوت والندب وترجيع النواح لايفيد الميت شيئا ولايغنى النادب الباكى ولاينسيه فقـــد عزيزه ، كما أن الشادن الشادى لايديم السرور ولايذهب الحزن وان صوت البشير بالمولود كصوت الناعى الميت لأن ذلك الوليد مصيره للفناء، وسوف ينعى كما زفت بشراه ، وهو يتساءل كمن شك هل تلك الحمامة تغنى أم تبكى ، ويرى مايعده الناس منها غناء قد يكون نواحاً على أيامها التى سلفت ودنياها التى سوف تبيد ، وفى هذا تذكير للناس وإفهام لهم على أن مايحسونه من السرور لصوت البشير ، والحزن عند سماع النعى وليد الأثر النفسى الذى يخالجهم وسرعة تأثرهم ، وكان يجدر بهم أن يعلموا ان السرور فاتحة للحزن وان أعراس الدنيا إستعداد لمآتمها .

وبعد أن بسط نظريته فى الموت وإنحلال الأجسام الى أصلها ورجوعها الى الذرة التى تطورت منها يقول لنا :

خـــفف الوطء ما أظـــن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنـــا وإن قـــدم العهد ... هـــوان الآبـــاء والأجـــداد
سر إن إسطعت فى الهواء رو ... يداً لا إختيالا على رفاة العباد
رب لحـــد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

أى والله « ما أديم الأرض إلا من هذه الأجساد » وإلا فأين نسل آدم قبل الطوفان وبعد الطوفان وأين تلك الأمم التى بادت وبادت تلوها أمم . وإنه لقبيح بنا أن نمشى على رفات آبائنا وأجدادنا وإن قدم بهم العهد ، ولو إستطعنا أن نسبح فى الفضاء تفاديا لذلك

لكان أجدر بنا وأرحم بهم. وأى سخرية الزع بنا بنى البشر من ذلك اللحد الذى صار لحداً مراراً وهو ضاحك من تزاحم الأضداد . أى سخرية بنا أبعد من هذه لو كنا نحس سخر الحياة بنا ؟ رحم الله المعرى فقد كان قبساً من العبقرية التى لا يحدها زمان ولامكان ، العبقرية الواسعة الأفق العالية الذرى سخر من الحياة وأبنائها لأنه علم حق العلم :

ان حزنا فى ساعة الموت أضعاف ... سرور فى ساعة الميلاد

وهو يسأل الحمام أن يعاونه على النواح ، ويقاسمه الأسى ، لأن الحمام عرف بحفظ الود وطول البقاء على الحزن ، ولكن المعرى الذى لم يسعد ببارقة من السرور لايرضى الحمام شريكاً له في الحزن مادام الحمام يزين الطوق جيده ، وهو يطلب اليه أن يستعير من الدجى ثوب حداد داكن ، ويظل يندب فى كل مأتم مع الغواني الحرد حتى يقمن بحق البكاء والحزن على أبي حمزة .

فهذه طريقة أبي العلاء فى الرثاء يعرض عليك صوراً من الفلسفة ، فلسفة الموت والحياة والحزن والسرور ، فإذا ما أثار فى نفسك عواطفها وإستوثق من فهمك للحياة والموت بكى عزيزه فأبكاك معه فى غير مبالغة ولا إرهاق ودون أن يزلزل الأرض أو يميد السماء ، وحسب الشاعر أن يكون صادق الحـــزن مشبوب العاطفة فيجيء رثاؤه قطعة من نفسه فتجد فيه نفوسنا مايدفعها لمشاركته الحزن . وان يكن أبو العلاء فقد لذة السرور بمرئيات الحياة ومافيها من جمال فحسبه أنه ظفر بلذة الألم التى أشعلت نفسه وغذت عاطفته فجاء شعره مفعماً بالألم جديراً بالخلود لأن الألم قوام هذه الحياة البشرية .

٢١

أبو القاسم الشاعر (١)

من السهل أن يكون الرجل عظيما فى ناحية من نواحى الحياة ولكن العجيب المعجز أن ينال المرء قسطاً وافراً من العظمة فى نواح عديدة . وهؤلاء العظماء أصحاب الجوانب المتعددة لايجود بهم الزمان إلا مرة فى كل دورة ، ولذلك تجدهم قبلة الأنظار وملتقى العواطف ، يمجدهم الناس ويتوفرون على دراستهم وتفهم نواحيهم المعقدة المتداخلة ويجعلونهم القدوة التى تحتذى والمثال الذى ينسج على منواله. والسودان المسكين الناهض من نومه والذى لايزال يدعك عيونه محاولا فتحها ليرى ضوء الحياة الذى حجب عنه القرون الطوال قد وهب واحداً من اولئك الأفذاذ ولكن القدر شاء أن يسدد اليه سهمه فينتزع بموته قلب أمة نابضاً وربان سفينة حاذقاً وعقلاً مفكراً وسجل تاريخ مجيد . مات بالأمس أبو القاسم فبكى الناس عالماً جليلاً ومصلحاً كرس حياته لخدمة الإسلام والمسلمين. ولكن من يبكى أبا القاسم السياسى ، أبا القاسم المؤرخ ، أبا القاسم الخطيب ، وأبا القاسم الشاعر :

أنا أبكيك شـاعراً وخطيباً — وإمـاماً ومرشداً وحكيمـاً
قمت للدين فى البلاد نصيراً — فغدا الدين فى القلوب عظيماً

ليس هنالك من لايعرف أبا القاسم الفقيه المتوفر على معرفة علوم الدين الإسلامى والذى عاش ومات وهو يتعرف شريعة أحمد ويعمل بها ويلقنها لمن شاءوا أن ينهلوا من مورده الصافى . وليس هنالك من لايعرف أبا القاسم المصلح الذى شاد المعهد العلمى بإمدرمان وأدخل اليه أحدث النظم التعليمية وجاء له بأحسن المعلمين الأفاضل ، فكان المعهد بفضله وفضلهم مبعث الضوء يرسل فى كل عام موجات من النور الى أنحاء البلاد

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد السابع – فى ١ سبتمبر ١٩٣٤ .

فتبدد مافيها من ظلام الجهل الحالك ولهذا أريد أن أحدثكم أيها القراء عن أبي القاسم السياسى الذى شغل منصب « كاتب » للمهدى وللخليفة من بعده فكان يتصرف فى أمور الدولة برجاحة عقل وتؤدة أكسبته مكانة فى قلوب جميع من عاصروه سواء فى ذلك من ناصر الدولة أو ناصبها العداء. وان المطلع على صور الرسائل التى كان يبعث بها إلى الأمراء وإلى الدول المجاورة وإلى أعداء الدولة، وعلى رسائل الإرهاب والترغيب التى يبعث بها الى الأفراد والجماعات يرى صورة من أوضح الصور لكاتب سياسى وأديب يعرف قيم الألفاظ ومواضعها ويعرف مدى أثرها فى النفوس . وإن لم يكن له سوى تلك الرسائل لكفى بها دليلاً على ثبات قدمه فى ميدان السياسة. وإن امرأ لازم المهدى والخليفة من بعده وعرف من أسرار الدولة مالم يدركه سواه ثم جاءت الحكومة الحالية(١) وأولته أعلى المناصب دون أن يبوح لها بسر من أسرار دولته السالفة إلى أن دخل به القبر ؛ لهو الرجل الذى تفتقده الأمة. ومامعنى السياسة إن لم يكن من يتصدى لها قديراً على حفظ السر لاتنفرج شفتاه عن لفظة إلا بعد أن يعرف نتائجها . وأريد أن أحدثكم عن أبي القاسم المؤرخ الذى عرف تاريخ الإسلام حتى كانت معرفته له كمعرفة المعاصر الذى ينظر الحوادث عن كثب والذى لايزال يتذوق حلاوة التاريخ الى أن أصبح هو فى ذمة التاريخ . المؤرخ الذى وقف على تاريخ أهم فترة من فترات هذه البلاد قبل المهدية ، وفى خلال المهدية وفى العهد الحالى وكانت معرفته عن صدق وتجربة ، نظر الحوادث بعينه وإشترك فيها وكان جزءاً منها ولكن المقادير عاجلته قبل أن يدون ذلك التاريخ فمضى وليس هنالك من يستطيع تدوين تاريخه هو ناهيك عن تاريخ البلاد . وأريد أن أحدثكم عن أبي القاسم الخطيب الذى كنتم تسمعونه مرة فى كل عام فى نهاية السنة الدراسية للمعهد ، فكان يثير حماسكم ويذكركم بأصول دينكم ويستنهض هممكم لتقوموا بواجبكم الوطنى فكم كانت الدموع تتساقط والآهات تفور فى الصدور وكم كانت الأريحية تفيض ولكن هيهات فليس فى وسعى أن أتحدث عن السياسى والمؤرخ والخطيب وليكن حديثى عن الشاعر الجيد اللفظ والمعنى الحار الموسيقى الصادق التعبير .

كان شاعراً فى قصائده التى نظمها وفى التى لم ينظمها، فى أحاديثه فى المجالس بين الأصدقاء والأخوان والأبناء حيث كان يتدفق كالجدول الصفاق وكان يرسل الفكاهة الرزينة الحلوة التى تثير الضحك وتحمل على التفكير وكان شاعراً فى حياته

«١» حكومة الحكم الثنائي ١٨٩٩-١٩٥٥

البسيطة الجميلة التى لاتعمل فيها ولاتأنق بل كانت على الفطرة التى وجد عليها أهل هذا البلد دون أن يؤثر عليه المنصب ولا الجاه ولاحياة المدنية الحديثة التى وجد نفسه يسير بين أهلها ويعاشرهم ويعاشرونه . كان شاعراً فيما يرويه من شعر العرب فما كان يروى إلا جيده وأكثره ملاءمة للذوق السليم والفن. دخلت عليه مرة فوجدته يترنم بقول الشاعر :

أمر بذى الديـــار ديار سلمى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديـــار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

فسمعت نبرات صوت صادرة عن شاعر يتذوق ماينشده ويشعر بقوته وفهمت للبيتين معنى لم يدر بخلدى قبل ذلك على كثرة ترديدى لهما ، وكذلك الشاعر يفتح للسامعين مجال الفهم ويعطيهم مفتاح المعرفة فينفذون بفضل قوته الروحية الى ما ينفذ اليه .

لقد تمكن الشعر من نفسه حتى صار جزءاً منها ففى أيام مرضه كان بعض أفراد عائلته يفكرون فى سفره الى مصر للمعالجة هنالك وكان الحوار يبلغ عنان السماء ثم يهبط ، فبماذا كان رده عليهم ؟ كان شاعراً فى رده ولم يكن واعظاً أو مذكراً حيث إنفرجت شفتاه وأرسل صوتا هادئاً مليئاً بالثقة والإيمان منشدا :ـ

مشيناها خطى كتبت علينـــا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومـــن كانت منيته بـــأرض ... فليس يموت فى أرض سواها

والشاعر المطبوع الذى فطر على الشعر لاتلهيه عنه جميع أغراض الدنيا ومشاغل الحياة ، فدراسة الفقه والتخصص فى علم التوحيد وعلوم الدين الأخرى ومنصب القضاء ثم رئاسة المعهد العلمى زيادة على رئاسة عائلته الكبيرة المتعددة وإشتغاله بالتفكير فى شئون أمته السياسية والإجتماعية كل تلك لم تصرفه عن الشعر ، لم تصرفه عن قرضه وعن درسه وعن الإستماع اليه ، وكم كان ينتشى لسماع جيـــده حيث يخاطب عواطفه المهذبة ويلهبها ، ويرجعه الى عهد صباه عندما كان شاعراً مغرما بالشعر وكل ما حوله مغر بالشعر .

لم يكن شعره من نوع شعر الفقهاء لغة وصرفا وأوزاناً فحسب ، ولكنه كان نبضات قلب صادق وخطرات نفس صافية . فإذا نظرت إلى غزله سحرتك البساطة وشاقك اللفظ وأسكرتك الموسيقى وخيل اليك أنك تقرأ شعر عباس بن الأحنف أو مقدمات المتنبى فى قصائد مدحه. ومن العسير أن يصدق القارىء أو السامع أن هذا الشعر لعالم قضى وقته

فى دراسة الفقه وعنعنة الحديث وتدريس الفية إبن مالك والمختصر، ولكن الطبع الفنى كامن فى النفوس لاتؤثر عليه ملازمات الأحوال إلا نادراً وعلى الأخص فى عهدنا هذا الذى يتصدى فيه للأدب الأطباء والمهندسون فاسمعوا الشيخ يقدر الحسن وينفذ الى سره :

ان أسمــاء الجمال حسنــها ... سلب الشمس ضياها المستبين
كملت بين الــورى أوصافها ... فتصدت فتنة للعــالمــين
فكــأن الله قــد صورهــا ... من هوى الأنفس لاماء وطين
مــا على عشاقها مــن حرج ... ان حب الحسن فى الطبع كمين
كلما رمت إختلاسا وصلها ... تتأبي حذر الواشى اللعــين
رحــم الله أبــاهــا إنهــا ... سلبت عقلى وخلتنى حزين
ما عليهــا حرج فــى ذاك ... إني لهــا رق ومملوك يمــين
فأفعلى مــا شئت يا أسماء بي ... فلك الحكم انظرى ما تأمرين

وفى هذه الصورة الشعرية التى يسمع هديل الحمام وغناء القمارى فى موسيقاها والتى كملت فيها الوحدة حتى كأنها نظم شاعر من المحدثين الذين تخصصوا فى دراسة وحدة القصيدة، ترى البساطة فى اللفظ والعظم فى المعنى، وتسمع تفننا فى الوصف لايصدر إلا عن نفس شاعرة خبرت الجمال وإفتنت فى ضروب الهيام . فلقــد كملت أسماء بين الورى حتى غدت فتنة للعالمين . والشاعر ينظر اليها كأنها صورت من « هــوى الأنفس لا ماء وطين » وحسب الشاعر إبتكاراً أن يخلق حبيبه من هوى الأنفس يجمع الناس على حسنه ويتفقون فى حبه . والشيخ الصعب المراس النافذ العزم القوى الإرادة يخضع أمام سلطان الحسن مكتوف اليدين قائلا لحبيبته « فلك الحكم انظرى ما تأمرين » ولكن ليس عليه من حرج «إن حب الحسن فى الطبع كمين » . وهكذا كان مزاجه الشعرى يسيطر عليه فيرتفع فى سماء البيان محلقا ويأتي بالسهل الممتنع وتنجلى نفسه الشاعرة السمحة المحبة للحسن .

والجميل فى شعره أنه لايتنزل الى الماديات ولكنه ينطق عن شكواه الروحية ويشف عن أدق المشاعر وأنبل العواطف . فهو معرض عن وصف الأعضاء والتغنى بروائع الحسن المادى وكفى أن يشكو فيسمعك قوة الأنات ورنينها وحرارة التنهدات ويشعرك بأن هنالك نفسا معذبة حائرة فى أمرها ولكنها صابرة على أن الصبر قد كاد ينفد :

فما حيلتي والقلب أسر لحاظها ومهما رنت مال الضمير مسلما
فإن أقبلت فالجنة الخلد نزله وان أعرضت قد حل نزلا جهنما
فكيف خلاصي يارفاقي ودأبها الصدود وركن الصبر مني تهدما
فإن قلت إني صادق الود والوفا تقول ألا مت في صدودي متيما
فحرت لأني لم أجد من عنا الهوى خلاصاً فأنجو أو إلى الوصل سلما
وحسبي أن أحظى بطيف خيالها إذا هي لم تسمح بوصلي تكرما

وهذه الصورة الشعرية فيها أيضا وحدة وقوة في التعبير وفيها تصوير لحالته النفسية ازاء مايلاقيه من صد حبيبته، وأوضح مايبدو فيها الحيرة حيث لايدرى أيداوم الحب ويصبر على الهجر أم يكف عن الحب وقلبه لايطاوع، وهذه الحالة النفسية طبيعية يحسها كل من جرب الحب أو حاوله وكفى الشاعر فخراً أن يكون صادق التعبير ينقل الى قارئيه أوضح الصور وأبلغها.

كانت هذه المقاطيع الشعرية مقدمات لقصائد المدح التي كان يدبجها الشاعر، والمدح شائع في الشعر العربي حتى يكاد يكون نصف ماقاله الشعراء، وكذلك الشعراء في السودان نهجوا على نحو العرب القدماء فجاءت معظم قصائدهم في المدح ولكن شاعرنا لم يعرض بضاعته على الأفراد ولم يتمسح بمدح رجل من معاصريه، ووجد في مدح المصطفى مجالاً لإظهار شاعريته السهلة الجميلة ولم تخل مدائحه النبوية من الإبتكار والجودة والصدق فإن من نشأ على دين الإسلام ونهل من أعذب موارد الشريعة وتعرف نواحيها وشعابها حتى أصبح حجة وكان قوله الحكم الفصل لحرى بحب محمد صلى الله عليه وسلم حباً صادقاً وهو إن مدحه فعن معرفة وروية :

يابن العوالي الشم من مضر ويا سر الوجود لك الفناء الأرحب
بك يستزيد المدح حسنا والثنا بك يزدهي بك يستطاب المشرب
ما نازعتك الفخر سادة معشر إلا وأنت على الفخار الأغلب
يا ابن الأكارم والأفاضل والذى لندى يديه وبره نتطلب
المدح فيك وإن علت أوزانه حسنا ونمقه الأديب الأنجب
لايبلغ المعشار من أوصافكم أني له والشأن أعظم أهيب
مدحتك آيات الكتاب ونوهت بفضائل عن درك غيرك تحجب
كل الكمال فأنت غاية حده ما نال ماقد نلته متقرب

وهذا المدح على مافيه من قوة الألفاظ وإرتباط المعاني فيه أصدق الإيمـــان وأبرع آيات الثناء ، ولكن المدح فى رسول الله مهما علا وتسامى لايبلغ المعشار حيث مدحته آيات الكتاب بما لايدركه عقل البشر . وفى هذه الإشارة التى لوح بها الشاعر الدلالة الكافية على صدق حبه للمصطفى وتعرفه لنواحيه وشريعته . وللشاعر ديوان موسوم « روض الصفا فى مديح المصطفى » جمع فيه أمداحه النبوية فكانت كل قصيدة تتناول ناحية من نواحيه صلى الله عليه وسلم حتى أصبح الديوان بمثابة تاريخ للمصطفى دونت فيه معجزاته وفتوحاته وأخلاقه وأوصافه . ولو رتب الديوان على نمط مخصوص لصار تاريخ حياة للنبى منظوما . وهذا يدلنا على أن الشاعر كان يدرس حياة النبى ويتأثر بها فينظمها فى أشعاره ولذلك جاء شعره صادق الوصف وصحيح الحوادث وكذلك الشاعر المتوفر على فنه لايقدم على شيء إلا إذا عرفه وكانت معرفته صادقة وأصيلة .

والآن بعد أن عرضت عليكم صفحة من صفحات الفقيد تكاد تكون مطوية . فلتبك الأمة إبنها البار وشيخها الوقور الذى تعددت نواحيه وكان فى جميعها عالى المقام يشار اليه بأطراف البنان ، لتبك الأمة الفقيه العالم بأصول الشريعة وحدودها والمصلح الذى شاد المعهد وأعلى عماده والسياسى الذى يعمل بتؤدة ورجاحة عقل ويحفظ السر ويصونه ، والخطيب الذى يثير الحماس ويذكر ويستنهض الهمم ، والشاعر الجيد اللفظ والمعنى الحار الموسيقى الصادق التعبير ، لتبك الأمة وتسأل الله الرحمة له والغفران وليدم حزنها عليه حتى يقيض لها الله عظيماً مثله موفور الكرامة متعدد النواحى .

٢٢

الشعر القومى (١)

نحن فى بلد كادت القومية أن تفقد معناها بين أهله ونزلائه وذلك واضح فى مجتمعنا وفى لغتنا وفيما نكتبه من شعر ونثر ، فلقد تعددت قبائلنا حتى مللناها وضاق المتعلمون منا بها ذرعا ، وتبلبلت ألسنتنا حتى غدت العربية وهى لغة البلاد غريبة بيننا نجهل نحوها وصرفها وفقهها ، وكتاباتنا خلو من الروح القومى الذى يميزها عن كتابات غيرنا من سائر أهل الأرض ، وليس فيها من الخصائص مايكسبها كينونة بين آداب الامم ، ونحن لانجد مندوحة عن هذه الحال لما تعانيه من الجهل العام ومانرسف فيه من أغلال نحاول كسرها فيعجزنا ونحتال للفكاك منها فتقعد بنا الحيل. وجدنا أنفسنا نسير فى محيط من العبودية الفناه فطاب لنا وقنعنا بما وجدنا عليه من شر وعدوان حتى فى ميدان الأدب وهو أرحب الميادين وأكثرها حرية . وإن فقدنا حريتنا هل فى ذلك مايمنعنا من أن ننفس عن عواطفنا المكبوته وآرائنا السجينة فنجد فى عالم الأدب مكان القول ذا سعة ونعبر عن أفكارنا وما يختلج فى ضمائرنا بصراحة وحرية لاتشوبها مواربة ولايعتورها جبن أو إحجام ؟ ولماذا هذا الخلط بين السياسة والأدب الذى إن أنتج فلا ينتج غير الفوضى والتدهور فى عالمى السياسة والأدب ؟ وإذا كانت السياسة مفقودة عندنا ودواعيها متعسرة وعدتها غير كاملة أفمن الإنصاف أن نضيع على حسابها عنصراً تتوفر لدينا وسائله وإن لم تتوفر فمن اليسير تحصيلها ؟

تلجأ الامم الضعيفة فى كل أنحاء العالم وفى كل الأزمان إلى الأدب لتجد عنده الحلول المعقولة لمسائلها المعقدة . فإذا ما إستيقنت أنها على بينة مما تريد وكانت أغراضها ومثلها العليا مفهومة لدى طبقات الشعب فهى حرية آنذاك أن تتقدم إلى تنفيذ مشاريعها

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الثامن فى ١٦ سبتمبر ١٩٣٤ .

الكبرى وأن تطلب حريتها ، لأنه من الجهل الفاضح أن تطلب الحرية وأنت تجهل معناه والأدباء يمهدون سبيل الخلاص لأمتهم بدعوتهم فى كتاباتهم الى المثل العليا وشرحهم للآراء الرفيعة وتعميمها وبإستخلاصهم العبرة من تاريخ الأمة وحوادث الجيل ، ولهذا كان الأدب القومى والشعر بوجه خاص حجر الزاوية لكل النهضات يثير الأفكار ويلهب المشاعر ويدفع بالناس الى آفاق من المعرفة والسمو ، ويأخذ بأيديهم الى حيثما يريد الأديب أمته أن تتسنم من المجد . فالبارودى يوم كان يقول لأمته :

وأقتل داء رؤية العين ظالمـا   يسىء ويتلى فى المحافل حمده

كان يمهد لها طريق الخلاص وينفث فيها من روحه مايبعثها من مرقدها ويدفع بها إلى حومة الوغى لأنه كان يدين بالسيف ولايرى غيره :

من العار أن يرضى الفتى بمذلة   وفى السيف ما يكفى لأمـر يعده

وللشعر القومى خصائصه ومميزاته التى إذا لم ترع كان من سقط المتاع ، فموضوعه على الدوام مستمد من حياة الأمة تليدها والطريف كالإشادة بذكر الأبطال الذين يحق للجيل الناشىء أن يتخذ منهم قدوة يعمل على ضوئها ويجد فى أعمالهم مفخرة لأمته لايطمئن اليها فحسب ولكنه يسعى فى الزيادة اليها بما يتطلع اليه من جسام الأعمال ، وكالتغنى بصفات الرجولة الكاملة ، أو ذكر الأعمال الوطنية الخالدة وجعلها حبيبة الى نفوس الشعب قريبة من مداركه . والشعر القومى يجد مادته فى ذكر المواقع القومية الفاصلة سواء كانت نتيجتها النصر أو الإندحار لأن الرجل المقدام الرابط الجأش فى ميدان الوغى إن إنتصر أو اندحر وإن عاش أومات فهو مثال حسن ، ويجد مادته فى أخلاق الأمة حميدها والذميم لأنه يستطيع بما فيه من قوة أن يحبب حميدها للناس فيأخذون به ، وأن يشوه ذميمها فينفر الناس عنه . ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت إن شعراءنا يجدون كل هذه النواحى ممثلة فى أمتنا فى ماضيها والحاضر ، فما لهم لأيصوغون لنا من شعرهم مانتذوق فيه قوميتنا ومايرتفع بنا إلى المعالى وينير لنا السبيل ؟

ولكنى قبل أن أدعوهم الى هذا الميدان على أن أبين معداته بعد أن أوضحت مادته لأنه ليس من الخير فى شىء أن تدعو الى الثورة — مثلا — وليس لديك ماتمون به تلك الثورة . فالشعر القومى يحتاج الى جمال ساحر يجذب الناس الى قراءته وتذوقه والتغنى به حتى يسكرهم ويتغلغل فى الصميم من أرواحهم فيكون قد أدى حينذاك وظيفته . وهذا

الجمال الساحر لا أعنى به الألفاظ البراقة ولا الجمل الموشاة ولا أقصد به التلاعب اللفظى ولكنى قصدت الى الجمال المعنوى والتعبير التام الموافق . ومن خصائص هذا الجمال الساحر البساطة والسهولة الممتنعة التى لاتتيسر إلا لمن وهب عقلاً رجيحاً وحساً دقيقاً وذوقاً سليماً ونفساً صافية، فتجيء ألفاظه وتعابيره قطعة من نفسه يودع المعنى الجليل فى اللفظ البسيط المتداول .

على أن الجمال والسهولة لايكتملان إلا بالوضوح وأعنى به الدقة التى لاتعقيد فيها والأجزاء الظاهرة الكاملة لكل صورة بعد أن تفاض عليها الظلال والألوان وأن تبين المعالم وتتضح الملامح التى تشف عن أدق الخفايا والتصورات . وكل عمل فنى لايبلغ حد الجودة أو يقاربه اذا لم تتوفر فيه هذه العناصر الثلاثة وعلى الأخص الشعر القومى لأنه مما تصبو اليه الخاصة والعامة ،ورضاء هذين الطبقتين رهين بالجمال والسهولة والوضوح.

والشعر القومى يحدث أثره فى النفوس بما فيه من موسيقى عميقة عالية الرنين وما تبعثه تلك الموسيقى من نشوة فى القلب والروح لاتفارق المرء وإن نسى المعنى وغابت عنه الألفاظ لأن النغم الموسيقى ينطبع فى النفوس إنطباعاً، وان تناسيناه فسرعان مايهيجه فينا طائر غرد أو نسيم يداعب أوراق الشجر أو أسطوانة نسمعها فترجع بالذاكرة إلى ذلك النغم الحلو . والشعراء المتفرغون لصياغة الشعر القومى يهتمون بالموسيقى فى شعرهم حتى تغلب عليه فتتصل بمعانيهم ويضيفون بذلك موسيقى المعنى إلى موسيقى اللفظ، وأرى أن طريقة الموشحات أو المزاوجة بين بحرين فى القصيدة الواحدة حتى تتركب كل فقرة منها من بحرين متقاربين ، من خير الطرق لإيجاد النغم الموسيقى المناسب، والشعر القومى إذا فقد الموسيقى كان كالجثة الهامدة فى حاجة إلى من يحركها ومن المحال أن يثير العواطف أو يلهب النفوس لأن الموسيقى هى شرارته الحية التى تتأجج فتؤجج من تلامسهم . والناس لايحفلون بالأغاني ويحفظونها ويرددونها إلا لما فيها من روح غنائية ونغم شجى ولإتصالها بحياتهم اليومية ولتعبيرها عن خواطرهم ومرئياتهم وتخيلاتهم .

إذن فمن واجب الشعراء أن يحفلوا بكل ذلك وأن يفطنوا إلى وجهة الشعب ويتعرفوا نواحيها وشعابها وأن يجاروها فى مسلكها ان طاب لهم، وأن يدلفوا بها الى غيره إذا لم يرضهم، وإن حاول الشعر القومى معالجة الحوادث اليومية ونقدها والتسامى بها لوجد فى ذلك مادة دسمة لغذائه. على أن هنالك عنصراً يزن كل ماتقدم، ألا وهو التعبير الوافى الموافق لنفسية الشعب وروحه ، فإذا نحن لم نعبر عن نفسية الشعب فى شعرنا القومى فقد نكون

من الصين أو اليونان ولكن لن نكون من السودان فى حال من الأحوال . فنحن بما عندنا من عصبية للعرب وماخصنا الله به من عقيدة إسلامية ثابتة تنتظم جل أفراد الأمة لايمكن أن يتجه شعرنا القومى نحو الهمجية والإلحاد لأنه سيلاقى من سخط الشعب ما يكبح جماحه ويحكم عليه بالموت الأبدى . وبما عندنا من محافظة على الأخلاق ورعاية للذمار لايمكن أن يتجه شعرنا القومى نحو الإباحية أو إنتهاك الأعراض وإهمال الحمى .

وبعد أن تبينت أيها القارىء معنى الشعر القومى وعرفت مادته ومعداته من جمال وسهولة ووضوح وموسيقى وتعبير عن نفسية الشعب يخيل الى أنك تسائلنى ومن يكون ذلك الشاعر الذى يتقدم الى مثل هذا الميدان ؟ فأجيبك إنه الشاعر الوافر الإطلاع الماسك بتلابيب فنه الحاذق للغته والمستكمل لصناعته ، الشاعر الملم بحالات النفس البشرية حتى يتعرف نفس شعبه ويحللها تحليلا دقيقا ، وليس هذا بمغنيه إذا لم يكن مثالاً للوطنية والتضحية ونكران الذات راجح العقل متأجج العواطف ، ومثالاً للنزاهة وذا شخصية جذابة وله طريقه الواضحة يسلكها ، وفكرته الثابته يدعو لها ، وعقيدته المكينة يدين بها ويدافع عنها. وإذا كان لنا ثلاثة شعراء تتوفر لديهم هذه الخصائص والمميزات لكان خيرا لنا من الآف الشعراء الذين يزجون بأنفسهم فى حظائر لم يخلقوا لها ولم يسلحوا أنفسهم لدخولها والصراع فى حربها الدائرة الرحى .

وحسبى أن أتقدم فى نهاية مقالى إلى كل من يشعر بحاجتنا الى الشعر القومى ويفهم مدلوله وتتوفر لديه عدته وكملت فيه خصائصه أو كادت ، أن يهيب بأمته فيوقظها من سباتها العميق ، وأن يخلد بطولتها السالفة ، ويدعوها الى مجد جديد، وأن يساهم فى إيجاد فرع من أرفع وأبقى فروع دوحة الأدب وإلا فلا داعى أن نهيب بالناس إلى عمل وليس لديهم ما يسيرهم .

٢٣

واجب الادباء(١)

نحـــو امتهم وفنهم

تثير الجرائد والمجلات فى هذه الأيام لغطاً لا حد له عماذا نكتب ولأى غرض نكتب، وهنالك فريق من الكتاب رصد نفسه وأوقف زمنه لهذه المهمة ولايزال ينادى وقد بح صوته دون أن يفيد أو يستفيد، فهم يريدون منا أن نكتب فى الإجتماع لأن حاجة البلد ماسة اليه ولأن الأخلاق فيها نقص والنفوس بها خور. ولقد صار حب الكتابة فى الإجتماع ضربا متفشيا أصاب الكاتبين وكاد يفتك بالقارئين، ولست أرى مبرراً لكل تلك الضوضاء فهؤلاء الذين يطالبون غيرهم بالكتابة لماذا لايكتبون وقد عرفوا موضع الداء؟ أم أن ذلك من مرض الكتابة الذى أصيب به الناس فى هذه البلاد، فمن ضاقت به السبل وحار عماذا يكتب جعل يقترح على غيره مواضيع للكتابة فيها.

نحن فى عصر إنتقال يختلط فيـــه الحابل بالنابل وتتفرع السبل ويضل حتى العارفون سبيلهم فتضطرب الخطى وتزوغ الأبصار، ولابد لنا من ثقافة عامة نمهد بها لحياتنا المقبلة ونعبد بها الطريق لمن سيسلكونه من بعدنا، ونضع الأساس لمن ينوى البناء القوى الجميل المفيد. وهذه الثقافة العامة تتناول جميع فروع المعرفة الإنسانية من دين وفلسفة وعلم وأدب وفن وسياسة، وليس من اليسير أن تتوفر القراءة المستفيضة لكل أفراد الشعب حتى ولا للذين أسعدوا بالقليل من التعليم المدرسى، لأن القراءة عمل مضن شاق لايحتمله إلا من وهب صبراً وجلداً وإستعداداً فطرياً يتفهم به العويص من الآراء وفكراً ثاقباً يساعده على مشاركة الكاتب فى آرائه ومناقشته ومقارنته مع غيره من الكتاب وبذلك تعظم الفائدة وتفى القراءة بالغرض المطلوب منها. على أن هذا الإطلاع المستفيض يحتاج الى مال وزمن وهذه مستلزمات لاتتوفر إلا للقليل منا الذين وطنوا النفس على مجالسة هذه الكتب الصماء

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد التاسع – فى ١ اكتوبر ١٩٣٤

والفوا الدرس والتحصيل ووجدوا فى عرائس الأدب ونفائسه غنى عن ملذات الحياة الفانية ، وغنموا من وراء القراءة حساسية تشعرهم بما يدور حولهم فيسرون للخير ويتألمون للشر ويجدون فى كليهما مادة لأدبهم .

وما دمنا فى حاجة إلى الثقافة العامة ـ والقراءة المستفيضة ليست ميسورة للجميع فواجب الأدباء فى مثل هذه الحال أن يمدوا قراءهم بالمواضيع الدسمة التى يجدون فيها غذاء لعقولهم وعواطفهم ، والأدباء وحدهم المسئولون عن القراءة العميقة ذات المقارنات المتداخلة ليغربلوا الآراء ويصفوها من الأدران فيقدموا خلاصة الأذهان الى قرائهم بعد أن يفيضوا عليها قبساً من أرواحهم ويكسبوها صبغتهم الخاصة ويشرحوا عويصها ، والأدباء وحدهم المسئولون عن تنويع مواد الكتابة ، فينحصر كل واحد منهم فى الميدان الذى يعرف أسراره ويحيط بتفاصيله الدقيقه حتى تجيء كتابته غزيرة المادة صحيحة المصادر قوية الحجج والتدليل . أما أن يظل الأدباء يهرفون بمالا يعرفون والقراء يلتهمون مالا يسيغون فسيؤدى ذلك الى السطحية فى الكتابة والى الهوس والخلط فى القراءة وستكون العاقبة وخيمة والفشل محققا .

وماهى معدات الثقافة التى تنقصنا ومافائدتها التى سنجنيها ؟ الأدب العربي القديم معروف فى بلادنا قبل سواه غير ان دراسته لازالت عقيمة لم تتعد الإعراب والصرف وتذوق الجناس والطباق ، أما أسلوب الكاتب والشاعر وروحه ونهج فكره فهذا مالم يفكر فيه قراؤنا بعد لأن معظمهم يقنع بالقشور دون اللباب ، ولهذا فنحن فى حاجة الى دراسة ذلك التراث الغنى وإستخلاص مافيه من فائدة نقدمها للقراء فى أسلوب سهل جميل وتحليل عصرى لاتفلت بين كلماته وجمله فائدة قبل أن يجنيها القارئ اللبيب كما فعل أجدادنا فى العصر العباسى عندما درسوا فلسفة اليونان وخرافاتهم وأخذوا فن الفرس فى التعبير والصياغة والغناء فأضافوا إلى الأدب العربي ثروة ما زالت تمون قراء العربية . وان دراسة شعراء كالمتنبى والمعرى وابن الرومى وتعرف مناحى شاعريتهم وأساليب تفكيرهم وروح عصورهم ونوع الحياة التى كانوا يعيشونها وإستخلاص فلسفاتهم من تلك الدراسة وتقديمها للقراء سائغة شهية فيها خدمة للأمة وللعالم العربي لاتقاس بثمن . وفائدة هذه الناحية من الثقافة توثيق العلاقة بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا الذى ننوى إشادته كما فعلت أوربا فى « عصر الإحياء » فانعشت فلسفة الإغريق والرومان وإستلهمت وحى «هوميروس» و«فرجيل» ، فأشادت حياتها الأدبية والعلمية وبنت

على أكتافها حضارتها ودعمت سياستها .

على أننا نعيش فى عصر إتصل فيه العالم إتصالاً مادياً وروحياً حتى كاد يصبح اسرة واحدة، ولهذا لامحيد لنا عن تعرف ثمرات العقول فى الأمم الأخرى، لأن الفكر الإنساني وثيق الإتصال،لاتقف فى سبيل وحدته مطامع السياسة ولاقيود الإستعمار ومن حقى أنا أن أقرأ سخر «برناردشو» على الإنجليز ونقده لأساليبهم وأن استمتع بأسلوبه وتفكيره كما يتذوقه الشاب الإنجليزى أو الألماني . ومن حقنا أن نعرف شيئا غير يسير عن إتجاه التفكير فى الغرب وعن روح الشعر والكتابة، وأن نقف على الآراء التى تجد وأن نودع الى الدار الأخرى الآراء التى يعفو عليها النسيان ويثبت الزمن عدم صحتها. وتزاوج الأفكار معروف من قديم الزمن.فكم أخذ الغرب عن الشرق ومازال يأخذ وكم أخذ الشرق عن الغرب ومازال يأخذ، وكثيراً مايحصل من جراء ذلك تزاوج فى الأفكار يزيد الى خزانة العرفان العالمية. لهذا كان من واجب الأدباء أصحاب الإطلاع الغزير فى الأدب الغربي والمتمشين مع روح العصر أن ينقلوا الى قرائهم زبدة الأفكار الحديثة، أن يحللوها ويعمموها حتى يقف القارىء عندنا على جانب من النتاج العقلى مهم في حياته واضح الأثر فيها .

وفى هذا العصر الذى كثرت فيه المخترعات والإكتشافات وتقدمت العلوم وأصبح من الجهل الفاضح ألا يلم الشباب بجانب من علم النفس والكيمياء الطبيعية وعلم الأحياء وأن يعرف تاريخ الإكتشافات وفوائدها، لابد أن يهتم الكتاب بشرح نظريات علم النفس وأن يهتم العلماء منهم بشرح مبادىء الكيمياء والطبيعة وموافاة القراء بسير العلوم وتقدمها حتى يصبح مستوى القارىء عندنا كمستوى القارىء فى الأمم المتمدينه التى عرفت نفسها وثبتت قدمها قبل أن تطالب بالحرية أو تأسس الممالك والدساتير .

وما أهمية هذه الثقافة العامة التى نريدها لشعبنا ؟ لانريدها ليتبجحوا بأنهم عارفون ولانريدهم أن يتخذوا تلك المعلومات ليضلوا بها فى وادى التيه . ولكن الذى نرجوه أن يعرفوا أنفسهم وأن يعرفوا طبيعة مايدور حولهم وأن يتفهموا بيئتهم ويأخذوا لكل شيء أهبته. لأن فائدة الثقافة أن تنير ذهن المرء وتلقى شعاعاً على كل ما يصادفه من معضلات الوجود فيخرج منه برأى حصيف. والثقافة بلا شك تعين المرء على تفهم وسطه وبيئته لأن هنالك كثيراً من الأشياء نراها ونعجب لها وقد نعدها خرافة أو سحراً،وقد نحسبها من عمل الشيطان، وسرعان مانكشف سرها عندما نصبح عارفين لنا المام بفروع المعرفة

الإنسانية فترد الإمور الى نصابها . ولاحاجة بنا أن نكتب فى الإجتماع ونبين للناس أمراضهم ونحاول تهذيب أخلاقهم قبل أن نفهمهم وظيفتهم فى الأمة وقبل أن نشعرهم بخطر تلك الأمراض حيث يكتشفونها بأنفسهم ويفطنون إليها . لأنك عندما تثقف أبناء الشعب انما أنت تعطيهم السلاح الذى يحاربون به فى الحياة والمشعل الذى يهديهم سواء السبيل. فواجب الأدباء نحو أمتهم أن يوفروا لها معدات الثقافة وكفى ،لا أن يقوموا مقام الخطباء والوعاظ . ومن واجب الأدباء نحو أمتهم أن يرسموا للناس مثل الحياة العليا فى نثرهم وشعرهم وأن يشوقوهم لذلك فيسعى الناس جميعهم لتلك الحياة ويهيموا صوب المجهول وفى بحثهم وراء ذلك المجهول تتحقق غايات وتدرك فوائد .

وإذا كان هذا واجب الأدباء نحو أمتهم فما واجبهم نحو فنهم ؟ واجبهم نحو فنهم أن يخلصوا له وأن يحاولوا إرضاءه وإرضاء ضمائرهم قبل أن يحاولوا إرضاء الناس، ومعنى ذلك أن يتوفروا على دراسة فنهم وإتقان تعابيرهم وتوضيح آرائهم وأن يحاولوا ما أمكنهم ليؤدوا رسالة الأدب فى الحياة ، لأن للأدب رسالة يؤديها منذ الأزل والى الأبد ألا وهى شرح الحياة للأحياء وتبيين أسرارها وفك الرموز والألغاز .وهذه الرسالة هى عمل الأدباء وستبقى عملهم مادامت هناك حياة . ومن حق الأديب أن يملى على أمته وقرائه وأن يأخذ بيدها ويدهم إلى الخلاص . ومن حقه ألا يعالج أى موضوع إذا لم يجد فيه تحقيقاً لبعض رسالته فى الوجود لأنه من العبث أن يضيع زمنه فى مالا يقدمه خطوة نحو غرضه .

والقارىء الطالب للفائدة يجد فى كل موضوع مهما كان عنه غريبا فائدة يجنيها لأنه إذا قرأ مقالاً عن شاعرة يونانية أو عن فيلسوف روماني أو عن كاتب أو شاعر عربي قديم أو عن علم النفس ، سيجد فائدة أقلها أنه عرف مالا يعرفه والمعرفه طريقة مغرية حبيبة إلى النفس الصافية والقارىء الذى يجد من الكتاب من يقدم له دراسات ضافية طريفة لسعيد موفق .

وختاماً أفلا يهدأ المتكالبون على الكتابة أصحاب الإقتراحات الذين لايعملون بما يقترحون ؟ وليمض أدباؤنا الصادقون فى تثقيف أنفسهم وتثقيف قرائهم وليخلصوا لفنهم قبل غيره فيقدموا بذلك خدمة لأمتهم ولأنفسهم .

٢٤

مثل عليا (١)

للحياة السودانية المقبلة

(١)

لاحياة للأمة ولا للأفراد بغير مثل عليا يسعون للحصول عليها . لأن المثل الأعلى متجدد مع الزمن كلما حاول الإنسان الوصول اليه وقطع المرحلة تلو المرحلة يجد الشقة إبتعدت بقدر ما نال هو من تقدم. ذلك لأن المثال الذى ينصبه رهين تفكيره وتقديره لقيمة الحياة ومايفرضه لنفسه من وظيفة فيها . ولهذا كان المثل الأعلى لدى السذج عاديا عند الرجل المتحضر المثقف، ولكن المثل الأعلى لدى الرجل المتحضر المثقف مما لا تحققه الدهور، غير أن العمل المتواصل لإدراك بعضه يذلل صعاباً ما كانت لتذلل، وينيل أغراضاً ما كانت لتنال . والشعوب فى بدء نهضاتها تضع لسيرها خططاً تكاد تكون من قبيل الأحلام وتضطلع بأعباء ينوء تحت ثقلها أقوى الشعوب ، وذلك لترى بعد ما بينها وبين التقدم الحقيقى، ولتشعر بضآلة ماعندها من محصول فتضاعف جهودها وتقوى عزمها وتوقظ أبناءها وتدفع بهم إلى بحر الحياة كما دفعت أم موسى بإبنها إلى اليم لا ليهلك بل لتضمن له الحياة والنجاة، ونحن كشعب ناهض من حضيضه مستيقظ من غفلته علينا واجبات قبل أن تكون لنا حقوق. ولزام علينا أن نضع مثلنا العليا لأدبنا وثقافتنا ومستوى التعليم عندنا وللحياة الإجتماعية والسياسية حتى نعمل على هدى وبصيرة ونوحد الهدف فلا تطيش سهامنا ولاتتفرق جهودنا وهذا ما نحاول الحديث عنه فى هذا البحث ومايليه من بحوث .

ومادمت قد ذكرت الأدب والثقافة بادىء ذى بدء فليكن حديثى عنهما قبل سواهما، وذلك لأن الأدب هو الذى يعنى بوضع المثل العليا ليتبعها الناس فلنر ما مثله التى يجب على القائمين به أن يوجهوا جهدهم نحوها فلا يضيعوا الزمن ولايرهقوا قواهم فيما لايعود على الأدب ولا الأمة بفائدة معنوية أو مادية . وقبل وضع الأسس اللازمة للمثل الأعلى

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد العاشر – فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٤ .

للأدب والثقافة الذين يحق على أدباء الجيل أن يفكروا فى اشادتهما وأن يحملوا القراء بشتى الوسائل على أن يأخذوا عناصرهما لابد من كلمة عن هذا الإستهتار الذى نشاهده فى فى صحفنا وهذه الدعوة الصريحة إلى الأمية والجهل الفاضح الذى ان سئل أصحابه عن علته قالوا إنهم يكتبون لمستوى القراء ولفائدة الجمهور وقالوا إن غيرهم لايعير قراءه أية أهمية ولايسعى لصالحهم . ولكن هذا السلوك من صحفنا وأدبائنا فيه إستهتار بالجمهور واستخفاف بأحلام الرجال فهم يريدوننا أن نبقى على حالة واحدة لانطمح ولانتقدم ولا نفكر فى السمو الفكرى والمعنوى إن أعجزنا السمو الحسى ، وهؤلاء الكتاب مهما توفر عندهم حب الخير فهم سيئو الظن بأمتهم قليلو الإيمان بما عند القراء من روح وثابة ونفس طماحة طالبة للإستزاده . وهؤلاء الكتاب سيدور عليهم الحول يتلوه الحول وهم لايقدمون رجلا إلا ليؤخروا رجلا ، وسرعان مايجدون أنفسهم يدورون فى حيز ضيق محدود وسيلجأون الى التكرار والى مط الحديث وسيقترحون ثم يعيدون الإقتراح ، وسينسون أنفسهم ويهملون تثقيفها حيث ان كتاباتهم التى يحاولونها ليست مما يلجئهم الى البحث والتنقيب والى تحرى المصادر الموثوق بها ، وسيزهدون فى القراءة وإذا بالأيام تدور وإذا بأولئك الكتاب فى مستوى القراء الذين كانوا بالأمس القريب يستخفون أحلامهم ويزعمون أنهم يكتبون لهم ما تستسيغه شهواتهم وتهضمه عقولهم . وسوف تكون الصدمة عنيفة حيث يضل الهادى قبل أن يهدى غيره ، وإذا بالأديب المتواضع الذى يؤمن بالنزول الى الدرك ليرفع الناس صار بينهم وإطمأن الى حالتهم الفكرية فلا هو يستطيع إنقاذهم ولا إنقاذ نفسه .

ليس فى الشرق العربي من يدعى أنه يحترف الأدب ، وذلك لأن سوقه كاسدة وحتى الذين يمتهنون الصحافة من الأدباء يرتكنون على الجانب السياسى قبل سواه ، ونحن نرى ان الأدب ثانوى لدى جميع الأفراد المشتغلين به من حيث كسب قوتهم وإن كان له فى نفوسهم المكانة الأولى وضحوا من أجله كثيراً من الفرص التى كان من المحتمل أن تنيلهم تقدما غير يسير فى وظائفهم سواء أكانت حكومية أم حرة . .

فى البلاد المتمدينة لاتجد رجلاً إلا وله مسلاة يقطع بها أوقات فراغه ، فمنهم من يلجأ الى الرياضة البدنية ومنهم من يلجأ إلى إحدى الصناعات ، ومنهم من يجد فى التصوير أو الشعر أو القراءة والدراسات الأدبية المستفيضة خير شاغل ، وكثيراً ما تكون تلك المسلاة ميداناً لظهور الجوانب الكامنة فى الرجل والتى قد لا تسمح مهنته التى يكسب قوته من ورائها بظهورها ،

وكثيراً ما يصرف المرء عنايته لتلك المسلاة وينبغ فيها إلى حــد البراعه فيبذ المحترفين . .
وإحتراف الأدب وإتخــاذه مهنة نادر حتى فى الغرب ، حيث انتشار التعليم وكثرة السواد
المثقف الميال للقراءة الحاذق البصير الدقيق النقــد ، لأنه لايوجد إلا القليــل من المؤلفين
نالوا ثروة طائلة من وراء منتجاتهم الأدبية . فلا عيب على الموظفين منا والمشتغلين بالأعمال
الحرة أن يتخذوا الأدب مسلاة ويولوه العناية الخاصة به وأن يحببوه إلى جمهور القراء
وأن يقدموا لهم ما يمكنهم من نتاج صالح فيه قوة وجمال .

لايستطيع الرجل أن يسمى نفسه أديبا إلا إذا كان وافر الإطلاع ثابت القــدم
فى كل مايتصل بالأدب من لغة وعلم وتاريخ وله المام بالأساليب الأدبية والفكرية فى
اللغة التى يكتب بها وبعض اللغات الحية التى لها أثرها فى تراث العالم الفكرى ولو عن
سبيل الترجمة . وليس مجرد القراءة كافياً وحده لأن يجعل أحدنا فى مرتبة الأدباء، لأن
الأديب لابد له من بصيرة نافذة ومقدرة على الملاحظة القوية والإستنتاج والإستنباط وقدرة
على التعبير البسيط الجميل وحساسية نادرة. والأديب الحق الذى يطمع فى الخلود لابد
أن يكون أصيلا فى آرائه وفى طريقة عرضها، وأن يكون له أسلوبه الخاص تطبعه روحه
الخاصة، وأن يكون صدى لبيئته يصور عيوبها ويرسم لها مثلها العليا التى يجب أن تنشدها.
أما أولئك الكتاب الذين يكتبون لتظهر أسماؤهم على صفحات الجرائد السيارة ليعلم
معارفهم وأقرباؤهم البعيدون أنهم لازالوا على قيد الحياة فهم محسوبون على الأدب ،
متطفلون على موائده ومن واجبهم أن يقرأوا وأن يتثقفوا قبل أن يحاولوا الكتابة .

ولابد للأديب من معدات الثقافة التى تؤهله لأن يكون أديبا بالمعنى الصحيح فنحن
فى حاجة الى دراسة الأدب العربي دراسة صحيحة دقيقة فيها من الغربلة وتصفية الآراء
من الأدران وشرح عويصها وتصحيح معوجها الشيء الكثير ، ولا بد لنا من دراسة تاريخ
الأدب العربي ودرس اللغة من نحو وصرف وبيان وبديع والوقوف على فقهها وتطور
الأساليب فيها وماتحتاج اليه من تحوير جديد فى التعابير ووضع الألفاظ حتى تفى بحاجة
الجيل ومستنبطات المعاني . ولابد لنــا من إدراك الفروق الدقيقة بين المقالــة والقصيدة
والقصة والرواية والدرامة وما يحتاج اليه كل فرع من تلك الفروع من أصول الصناعة
والأحكام قبل البدء فى معالجتها حتى تعمل على هدى وروية . وحيث أن الآداب بدأت
عند اليونان فلزام علينا أن نعرف الأصول فنقرأ تراجم مؤلفات «هومير» و «أرستفانيس»
و «سوفكليس» و «ارسطاطاليس» و «أفلاطون» واذا لم تسعدنا الظروف بقراءتها كاملة فعلى

الأقل أن نقرأ ملخصاتها ونلم بما فيها من الروح الأدبي والطبيعة الفنية وأن نعرف ما إحتفظت به الآداب الحديثة من أساليبها وما عفا عليه الزمن وأدركه النسيان وأن نقف على ما تقدمنا من الآراء لنهدم مالا نؤمن بصحته ومـا ثبتت لدينا البراهين بخطئه وأن ندعم مـا نقره ونضيف اليه ما جد لدينا من آراء .

ونهضة الأدب لاتقوم إلا على النقد النزيه الصارم المبنى على المقارنة والإستقصاء والمقصود منه قطع الأعشاب الطفيلية التى تعوق نمو الأشجار الجميلة المثمرة وتعهد النباتات ذات الجذور الثابتة والفائدة المرجوة . وحسب النقاد أن يساعدوا التيارات الفكرية القوية على المضى ويمهدوا لها السبيل فلا تعوقها الرواسب وتوقفها السدود. وحسب الأدباء ان يعملوا بإخلاص لفنهم ، جاعلين المثل الأعلى نصب أعينهم ، مجارين الطبيعة فى عملها وتنسيقها وسنتها فى بقاء الأصلح .

ونهضة الأدب وإنتشار الثقافة العامة لايتم عملهما ولاتعم فائدتهما إلا إذا كان الادباء من أصحاب المبادئ الذين يحاولون رفع القراء الى مستواهم ولاينزلون الى مستوى الجمهور الوهمى ، لأن للجمهور درجات تحتها درجات الى حيث لاقرار ، فكلما نزل الكاتب درجة وجد تحته درجات لابد من النزول اليها وهكذا حتى يصل إلى قرار من الجهل مكين فيخشى عليه من الجهل يضرب حوله نطاقاً . فعلى الأدباء ان يمدوا قراءهم فى كل يوم بجديد وان يوطنوا النفس للنفرة الأولى فسيعقبها الإقبال والمواصلة لإلتهام تلك الآراء الطريفة ، وأن يلاحظ الأديب وحدة عمله الفنيه وأن يمضى الى غرضه توا ليؤدى رسالته كما يفهمها لا كما يمليها عليه الناس . وأن يحاول الإستفادة بقدر الإمكان من ملاحظات النقاد الصادقين الجادين فى عملهم فى سبيل الأدب ، لا للتشفى والظهور على حساب الغير .

ولاخير فى الأدب إذا لم يدفع بالناس الى تذوق الحياة والإستمتاع بالجمال وتقديره ولاخير فى الأدب إذا لم يحمل الناس على رفع مستوى معيشتهم وتغيير أساليب حياتهم ومساعدتهم على التفكير فى شئونهم الإجتماعية والسياسية . ولاخير فى الثقافة إذا لم تشعر الناس بما عليهم من واجبات نحو أمتهم وأنفسهم قبل أن تشعرهم بما لهم من حقوق لأن الناس إذا عرفوا ما عليهم من واجبات وقاموا بها على الوجه الأكمل فسترد اليهم حقوقهم كاملة قبل أن يتبجحوا بأن لهم بعض الحقوق . والثقافة هى التى تشعرنا بأن لنا حرية نفقدها وأن لنا كرامة سلبناها .

والآن فلنجمل ما فصلناه فنقول ان المثل الأعلى للأدب والثقافة ينحصر فى الإطلاع

الرصين ذى المقارنات المتداخلة فى الأدب قديمه وحديثه، وفى دراسة إصول اللغة ومستلزماتها وأحكامها، ودراسة العلوم والوقوف على التاريخ بخيره وشره، والملاحظة القوية والإستنتاج والإستنباط ، والقدرة على التعبير والأصالة فى الرأى وفى طريقة العرض وفى تصوير البيئة ووضع المثل العليا ، والنقد النزيه الصارم ، وأن يكون الأدباء من أصحاب المبادىء يحاولون رفع القارىء الى مستواهم دون أن ينزلوا الى مستواه. وأخيرا فإن خير الأدب وخير الثقافة ما أعان الناس على فهم الحياة وأغراهم بها ودفعهم الى تذوق الجمال والإستمتاع به ورسم لهم من المثل العليا فى التعليم والإجتماع والسياسة مايسعون لتحقيقه طيلة الدهور .

٢٥

مثل عليا [١]

للحياة السودانية المقبلة

(٢)

فى التعليم [٢]

ان كل ماتراه من نقص فى بيئتنا ومانلاحظه من عيب فى أدبنا وثقافتنا وبالأحرى فى مجتمعنا وجميع مرافق حياتنا ان هو إلا رهين أساليب التعليم عندنا وضيق نطاقه ، فإذا نظرنا الى مداه والى أساليبه وأغراضه وجدناه فى جميعها غير موف لما تحتاجه أمة ناشئة تنظر الى المستقبل بعين حيرى شاخصة ، وتحاول الإفصاح ولسانها متثاقل معقود وتود النهوض وجناحها مهيض ورجلاها لاتقويان على الوقوف. والآن بعد أن فتحت هذه الأمة عينيها على الوجود وانتج نظام التعليم الحالى — على مابه من علل — بعض الشبان الذين استطاعوا ان يحصلوا بجهودهم الشخصية على مقدار من المعرفة لاغبار عليه وفطنوا الى بعض ما كان يقعد بهم عن بلوغ مايسعون اليه من فروع المعرفة الإنسانية المتشعبة ، فنرى من الخير ان نعقب على التعليم عندنا من حيث مداه وأساليبه وأغراضه ثم نستخلص من ذلك مثله الأعلى الذى يحق على حكومة البلاد وعلى أبناء البلاد أن ينشدوه .

إذا تحدث الناقد عن التعليم فى هذه البلاد فلا بد أن يقسمه على فترتين : قبل عام ١٩٣٢ وبعده ، وذلك لأن سياسة التعليم بدأت فى عهدها الأخير تتجه صوب ناحية لانتحاشى أن نصفها بأنها ضيقة مجحفة ومبالغة فى تضييق المدارك والنزول بنا إلى درجة فوق الأمية بقليل غير ان الأمية أسلم منها ومأمونة العواقب . والتعليم فى عهده القديم ينقسم إلى ثلاثة أطوار الأولى والإبتدائي والثانوى يغذى كل واحد من الأولين مابعده وهو فى هذا تؤهل كل خطوة منه الى التى بعدها غير أن ثلاثتها يعتورها النقص ، وعلى الأخص التعليم الأولى الذى يقوم مقام الأساس للبنيان الذى تتسنم الكلية قمته .

---

(١) نشرت بمجلة الفجر — المجلد الأول — العدد الحادى عشر — فى ١ نوفمبر سنة ١٩٣٤ .

(٢) لن أتعرض للألعاب الرياضية ولا طرق التفتيش والادارة لأنى مقتنع بحالتها الحاضرة وكذلك التعليم الصناعى ، اما المعهد العلمي فكفيل وحده أن يقوم أود التعليم الدينى .

والتعليم الأولى فى العهد القديم لايدلى بحجة الى التعليم الصحيح ، فهو بعد تعليم قواعد الكتابة والقراءة الأولية، يبالغ فى حشو حوافظ الطلاب وذوا كرهم وذلك لأن القائمين به تنقصهم معرفة طباع الطفل ومايحتاجه تكوينه من معلومات بسيطه متتابعة تمت الى بعضها بصلة أكيدة. ورجال التعليم لم يفطنوا فى بادىء الأمر الى ضرورة علم النفس لمعلمى المدارس الأولية الذين كان بعضهم من تراث الجيل الماضى من خريجى الخلاوى والمقرر الذى وضع ليترسم المعلمون مواده قليل الفائدة. وحسب القارىء أن يرجع بالذاكرة الى أيامنا الغابرة أيام كان شيوخنا حياالله ذكراهم يلقنوننا فى درس المحفوظات معلقة عمرو بن كلثوم ودالية المعرى وكنا نحفظ ذلك الشعر عن ظهر قلب وكنت أنا بوجه خاص أحار فى معنى أبياته ولا أجد سبيلا الى المعرفة لأن قواى العقلية فى ذلك الحين لم تكن لتسمح لى بتذوق تلك المعاني وسبر غورها وعلم الله اني كنت أحسب أن البشير إسم رجل يخطب فى المنتديات حين أقرأ بيت المعرى.

وشبيه صوت النعى إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل نـاد

ولايخفى عليك مايتركه مثل ذلك الفهم فى النفس ومايجده الطالب فى سنيه المقبلة من صعوبة ليقتلعه من ذاكرته. والطلاب كانوا يقرأون ذلك الشعر فخورين وتنتفخ أوداجهم وترتفع حناجرهم فيملأهم الغرور ، والغرور إذا لازم الصبيان من عهد طفولتهم أدى بهم الى مزالق فى الحياة مهلكة ولن تمحوه السنون وتجاربها القاسية.

وإذا جئت الى علوم الجغرافيا والتاريخ فلا أحسبك لاقيا غير فوضى لاترضاها ولاتود بقاءها ، أفلم نكن نعرف جغرافية إنجلترا وفرنسا والمستعمرات ويحدثنا شيوخنا عن ساحل الذهب وساحل العاج وعن محصولاتها وماتصدره منها الى الخارج وما تستورده من البضائع الأجنبية ، وشيوخنا وان كانوا يدققون فى تدريسنا عواصم الممالك ومدنها الكبرى فقد كانوا يجدون صعوبة فى نطق تلك الأسماء الأعجمية وهيهات ان تنطق على صحتها، وماذا يهمني وانا يافع أن أعرف سواحل أفريقيا وموانيء أنجلترا وأثر تيار الخليج عليها ؟ واما التاريخ فكان أقرب الى حديث الخرفات وأحاجى الغيلان. أفلم يكن المدرس على سبيل الإستطراد يحدثنا عن الدولة الأموية وحلم معاوية ووفود النساء اليه؟او لم يكن يحدثنا عن خلفاء العباسيين وعن بذخهم ويقص علينا طرفاً من أخبار هارون الرشيد والبرامكة،وكل ذلك لاحاجة لإبن العاشرة به، ولكن مقرر الدراسة وفهم الشيوخ له وتصرفهم فيه ما كان يؤدى إلا إلى تلك الحال.

ذلك حجر الأساس فى التعليم ، وهو كما رأيت مضطرب ضعيف غير محكم الوضع وأما التعليم الإبتدائي فلا يزيد عن الأولى بغير اللغة الإنجليزية والتوسع فى الجغرافيا واللغة العربية والحساب . واللغة الإنجليزية لاتدرس على الوجه الذى يجعل الطلاب يتعرفونها على أصلها ويحذقونها فى مقبل أيامهم ، فكنا نحفظ من الكلمات ما لاعدد له ولكننا لانعرف طريقة إستعمالها فى مواضعها الصحيحة والكلمات فى اللغة الإنجليزية ذات معان متعددة وحسبك أن تعلم ان كلمة واحدة تستعمل كفعل وإسم وتدخل عليها أربعة من حروف الجر فتعطيها أربعة معان مختلفة . وعلة العلل فى تعلم اللغة الإنجليزية اننا كنا نتفهمها عن طريق اللغة العربية على مابين اللغتين من فروق . واللغة الإنجليزية يبدأ معها تدريس الأجرومية ونحن إذ ذاك لانعرف مـــن قواعد النحو فى لغتنا مايمكننا مـــن فهم تلك الأجرومية لتلك اللغة الأجنبية . ثم إننا كنا نبدأ كتابة الإنشاء فى اللغة الإنجليزية مع كتابة الإنشاء فى اللغة العربية فى وقت واحد فلا نبلغ فى كلتيهما درجة يركن إليها . ومواضيع الإنشاء فى اللغة العربية كانت تدور فى أغلب الأحوال على أبيات من الشعر قد يكون من العسير على الطالب فهمها . وإن أنس لا أنس ذلك اليوم الذى سئلنا فيه لنكتب عن معنى بيت أبي الطيب المتنبىء:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادهـــا الأجسام

فتبادر الى أذهان بعض الرفاق ، ولهم عذرهم ، ان من كان سمينا ذا بدنة تعجز رجلاه عن حمل جسده فلا يقوى على السير ويكابد مشقة عظيمة فى الحياة . وكثيرة أمثال هذه الحوادث .

وقبل أن أتقدم نحو التعليم الثانوي لابد من نظرة عجلى نلقيها على مدرسة المعلمين للمدارس الأولية،فهى فى عداد المدارس الإبتدائية وإن كانت اللغة الإنجليزية لاتدرس فيها . وهذه المدرسة فى عهدها القديم كانت تعنى بقليل من دروس التربية والمعلومات العامة فى الجغرافيا والتاريخ والحساب وتدرس فيها اللغة العربيـــة على نفس الطريقةالتى تدرس بها فى المدارس الأبتدائية ومواضيع الإنشاء كسابقتها. أما علم النفس ورياضة الطفل ومباسطته والتحدث اليه فيما يلامس حياته من قصص وأشعار بسيطة فهذا مالم يكن فى الحسبان .

وتعال بنا الى التعليم الثانوى ، فهو فى السنتين الأولى والثانية ينصرف إلى المعلومات العامة كالتاريخ الطبيعى والتاريخ السياسى القديم لليونان والرومان والعرب وتاريخ السودان

فى عهد مملكة النوبة . وتدرس فروع الرياضة من حساب وجبر وهندسة.وفى السنتين الثالثة والرابعة فهو تدريب للطلاب ليملأوا الوظائف الحكومية من كتابية وحسابية وهندسية . وخريج الكلية على الرغم من دروس الرياضيات واللغتين الإنجليزية والعربية التى يتلقاها لايصلح إلا للعمل فى الدوائر الحكومية. وكما قال السير «جون مفى» حاكم السودان العام سابقا فى معرض الحديث عن التعليم فى السودان « ان المادة البشرية التى تكيفها لنا كلية غردون التذكارية كافية لسد الوظائف الحكومية » وهذا حديث لاغبار عليه إذا كان المقصود من التعليم أن يخرج آلات لتسيير أعمال حكومة البلاد .

ذلك هو النظام القديم بخيره وشره . وأما النظام الحديث فغير مرجو الفائدة، أولاً لأن التعليم الأولى سيكون محليا متمركزاً، فيختلف فى النيل الأبيض عنه فى مديرية كردفان ومديرية دنقلا ومديرية الخرطوم . وثانيا لأنه سينظر اليه كخطوة لاثانية لها حيث يتخرج الطلاب ليعاونوا آباءهم فى زراعتهم أو حرفهم حسب ظروف البيئة . وثالثا لأنه سيكون الأعم الشامل، وكما يقول المثل الإنجليزى « قلة المعرفة ضرر » وحسبك أن تعلم إن الشبان سينحصرون فى دراسة تاريخ القبيلة وجغرافية المديرية مع قليل من الكتابة والقراءة وفى الناحية العملية يتعلمون الزراعة وتربية المواشى . والتعليم الإبتدائي سيكون قاصراً أيضا على نفسه لاخطوة بعده وسيعنى بحاجيات المقاطعة وتخريج كتاب البلديات والمراكز والإدارة الأهلية . والتعليم الثانوى مع أنه سيظل محصوراً فى مديريتى الخرطوم والجزيرة وماجاورهما ، فهو بعد أن فاضت مكاتب الحكومة وضاقت فى وجه الخريجين سيكون عديم الفائدة إذا لم يؤهل الى التعليم الجامعى وكان فى مستوى المدارس الثانوية فى البلاد الأخرى، غير أن التعليم الجامعى لاينظر اليه بعين الرضاء . لأنهم كما قالــوا لايسمح لهم التقدم الذهنى فى البلاد بإدخال التعليم العالى أو التعليم الجامعى . ولايفوتنى هنا أن أذكر جهود أساتذة الكلية فى إدخال بعض الجمعيات الأدبية والموسيقية وغيرها ليقطع بها الطلبة أوقات فراغهم وليتدربوا بوجه خاص على السير فى بيئتهم خارج المدرسة وليسدوا ثلمة فى مجتمعهم .

والآن بعد أن حدثتك أيها القارىء عن مدى التعليم وأساليبه فى الماضى والحاضر فلنتحدث عن أغراضه . وأول تلك الأغراض رفع الأمية ، وثانيها تخريج بعض الموظفين لتسيير دفة الأعمال فى الدوائر الحكومية. وثالثها تأهيل الموظفين السودانيين ليشغلوا بعض الوظائف العليا التى كانت مقصورة على صغار الإنجليز وبعض أخواننا السوريين . وهذه

أغراض كما تبدو لاترمى لغير الناحية العملية المادية، ولهذا فليست من المثل الأعلى فى شىء ولنتلمس الآن المثل الأعلى للتعليم من بين ثنايا هذا الإستعراض .

ولنعمد أولاً إلى نظرة التعليم والى أغراضه فنصححها ثم لنر ماهى الأساليب التى بإتباعها تحقق تلك النظرة وتدرك تلك الأغراض . ونظرتنا للتعليم تتلخص فى جعل الذهن مفيداً متيقظا لتذوق جميع نواحى الإدراك للجمال والأريحية وتقدير كل ماهو عظيم وعالى المقام . وإذا كانت نظرة التعليم تنحصر فى تعليم الطلاب ليصبحوا قادرين على التفكير والملاحظة ، مدججين ليجدوا مرتزقا فى أى مكان ساروا وليلجوا الصعاب فيخرجوا منها برأى رصين لايتسرب اليه الزلل من بين يديه ولامن خلفه لكانت نظرة مستقيمة حسنة النتائج . وأغراض التعليم تنقسم الى قسمين كبيرين ، النفع المادى والخصب الذهنى أما النفع المادى فينحصر فى تسليح الطلاب بالعلوم التى تكفل نجاحهم فى ميدان الحياة العامة وتدر عليهم الرزق الذى يمكنهم من مواصلة جهودهم لإسعاد أنفسهم وعوائلهم ومجتمعهم ، والخصب الذهنى يقصد به تثقيف العقول ودفعها فى طريق المعرفة راغبة فيها مجدة فى تحصيلها عاملة على إذاعتها وتعميمها حتى تصبح منتجات الأذهان حبيبة لدى معظم طبقات الشعب لأن النبضات لاتقوم على جهود الأفذاذ وحسب، ولكنها تحتاج الى جيش جرار يشد أزر أولئك الأفذاذ ويتذوق آراءهم ويعمل بها. والتعليم لايؤدى وظيفته على أكملها إلا إذا جمع النفع المادى والخصب الذهنى وعمل لهما معا معلمو المدارس الأولية أول ما يقوم عليه أساس التعليم ولذلك أرى ان العناية بهم مما يحسن مستوى التعليم فى البلاد لأن الطفل فى حاجة إلى من يعرفه معرفة أكيدة يدرس طباعه وميوله ويتعرف نزعاته البريئة وغرائزه الكامنة . ومن الخير أن يكون مقرر مدرسة المعلمين الأولية مشتملا على دروس وافية فى علم النفس وعلى الأخص مايعنى منها بتربية الطفل ، وأن يشمل دروس الصحة العمومية وقليلا من دروس الكيمياء والطبيعة والزراعة مع دراسة يسيرة فى اللغة الإنجليزية تعينهم فى الإطلاع على مايقدم للطفل فى الأمم الغربية من ضروب المعرفة المنظمة القريبة إلى مداركه ، ودراسة مقدار عظيم من المعلومات العامة لأن الطفل كثير الأسئلة عن جميع مايقع تحت نظره أو يلامسه، وإذا كان المدرس لايجيبه إجابة صحيحة فستكتظ ذاكرته بالمعلومات الخاطئة التى يصعب تعديلها فى المستقبل . واللغة العربية وهى لغة البلاد تحتاج إلى عناية شديدة فى تدريسها حتى يكون المعلم حجة يستطيع تلقينها إلى الأطفال بسهولة وبساطة تجعلهم يتحدثون بها دون لغتهم الدارجة .

ومما لاريب فيه ان طريقة فن القصص وسرد الحوادث التاريخية بأسلوب جذاب لمما يحتاجه معلمو المدارس الأولية . وينبغى أن يكون المعلمون مثاليين يجد الطلاب فيهم قدوة حسنة فى الأخلاق وحب الخير والمعرفة، ليس فى المدارس الأولية فحسب ولكن فى جميع مدارسنا .

ولننتقل الآن إلى المدارس الأولية وهى لاتؤدى وظيفتها فى عمود التعليم الفقرى إلا إذا كانت تنتظم البلاد جميعها ولاينظر اليها نظرة محلية من حيث دروس الجغرافيا والتاريخ خاصة، وأن تزول الفوارق التى تعمد إلى تلقين الطفل تواريخ أبطال القبيلة فيفنى فى قبيلته دون سائر البلاد . ولتكن وظيفتها تأهيل الطلاب للإلتحاق بالمدارس الوسطى (الإبتدائية) اما مقررها فليحصر فى تعليم القراءة والكتابة وأصول الدين وقواعد الحساب الأولية وفى المعلومات العامة التى تأتي على سبيل الإستطراد حيث يجيب الأستاذ على أسئلة الأطفال المتشعبة . وفى التاريخ عندى إن خير الطرق هى تدريس الطلاب حيوات عظماء البلاد فى قصص سهلة توضع للأطفال، وهنا أقول انه قد آن الأوان لوضع مؤلفات خاصة بأطفالنا . واللعب المستمر الذى تبين فيه ميول الطفل وإتجاهاته لاشك له مكانه فى مقرر المدارس الأولية . وهذا التعليم الأولى إذا كان الزاميا سيمحو الأمية المنتشرة فى قرانا ومدننا النائية .

أما المدارس الوسطى فطريقتها الحالية فى تدريس اللغة الإنجليزية لاغبار عليها غير ان العربية تحتاج الى عناية كبرى ولاسيما درس الإنشاء، وعلى المدرسين فى هذا أن يدرسوا الطلبة مايحد أذهانهم ويغذى قلوبهم، ولكن المعلمين يهتمون بواجب المهنة والتفاصيل ويتبعون العادة والطريقة التى تلقوها عن معلميهم فى عهد الدراسة . ولكن الزمن يتغير والرجال تتغير وأساليب التعليم تحتاج الى التغيير مثل أساليب الحياة .

والكلية وهى المدرسة الثانوية الوحيدة أراها محتاجة الى مراجعة مقررها من جديد وجعله فى مستوى التعليم الثانوى فى إنجلترا مثلا حتى إذا لم يتيسر للطالب أن يلتحق بالمدارس العليا أو ينال حظه من التعليم الجامعى كان فى مقدوره أن يجد مرتزقا فى الحياة وان يفكر ويواصل الدرس فيصل بجهوده المنظمة القائمة على أساس متين الى مثل الدرجة التى يبلغها طلاب الجامعات من المعرفة وحسن السلوك فى معترك الحياة .

وحيث أني قد ذكرت ان النفع المادى والخصب الذهنى جماع الأغراض التى

يعمل التعليم لتحقيقها فأرى ان التعليم الجامعى بجميع فروعه لامحيد عنه . وبلادنا الآن تقف فى مفترق طريقين يؤدى أحدهما الى الحضيض وهو الأمية أو ما فوقها بقليل. والثاني يؤدى الى القمة وهى التعليم العالى أو الجامعى، ولا أظن الشعب ولا الحكومة يرضيان الأولى ولهذا فمثلنا الأعلى للتعليم الذى ننشده لهذه البلاد هو التعليم الجامعى الذى يقوم على أساس متين من التعليم فى أطواره الثلاثة الأولى . وخير التعليم ما أخذ بيدنا فى مسالك الحياة الشائكة وجعلنا قادرين على تذوق النشوة الذهنية ويساعدنا على فهم الوجود . وحذار أن نجعل جهود التعليم قاصرة على الحاضر ومايتطلبه، والمستقبل يريد منا أكثر من هذا، ونحن نطمع فى مستقبل تزينه حياة أدبية صحيحة، وحياة إجتماعية سعيدة، وحياة سياسية مزدهرة.

٢٦

مثل عليا [١]

للحيــاة الســودانية المقبلة

(٣)

فى الإجتماع والسياسة

ان أمة إضطرب فيها سبيل الأدب فلا فرق بين العارف والجاهل وعمت الفوضى حتى كادت تودى بالغث والسمين ، وضعف نظام التعليم فيها وضاق مداه الى أن قارب الأمية أن لم يندمج فيها ، لحرية أن تكون هدفاً للويلات الإجتماعية وأن تشكوها وتسعى جهدها للخلاص منها ومما يعقبها . فإذا نظرنا إلى نظام الاسرة وجدنا المرأة جاهلة تحوطها جدران من الجهل والتقاليد وإذا نظرنا الى أخلاق الشبان هالتنا الهوة السحيقة التى يندحرون اليها واعين وغــير واعين ، وإذا تفقدنا الكهول والشيوخ وجدناهم لاهين بأعباء الكبر وتكاليف العيش وخوف الموت عما تطلبه أمتهم من جهودهم وما ترجوه من الإستفادة بتجاريبهم ، وإذا تطلعنا إلى المجالس والمنتديات وجدنا المؤمن يأكل لحم أخيه حيا والفينا الإنقسام ينخر فى صميم الأمة ويهدد كيانها ورأينا فتيان الحى يشغلهم التفكير فى أشخاصهم الفانية عن التفكير فى خير هذه الأمة التى مازالت فى سباتها تحاول فتح عينيها فيروعها ماترى بنيها عليه من محن تتلوها محن وإنقسام يتلوه إنقسام .

لقد تعاقبت على هذه الأمة فى الآونة الأخيرة ثلاث حكومات قبل هذه الحكومة الحالية[٢] : أولاها مملكة الفونج . وكان الناس إذ ذاك تغمرهم موجة من الجهل فلا الحاكم قادر على تسيير دفة الحكم ولا المحكوم بقادر على مساعدة الحاكم وكانت ثمة فوضى يؤيدها الظلم ويحكم أمرها — إن كان للفوضى امر فيحكم — ثم جاء العهد التركى المصرى فوقعت البلاد فى قبضة الحاكم الأجنبى الذى لايهمه من أمرها إلا أن يستغل مالهــا ورجالها ، فجعل الولاة الأتراك ينهبون الذهب نهبا ويجندون الفيلق تلو الفيلق ليزيدوا الى عدد جند والى مصر وليدخلوا على جيشه عنصراً فيه من الميزات والقوة ما يحتاجه ذلك

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الثانى عشر – فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤

(٢) حكومة الحكم الثنائي .

الجيش . وتفشى الظلم فى البلاد وكثر الضغط على الأهلين فأوهن القوى وأضعف الأخلاق، وعلى الأخص لأن ذلك العهد جاء عقب الحروب الأهلية التى أفنت الرجال وتوترت فيها علاقات القبائل وتفرقت الكلمة . ثم جاءت المهدية لتنقذ الناس من فوضى الأخلاق ومن ظلم الحكام، فكان لها ما أرادت فى عهدها الأول، ولكن الجهل قعد بنيانها وقضى فى عهدها الأخير بأن تكون مثاراً للتفرق القبلى من جديد. وكان ضغط القائمين بالأمر سببا فى ضعف الأخلاق بعد أن بدأت تقوى، فساد الدس وكثر الرياء وخفت أحلام الرجال إلا الذين وهبوا قوة فى الإيمان وصبرا على الشدائد وعرفوا ان ما قدر سيكون ولن تصيبهم من مصيبة إلا بإذن الله .... وهكذا كيف ترى تجمعت العوامل وإتحدت لتجعل من هذه الأمة طعمة سائغة لكل غاز وكل مجتاح، ولتورثها وهناً فى الأخلاق وتفرقا فى الكلمة وهى محكومة مغلوبة على أمرها، والحاكم مهما حسنت نياته فليس من الخير له أن ينبه الأمة لضعفها فتقويه وإلى تفريق الكلمة فيها لتعمل على إتحادها !

ومستوى المعيشة ونوعها وملذات الحياة ومطامعها ، هل تلك مما يساعد على قيام حياة إجتماعية سعيدة ؟ لا . فإن الفقر المدقع وجفاف الحياة حتى قاربت الكفاف أو هى حياة الكفاف بعينها ، وفقدان الجمال الطبيعى والصناعى وعدم التفات الناس الى النزر اليسير الباقى منه لأنهم فى شغل عنه بحاجيات الأكل والشراب واللبس المتواضع ، وما تبدهنا به الظروف من الأزمات المالية والأخلاقية، وما نقاسيه من كبت الأفكار لخوفنا حتى من أنفسنا ولفقدان الثقة حتى فى الصديق الخلوص بل والأخ الشقيق، ولإنعدام روح التعاون وروح التضحية وروح الإقدام بين الشباب ؛ كل تلك العوامل فرادى ومجتمعة لاتزال تعمل على إضطراب الحياة الإجتماعية عندنا وجعلها تعسة غير موفقة، لاتنتج سوى الخراب عاجلاً أو آجلاً .

غير ان لهذا الشعب فضائله التى توارثها والتى لولاها لما إحتمل عقابيل تلك الأدواء دون أن يفنى ولأقمنا على جدثه مناحة . فإن الأريحية العربية الفذة والصبر على الشدائد حتى كاد يكون جبنا وتبلداً فى الشعور ورضاء بالذل ، وإن ما تكنه الصدور من الشجاعة الخلقية والمحافظة على الأعراض وإراقة الدم فى سبيل حمايتها ، كل تلك الفضائل لاتزال عاملة على مقاومة الأمراض الإجتماعية التى تجتاحنا وأصبحت تهدد مجتمعنا على أن هذه الفضائل بدورها أخذت فى النقصان والتدهور ويخشى عليها الإنقراض . فالشبان لاتجد عندهم من الأريحة والإباء ماعند آبائهم وأجدادهم، فهم يحجمون حتى عن مساعدة ذوى

القربي، وقليل منهم من يفكر فى أن له من الأعراض مايجب أن يصان، والتقاليد الصالح منها وغير الصالح بدأنا نطرحها جانبا ولاننظر اليها إلا كبعض العاديات فى زوايا المتاحف

والآن بعد أن إستعرضنا ما لهذه الأمة وما عليها، ورأينا العـوامل التى اتحدت لتعمل على إنهيار ركنها، والعوامل التى أخذت تقاوم حتى ضعفت أو كادت تعجز عن أداء وظيفتها فلنر ماهى طريق الإصلاح وما المثل الأعلى الذى يحق علينا أن نضعه لحياتنا الإجتماعية ونتبعه. والأسرة فى نظرى هى نواة الحياة الإجتماعية، فإذا كان نظام الأسرة مما يساعد على التعاون والتضحية وفهم الواجبات قبل المطالبة بالحقوق وكان مما يدعو الى المساواة ورفع مستوى الحياة والتسامى بالمشاعر إلى المثل العليا والترفـع عن الدنايا والمطامع الشخصية فنحن لاشك سنظفر بحياة إجتماعية سعيدة تكفلها حياة سياسية مزدهرة.

والأسرة قوامها المرأة والمرأة كما أسلفنا جاهلة فى حاجة الى التعليم لتعرف واجباتها ولتعرف كيف تربي أطفالها وتغرس فى نفوسهم حب بلادهم وحب الخـير للإنسانية عامة. وأنا عندما أقول بتعليم المرأة لا أريدها لتعمل فى الأسواق أو لتدخـل ميدان الوظائف الكتابية، ولكنى أريدها زوجاً مدبرة وأماً تعنى بتربية الطفل وترعى جسده وروحه وتتكفل بغذائه الجسمي والعقلى والخلقى. ولاأريدها سافرة متبرجة، ولكنى أقول بمحافظتها على تقاليدها المرعية وعلى تقاليد وتعاليم دينها الحنيف، وأريدها ملاكاً يرفرف فى جلسات الأسرة وليالى سمرها، يؤثر وجودها على الرجال حتى يكفوا عن هذر القول ولغو الحديث وحتى يحصروا همهم فى تخير الألفاظ وتنميق العبارات فلا يجرحوا شعورها. ولأضرب لكم مثلا على قوة تأثير المرأة فى المجتمعات، فإني أتحدث الإنجليزية مع الإنجليز وغير الإنجليز وأهتم فى بعض المواقف بلغتى وأصقلها ولكنى ما تحدثت الى سيدة إنجليزية الا ورأيت الفاظى وتعابيرى تتسامى ورأيتنى حريصا فى القول مقتصداً فى الرأى، وشعرت بأني غير ذلك الرجل الذى يتحدث مع الرجال أمثاله. وبعد البحث والإستقراء علمت ان للمرأة سلطانا على الرجال يؤثر حتى فى محادثاتهم وأعمالهم الأدبية.

وإذا تعلمت المرأة وقامت بواجبها فإلى الشبان أسوق الحديث قبل الكهول والشيوخ. إن شباننا أخذوا من مدنية الغرب القشور دون اللباب فتفانوا فى السكر والميسر والفساد فأنساهم الشيطان ذكر ربهم، وأخذوا يفكرون فى منافعهم الشخصية دون منفعة البلاد وجعلوا يتبجحون بأن لهم حقوقاً ونسوا ان عليهم واجبات. قال « جوزيف مازينى » عندما كان يدعو ابنـاء « ايطاليا الفتاة » لتحريرها كلمة إذا اتبعناها نجحنا فى جميع

مقاصدنا . وفحوى تلك الكلمة : ان كل الثورات التى قامت نادى زعماؤها برد الحقوق ولكنه يقول لأبناء إيطاليا ان عليكم واجبات . « مازينى » لم يقل ذلك إعتباطا ولكنه كان يعلم حق العلم ان الرجل الذى يعرف واجباته ويؤديها على وجهها الأكمل فسترد اليه حقوقه غير منقوصة دون أن يطالب بها ، ولقد صدقت الأيام زعمه فتحررت إيطاليا وغدت ملء العين والأذن ! فواجب الشبان أن يتحدوا وأن ينسوا أنفسهم وأن يتعمقوا فى المعرفة وأن تتنزه إجتماعاتهم عن فضول الكلام وسافله وأن تكون لهم جماعاتهم المنظمة لمحاربة الفساد والأمية ولرفع مستوى العلوم والفنون والآداب وواجب الشبان ان ينقذوا البلاد من ويلاتها وان يرفعوا مستوى الحياة الإقتصادية ويساهموا فى تكوين الأعمال الخيرية التى تخفف آلام الفقير وتكفل لأبنائه مستقبلا زاهراً . وواجب الشبان أن ينادوا بمحو القبائل وأن يقولوا اننا سودانيون لافرق بين أسودنا وأبيضنا ولافرق بين ساكن الشمال وساكن الجنوب !

وأما الكهول والشيوخ وهم تراث أجيال مضت ، عندهم من الفضائل ماكاد ينقرض فى الشبان ولهم من الأمراض ما أورثهم له تعاقب تلك الحكومات الثلاث من دس ورياء يسمونه دهاء ، وما عندهم من زعم على أنهم قاموا بواجبهم العام وبقى عليهم ان يفكروا فى تكاليف العيش وأن ينشغلوا بأعباء الكبر وخوف الموت عن خدمة بلادهم وإفادتها بتجاريبهم ، فإني أقول لهم أنتم مسئولون عن مستقبل البلاد وعليكم أن تكونوا مثالاً للشبان وأن تورثوهم ماعندكم من الفضائل وأن تتجردوا من أدوائكم فتعملوا مخلصين لوجه الله والوطن فإن من بلغ الأربعين أو جاوزها أولى بخدمة بلاده من سواه وهو خليق أن يكف عن الدس وعن الرياء فهو إن عمل فى وضح النهار وإن جاهر بالحق فلن يصيبه أذى لأن له من السن شفيعا ، وإذا أصابه أذى من جراء تلك الصراحة ومن أجل قول الحق فهو نعم الأذى وفيه خير العزاء لمن يطمع أن يرى بلاده متمتعة بما يرجوه لها من تقدم وعمران ، فإلى ميدان العمل أيها الكهول والشيوخ واحملوا علم الجهاد ولكم من الشبان خير جند .

أما مستوى المعيشة وملذات الحياة والإلتفات الى نفحات الجمال وروائعه فهذه من حقنا إذا قمنا بواجبنا ، وستكون موفورة للجميع إذا زال الإنقسام وتمتعنا بالثقة فى بعضنا البعض وسادت بيننا روح التعاون والإخلاص وروح الإقدام والتضحية ، وستكون لنا فى القريب العاجل منتديات تفى برغائبنا ونجد فيها مجالا لتنفيذ خططنا وتحقيق أحلامنا .

والآن لأجمل ما فصلت فأقول إن المثل الأعلى للحياة الإجتماعية أن تكون لنا أسرة صحيحة تديرها إمرأة متعلمة وأن يعرف الشبان واجباتهم قبل ان يطالبوا بحقوقهم وأن تتحد كلمتهم وأن يفنى نظام القبائل ، وأن يتقدم الكهول والشيوخ الى ميدان العمل ويحملوا علم الجهاد،وأن يضحوا بالبقية الباقية من أيامهم وحياتهم في سبيل الله والوطن . ولكني أراك أيها القارئ تسألني ،وماهو المثل الأعلى للحياة السياسية لأن عنوان المقال يدل على اني سأحدثك في ذلك الشأن ، وجوابي هو أن السياسة لم يأت الأوان لنتحدث عنها مادامت مقدماتها، من تعليم وحياة أدبية وإجتماعية ناقصة ومادمت أنا مكتوف اليدين حبيس اللسان .

ولو ان المجال مجال سرد   لأطلقت اللسان بما يزين
ولكن اللســـان له قيـــود   فمهلا سوف تطلقه السنين !

٢٧

الشرق والغرب يلتقيـــان (١)

مسز « بيرل بك » كاتبة روائية ولدت فى أمريكا ونشأت وترعرعت فى الصين ولها شهرة فى الأدب الإنجليزى وعلى الأخص دراساتها عن بلاد الصين وأهلها حيث تعلمت اللغة الصينية فى صباها ودرست عادات الناس وطريقة عيشهم وعرفت التقاليد وأحبت البلاد وأهلها فتمتعت بثقتهم وتسللت إلى الدور وجالست الجنس اللطيف وتحدثت الى النساء حديث المرأة إلى أختها المرأة . وكان أول معرفتى بالكتابة فى خلال هذا الشهر حيث ذهبت إلى المكتبة الإنجليزية ووجدت هناك أستاذاً لنا قديماً وبيده كتاب أخذ يحدثنى عنه فى إيجاز فقال « إنه لكاتبة روائية مشهورة بكتاباتها عن الصين ودقة تصويرها للحياة الصينية » فأشتريت الكتاب لحينى وعمدت لقراءته وكان أسلوبه شائقا يأخذ باللب فهو حديث سهل لاكلفة فيه ولاتعمل . والكاتبة تأخذ بيدك وتوقفك على دقائق الأمور ودفائنها دون أن تشعرك بوجودها ، فيخيل اليك انك فى الصين تدخل قصورها ومقاصيرها وتقف على العادات والتقاليد وتدخل « الحريم » فترى الزوجة الأولى متربعة تدبر الأمور وتصدر الأوامر الى الخدم وترى السرارى لاحديث لهن إلا عن جمالهن الباقى منه والذى ذهب، وتحسد كبراهن صغراهن على ماتتمتع به من عطف الزوج وماتجده من قربه، وترى كيف بدأ صرح التقاليد ينهار ركنه وكيف سكبت دموع الكبار المتمسكين بالماضى الذى بدأ ظله يتقلص وتحس بين هذا وذاك ان مدنية الغرب أخذت تتسرب بين جدران الأسوار العالية إلى صميم الشرق الأقصى المحافظ ، تارة فى رفق وأخرى فى عنف. واليك ملخص الكتاب الذى دفعنى لأقرر فى غير شك أن « الشرق والغرب يلتقيان » وعنوان الكتاب « ريح الشرق وريح الغرب » وهو رواية عن عائلة صينية عريقة

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الثالث عشر – فى ١ ديسمبر ١٩٣٤

فى القدم والمجد لها تقاليدها الموروثة المرعية والرجل له زوج وأربع من السرارى وكان عظيم الشهوة متجدد الحب ، فكلما قضى من وصيفة وطره جاء بثانية ، وهذه العائلة مشهورة مرت عليها خمسة قرون وهى هى ، لم تتغير نظمها ، ولم تتبدل عاداتها ، وسلفها الصالح لم يحاول واحد منهم أن يجدد أو يبدل من حالها ، وهى فخورة بقدمها متمسكة بتقاليدها حريصة عليها تمام الحرص .

وللزوج الأولى – التى بيدها الحل والعقد ، ولها الصدارة فى شئون البيت وتسيير الخدم والإشراف على شئون السرارى – بنت وولد بعد أن عصفت المنون بأربعة من بنيها . وهى شديدة الإهتمام بتعليم بنتها كل ماتحتاجه إبنة اليوم وأم المستقبل من تدبير منزلى وطهى الى تقاليد الأسر الرفيعة وعاداتها ، وأما الأخلاق فكفاها أن تقرأ الكتب الأربعة التى وضعها المعلم الأكبر كنفو شيوس . ولقد خطبت البنت قبل أن تولد لأحد أبناء الأسر العريقة فى القدم والمجد والتى لها مكانتها فى الهيئة الإجتماعية وكذلك الإبن كان من المقرر أن يزوج ببنت أحد أبناء الأسر الرفيعة التى تربطها مع أسرتهم أواصر صداقة قديمة من تمام المحافظة عليها المصاهرة على الرغم من أن الخطيبة تكبره بثلاث سنوات .

دارت الأيام دورتها وكبر الإبن وفصل عن الحريم لأنه بلغ سن الرجال ، وكانت أخته التى شبت معه تتحرق لرؤيته ، وتحاول مرة بعد الأخرى التطلع من الباب الفاصل بين مقاصير النساء وردهة الرجال لتراه ، ولكن التقاليد وحرص امها على تنفيذها حالت بينها وبين ماتريد . ثم أرسل الإبن الى مدرسة أجنبية فى العاصمة ليتعلم هنالك على أن امه لم تكن راضية عن إرساله إلى تلك المدرسة لأنها ترى أن كل الحكمة وكل مايحتاجه الرجل أو المرأة موجود فى الكتب الأربعة . وعاد الإبن فى عطلته الدراسية الى أهله مرتديا الزى الأوربي فإحتجت والدته على هذا الزى وأبت إلا أن تراه فى لباسه القومى الفضفاض ، فرضخ لمشيئتها . وبعد أن أكمل الفتى دراسته فى المدرسة الأجنبية طلب من والده أن يرسله الى أمريكا ليتعمق فى دراسة « العلوم » فوافق والده على سفره لأن أصدقاءه قد أرسلوا أبناءهم ليتعلموا فى جامعات الغرب ، ولابد أن يكون إبنه فى مستوى أولئك الأبناء لأن المستقبل يحتاج إلى مالايحتاجه الحاضر كما تطلب الحاضر فوق ماتطلبه الماضى . أما والدته فكانت غير موافقة كعادتها ولكن ليس لها ان تعترض على أمر اقره زوجها ، وهكذا سافر الفتى وعبر البحار الى أمريكا يدرس « العلوم » على أساتذتها ويمتزج بالطلبة والطالبات على السواء ويدخل حياة جديدة فى كل مظاهرها .

بلغت الفتاة سن الزواج وعاد زوجها المنتظر من بلاد الغرب بعد أن قضى زهاء الإثنى عشرة عاما يدرس الطب فى أحدي الكليات . وقد أحكمت أمها ربط قدميها لتعوق نموها حتى كانت تباهى بأن لإبنتها أصغر قدمين فى جيلها، وعلمتها آداب الحياة الأرستقراطية وأنواع الطهى المختلفة وكيف تثير شهية زوجها للطعام بما تعرضه فى مائدته من ألوانه المختلفة، وعلمتها سحر البسمات وصبغ الشفاه وتخضيب الأظافر وتصفيف الشعر وتزيينه بالزهور والحجارة الكريمة والعزف على القيثار بأناملها الدقيقة وعلمتها كيف تحترم أمه وتقدم لها الحمام الساخن فى الصباح وكيف تقدم لها الشاى الجميل الذى حسن نكهة وطاب مذاقاً . وعلمتها كيف تحترم الكبار وكيف تحييهم وكانت تتمنى على الدوام أن تكون خطيبة إبنها جميلة مهذبة كبنتها صغيرة القدمين جمة الإحترام .

زوجت الفتاة للدكتور سليل العائلة النبيلة ذات التقاليد والمراسيم ولكنه عاد من بلاد الغرب كافرا بعادات أهله ، وعلى الرغم من موافقته على الزواج من الفتاة التى كان من المقرر أن يتزوج بها لم يكن راضيا عن قدميها المربوطتين ولا عن لباسها الصينى وشعرها المصفف المزدان بالزهور والحجارة الكريمة ولم ترقه شفتاها المصبوغة ولا أظافرها الطويلة المخضبة وبعد ان إنقضت أيام الزواج وهو فى دار امه وأبيه كاره البقاء معهم فى دار واحدة كما تقضى تقاليد الأسرة وغير راغب فى أن تظل زوجه خادمة لأمه وأبيه كما هى الحال فى البلاد ، وعزم على أن يسكن فى دار خاصة به وبزوجه وأن يمارس مهنة الطب الذى تعلمه وأن يكسب قوته بيده وكان والده يرى من العار أن ينزل إبنه كأبناء الشعب الفقراء الى ميدان العمل والأسرة غنية مترفة ولكن لابد مما ليس منه بد .

سكن الدكتور وزوجه فى دار مبنية على النظام الأوربي الحديث لافرق بين « الحريم » وردهة الرجال، وبها طابقان ولها سلالم ، ونوافذها من الزجاج وأسس الدار بالأبسطة والمقاعد الأوربية وكانت الزوج دهشة مذهولة لاتدرى ماتقول وهى لم تعرفه للآن كزوج تسكن اليه ويسكن اليها . وكان يحاول أن يفك رباط قدميها لتأخذ شكلها الطبيعى ولتأخذ فى النمو بعد ان كادت عظامها تلتوى وأخذ يشرح لها بالطرق العلمية مافى ذلك من أضرار بليغة . وبعد أن مضت شهور ذهبت الفتاة لتزور أمها فقصت عليها ماصادفته من صعوبات وصورت لها فى ألم موقفها تجاه زوجها الذى يريدها أن تغير كل شىء، والذى يقول لها « أنت شريكة حياتي ومساوية لى فى كل الحقوق والواجبات » والأم المسكينة ماكان منها بعد أسفها على ماضيعته فى تعليم بنتها تقاليد الأسر الرفيعة وما صرفته من

العناية بقدميها الناعمين الصغيرين إلا أن تقول لها « ولكن ياطفلتي إن للمرأة طريقاً واحداً لتسلكه في هذه الحياة مهما كلفها، أن ترضي زوجها » عادت الفتاة إلى زوجها وبدأت تنفيذ رغباته ، فأطلقت قدميها وغيرت الكثير من عاداتها وأخذت تبادله الحب وتتعلق به وتقابله عند باب الدار إذا عاد من عمله وتجلس معه على المائدة وتتلقن عنه بعض علوم الغرب . وكان أن حملت ووضعت إبناً مليئاً بالحياة، وكانت التقاليد تقضي بأن يعطي الإبن الأول لجده وجدته، ولكن الدكتور الثائر على التقاليد لايرضى أن يكون إبنه بعيداً عنه، ورفض طلب أمـــه وأبيه . والمرأة الحنون شعرت الآن بقيمة الثورة على التقاليد حيث تمتعت بفلذة كبدها، وصار لها ولزوجها دون سائر خلق الله. عرفها زوجها بصديقاته، المتعلمات من بنات الصين، وعرفها بأصدقائه وصديقاته من الغربيين وهكذا إستطاعت بنت الاسرة العريقة أن ترضي زوجها وأن تعيش معه في هناء وحبور وأن تعزف له وهما جالسان تحت ضؤ القمر على القيثار الذي كان بالأمس يعرض عن سماعه، تعزف له وتغني الأغنية الصينية « ما أبرد هواء الخريف وأصفى قمره . تتساقط فيه أوراق الشجر اليابسة ويلعب فوق الشجر الغراب الذي عضه الجليد . أين أنت ياحبيبي هل سألقاك مرة أخرى ؟ آه ، ان قلبي يبكي هذا المساء فإني وحيدة . »

هذا ما كان من أمر الفتاة ، أما الفتى الذي سافر الى أمريكا والتحق بجامعاتها ليدرس « العلوم » على أساتذتها فقد امتزج بالبيئة الغربية وجالس الفتيات السافرات العاريات الأزرعة الدائمات الإبتسام الدائمات الحديث ، اللبقات اللاتي يعرفن إصطياد المهج وملك حبات القلوب . وأحب فتى الصين إحدى فتيات الغرب وأحبته وشارف حبهما التمام وصمم على الزواج منها، وكلف أحد أصدقائه أن يكتب لأمه وأبيه بنيته ويطلب موافقتهما وهكذا كتب صديقه الى أهله كتاباً مطولا شارحا لهم الموقف طالبا لموافقتهم ولكن ماذا جـــرى ؟ .

كان وقع الكتاب عظيماً على أمه التي لاترى « الأجنبيات » إلا كالشياطين، ولاتنظر اليهن إلا نظرتها إلى الخدم والسراري، وهي بعد محافظة على التقاليد، تتألم لزوالها بل لأدنى سوء يمسها، وتود أن ترى حفيدها سليل أم من أسرة صينية شريفة غنية . والخطيبة لاتزال منتظرة عودة الفتى من أمريكا. تألمت أمه وثارت دفائنها وأخذت تدخن غليونها وتدمن تدخين الأفيون لتنسى نفسها، وقامت في الدار مناحة حزنا على ما إعتزمه « السيد الصغير » وأرسلت المرأة إلى إبنتها زوجة الدكتور تخبرها بماجرى فذرفت الأخت الدمع السخين

على تصرف أخيها وماسيصيب أمها من حسرة وتوجع ،وأخبرت زوجها الدكتور فلم يرضى تصرف الفتى ولكن لم يثر لأنه يعرف معنى الحب .

ذهبت البنت لتخفف عن والدتها ولتقنعها بأن أخاها لن يعصى أمرها وأمر والدها ولكن هيهات ، فقد أخذ الألم منها كل مأخذ، وكتبت الى إبنها ليعود من بلاد الغرب في الحين ،لأنها لاتحتمل فراقه أكثر من هذا ،ومنعته أن يتزوج بالأجنبية حتى لايمزج دم الشرق الطاهر النقى بدم الأنجاس . ومرت أيام وأسابيع وإذا بالفتى يكتب إلى أخته وزوجها بأنه تزوج ويطلب اليهما أن يقنعا أمه وأباه وانه سيعود بعد حين ومعه زوجه « الأمركانية » الجميلة التى زاحم فيها عشرات الفتيان وكسب المعركة .

حارت الأخت فى أمرها،فهى بين عطفها وحنوها على أمها التى أدركها الكبر ومضها الألم وشفقتها بأخيها الذى أحبته وأحبها ولعبا سوياً فى الصغر وقطفا الأزهار ونثراها . فجعلت تسعى لدى أمها وتحاول إقناعها ولكن أمها لاتسمع ولاتعى وتمنت أن لو مات الفتى قبل أن يذهب الى بلاد الغرب وتمنت أن لو ماتت هى قبل أن ترى صرح التقاليد يأخذ فى الإنهيار فيتزوج إبنها « بأجنبية » ويضع الذرية المقدسة فى الإناء القذر المدنس .

عاد الفتى من أمريكا تصحبه « الأجنبية » وهى طويلة القامة عريضة المنكبين ذهبية الشعر سريعة الحركة كثيرة الحديث تجلس مع الرجال وتشاركهم البحث وتسير فى الطرقات مع زوجها وتصعد معه الجبال للتريض وللصيد ، تبثه حبها أمام الناس ولاترى غضاضة فى أن تقبله . نزل الفتى مع زوجه ضيفا عند أخته وزوجها الدكتور حتى تمهد الأمور ويحصل على رضاءأمه وأبيه ليدخل دار الأسرة تصحبه الزوجة ،وبعد سعى متواصل وجهود بذلتها أخته التى لامتها امها أمض اللوم لأنها قبلت الأجنبية فى دارها ، رضيت الأم أن يأتي الفتى على إنفراد ليسلم عليها، ولكن أصر أن يدخل ومعه زوجه التى ألبسها ثيابا صينية صنعت خاصة لهذا اللقاء ، بعد أن علمها كيف تحيى أمه وكيف تنحنى عند الدخول وكيف تجثو على ركبتها لتقدم فروض الإحترام . . . ولكن « الأجنبية » دخلت حجرة السيدة وهى شامخة الرأس ونظرتها فيها عظمة وكبرياء فأفسد ذلك المقابلة رغم إنحنائها وسجودها أمام السيدة .

خرج الفتى وزوجه وقفلا راجعين إلى دار أخته وبعد شهرين رضيت الأم التى أخذت صحتها فى النقصان وشارفت الموت حسرة على ضياع التقاليد ، رضيت أن يعود

الفتى إلى الدار ومعه « الأجنبية » على شرط أن تدخل « الحريم » وترتدى ثياب الصين وأن تخضع للعادات والتقاليد فلا تجالس الرجال ولاتتحدث اليهم ولاتخرج الى النزهة ولاتصعد الجبال . وهكذا جاء الفتى وزوجه إلى حظيرة الأسرة وأخذ السرارى والأطفال يسارقون النظر إلى الأجنبية ويتهامسون ويضحكون، وهى تتحمل الأذى صابرة من أجل حبها . وبدأت تتعلم لغة الصين وتتحدثها وماكانت تجد من النساء من تطمئن اليها إلا عندما تزورها أخت زوجها .

أما الوالد فما كان ينظر الى الأجنبية الا كمتعة أتي بها إبنه من بلاد الغرب لتسليهم وتضحكهم . وكان يبدى لها الرضاء وهى تظنه معجبا بها راضيا عن زواجها. زاد الألم على الأم وبلغ ذروته فماتت فحزن عليها كل من فى الدار . وحملت الأجنبية فطلب الولد من والده أن يعترف بزواجها ليكون إبنها ولى العهد ووريث العائلة الشرعى ولكن والده قال إنها خادمة ولايمكن أن يكون ولى العهد من دم خليط ولابد أن يكون صينيا عريقا ، فتزوج بخطيبتك الأولى وأجعلها أما لأبنائك وأترك هذه للمتعة والتسلية .

ولكن الفتى لايرضى تعدد الزوجات ويمقت التسرى ورأى ذلك إهانة من والده فتنازل عن جميع حقوقه فى الأسرة، وخرج من الدار غير آسف عليها وسكن داراً على الطراز الأوربي وجعل يرتزق من علمـــه وعاش مع زوجه فى هناء وحبور .ووضعت زوجه أبناً فيه من جمـــال الشرق وقوة الغرب كل مايحتاجه الرجل من جمال وقوة وإطمأنت والدته لأنه شابه أباه فى عينيه السوداوين وشعره الأسود . وكان ذاك المولود ملتقى الشرق بالغرب،.فارقت أمه وطنها وتغربت، وتحسرت جدته لأبيه وماتت،وفارق أبوه أهله وداره وهجرمجد أجداده وتحمل كل مصيبة من أجله . لقد أزال الطفل فروقا مرت عليها مئات القرون وكان نقطة اللقاء بين الشرق العتيق والغرب الحديث .

* * *

هذا ملخص الكتاب فماذا نرى فيـــه؟ نرى نوعين من الشبان تعلم احدهما ورضى أن تكون زوجه صينية يكيفها كما يريد ويخضعها لرغباته ويخلصها من نير العادات والتقاليد المرهقة وتبقى من عادات بلادها الصالح المفيد وتعلم الآخر وأحب الغرب وأحب فتاته وتزوج بها وثار على التقاليد ثورة عنيفة فجاء إبنه صينيا أمريكيا يرتدى فى ستة أيام من الإسبوع ملابس الصين وفى اليوم السابع يرتدى ثياب الغرب . ومن الواضح الجلى أن الشرق سائر نحو الغرب والغرب سائر نحو الشرق وانهما الآن يلتقيان . وهذه

المشكلة مشكلة القديم والجديد ليست فى الصين وحدها ولكنها فى كل بلاد الشرق فأى الطريقين يجب أن نسلك؟ طريق الفتى الدكتور الذى شاء أن يسخر علمه وثقافته لتطهير بيئته وتحسينها أم طريق الفتى الذى شاء أن يغير المعالم ويبنى من جديد ؟ .

الشرق والغرب يلتقيان لامحالة ولكن واجب الشرق أن يحافظ على عناصره فلا تزول، وأن يمتزج بالغرب إمتزاج الند بالند حتى يكون المزج متساويا، وللشرق أن يأخذ من الغرب مايراه صالحا له موافقا لطبيعته كما أن الغرب سيأخذ من الشرق مايحتاجه من الحكمة والنور . وأبناء الشرق ان حافظوا على كرامتهم فسيقفون مع الغرب على كفتى ميزان رغم الإستعمار بضروبه المختلفة من إستعمار فى السياسة والإقتصاد، لأن روحانية الشرق وصبره وجلده وغيرها من العناصر التى حافظت على بقائه الآف السنين وهو هو محتمل للأذى صامد للويلات لابد عاصفة بالغرب مذلة لــه . وإن إحتاج الشرق الى مادية الغرب وآلاته ، وسرعته ، فإن الغرب الذى بدأت حياته المادية تولد عناصر الفناء فى معاملها قد بدأ يحتاج الى روحانية الشرق وصبره وجلده، وبدأ ينتظر ظهور النور من الشرق، وهكذا سيلتقى الشرق والغرب ولكن لافى ذلة وانكسار ! .

٢٨

حـــيرة الاديب(١)

الحيرة حالة نفسية تهيمن على كثير من الناس فى كثير من الأوقات ، فقـــد يحار المرء ماذا يأكل وماذا يلبس ، وقد يحار من يعاشر ، ويحار فى طرق الكسب ، وتضيق به السبل فيضيق بالحياة . ونحن نرى أناساً توفر لديهم المال وتفتحت لهـــم أبواب الكسب وحفت بهم نعم العيش غير أنهم دائمو التقطيب تبدو عليهم سيماء الـــكآبة والإبتئاس ، يرتادون المتنزهات والملاهى ويبذلون النقودعن سعة وينشدون الطرب والمرح راجين أن يزول عنهم ذلك الإبتئاس والعبوس ولكن هيهات فإن الحيرة المسيطرة على نفوسهم تجعل الحياة ضيقة مجهمة فى عيونهم مكشرة عن نابها تكاد تبتلعهم وهم يفرون منها ، ولكن لا يهربون من أحضانها إلا ليرتموا عليها من جديد . على أن هنالك حيرة أدهى من كل ذلك وأمض وذلك لأن صاحبها دقيق الشعور ذكى اللب سريع الفهم مرهف الأعصاب ، يشعر بادني مايلامسه حتى همس النسيم ودبيب النمل فى جوف الظلام فكأنه وتر القيثارة يفصح عن كل مايوقع عليه . تلك حيرة الأديب الذى يعيش فى حرب ضروس بين نفسه وفنه وزمانه وقرائه فى الحاضر والمستقبل ، حيرة الأديب الذى يريد أن يحيا لنفسه ولقومه وأن ينال الخـــلود .

تحدثنى نفسى بالكتابة مراراً وأهم أن أكتب فتزدحم مخيلتى بالمواضيع وتتراءى أمام ناظرى صورها المختلفة ، فمنها مايزهو فى حلة شعرية جميلة ومنها الدسم الذى يعسر هضمه ولاتقبله النفوس الميالة بطبيعتها الى الدرس والإستقصاء . ومنها الإجتماعى الذى يعالج شئون الناس ويحاول التخفيف من جفاف الحياة وضعفها ومنها النقدى الذى يتناول منتجات الكتاب والشعراء بالتحليل والغربلة وبالتوضيح أحيانا وبالتشذيب أحيانا

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الرابع عشر – فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٤

اخرى، ومنها السياسى الذى يعمد إلى درس النظم الإدارية والتعليمية وإلى وجهة نظر الحكومة فيهاجم نقط ضعفها ويغير إتجاهاتها ويمحو منها ويثبت، ومنها التصويرى الذى ينظر الى حياة الأشخاص يتخير البارز من معالمها ليعرضها على الناس فى صور منها الفكه ومنها الفياض بالمآسى . ولكن النفس تظل مضطربة واجفة ما أقدمت على واحد من هذه المواضيع الا ورأت فى معالجته تعرضا إلى ناحية من النواحى المخوفة فى هذا البلد فالجمهور متعدد الأذواق متلونها لايستسيغ إلا القليل النادر من خفيف القول الذى لايتعسر هضمه . والحكومة أخوف من صاحب البيت المبنى من الزجاج ما رأى حجراً مطوحاً فى الفضاء إلا وظنه موجها الى داره يقوض من دعائمها، ورقيبها فيه شدة ولين لايعلم الكاتب معهما ما الذى يسمح به وما الذى يحرم ، والأفراد يعجبهم الحديث عن الناس ويجدون فيه لذة وحياة ولكنهم لايرضون إذا كانوا فى ذات مرة موضوع ذلك الحديث. والكتاب والشعراء يخافون النقد كأنه وخز الإبر ولايرضون عـن الناقد إلا إذا نزههم عن النقص ووضعهم فى سماء عليين . وانا المسكين ، وكثير أمثالى بين شبان هـذا البلد وأدبائه ، أريد أن أكتب ما أراه الحق وأريد أن أعالـج الجميل من المواضيع والدسم الذى فيه غذاء الروح والعقل، وأريد أن أنقد الكتاب والشعراء فى غير محاباة ولارياء أنصب لهم العالى من المقاييس واطبق عليهم مايطبق على زملائهم فى غير هذا البلد واطالبهم بما يطالب به أضرابهم فى غير هذا البلد، وبودى أن اظهر ماعندهم من رأى جميل قوى وأن آسف لما عندهم من رأى ضعيف فاتر ، وإني لأتفقد أعمال حكومة البلاد ونظمها وأحاول أن أجابهها بالحق فتصدني الحواجز وتقعد بي القيود . وإني لأدرس الرجال البارزين وغير البارزين فأجلو لهم صوراً لو عرضتها لكان فيها للناس متعة وعبرة ولكنى أخشى غضبهم وهكذا أظل فى حيرة أسائل نفسى عما ذا أكتب ولماذا أكتب ؟

وحيرة الأديب لايجد دواءها الا عند الكتب التى كانت مصدر الداء، فهيا ياصاحبي وداوني بالتى كانت هى الداء . وهأنذا أفتح خزانة كتبى على مصراعيها فأقرأ يتيمة الدهر للثعالبى متنقلا من عبد الحميد الكاتب الى الصاحب ابن عباد ومن ابن العميد الى ابي الطيب المتنبى وأقرأ من جيد الشعر ما أجد فيه الفكه المثير للضحك والمراثي والمآسى الفياضة بالحزن والناضحة بالألم، وأدع الثعالبى جانبا لغيره من كتاب وشعراء العرب القدماء فأمل صحبتهم فالجأ الى ألمازني اقلب صفحات « صندوق الدنيا » لأعيد قراءة ماقرأته ولأجد عنده نوعا من الفكاهة جديراً ان يجدد فى النفس نشاطها، وأن يزيل حيرتها، ولكن المازني

مربك، فيه صراحة وفيـــه بساطة إلى جانب الإلتواء والتعقيد : يحب فينبى حبه غـ آسف عليه، ويقرأ ويدمن القراءة ولكن يقول فى صراحة إن عمره الذى ضاع فيها لايرد، وقد فقده فيما لم يعد عليه بجدوى. والمازني قارئٌ قديم ورأيه يؤبه له، وإذا أنا داومت قراءته فقد يغريني بهجر القراءة وهيهات لى أن أتخلص منها وهى عندى كالغذاء فلأترك المازني يحمل صندوق الدنيا على ظهره عله يجد غـــيرى يتأثر بآرائه ويعمل بها أو لعله يجد أديبا كصديقى محمد عشرى يغربله كما يغربل الناس ويتعرض إلى آرائه بالنقد والتشذيب ولأول وجهى شطر الغرب عسى أن أجد سلوة وعزاء.

وها أنذا أتناول موجز الأدب لـ«جون درنكوتر» فأبدأ بـ«هوميروس» و«أرستفانيس» وغيرهما من شعراء الإغريق واعرج على «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» فأجد نوعا من الفكر ألفه العرب في عهد خلفاء بنى العباس ولكنى لا أظن قراء اليوم يألفون ذلك الضرب من عقلية اليونان المشبعة بالخيال المغربة فى البحث والإستقصاء، فأطوى القرون إلى أن أصل الى «شكسبير» و«ملتن» ثم الى «جونسون» وشعراء وأدباء العصر الفكتورى فأقرأ الذكرى لـ« تنسون » تلك القصيدة التى يرثي بها رفيق صباه « آرثر هلم » فأستمع الى فلسفة الموت والحياة ، الحياة البشرية فى جميع أطوارها والوانها ، وأسمع بين أبياته رنين الأجراس وهو يتحدث عن أجراس الكنيسة فأعجب لذلك الوحى ولتلك الصناعة ، الوحى الذى يأتي باروع المعاني وأسطع الآيات والصناعة التى تلبس كل فكرة الثوب الذى يليق بها، وإني لأقول لنفسى أين شعراؤنا من هذا كله ؟

ولاترك «هازلت» لأستمع الى «آرثر خرستوفر بنسن» يحدثنى « من نافذة الكلية » و«بنسن» لايقل عن «هازلت» فى تنوعه وسهولته فهو يحدثنى عن وجهة النظر وعن الفن وعن الكتب وعن التأليف وعن التحدث وعن الدين وعن التعليم وعن كـــرة القدم وهو لايلوى على شيء ليعقد عليه بالخناصر ولكنه لايعجبه رأى ولايؤمن بمذهب قديم أو جديد. فهو إذا حدثك عن الجمال قال إن رأى الناس فى الجمال خاطىء لأنه تبعى فكل من سمع من غيره ان هذا الوجه جميل أو ان ذلك المنظر الطبيعى فاتن نقل ذلك لسواه وهكذا يصدرون جميعهم عن رأى لايستطيعون تأييده اذا طلب اليهم ذلك ، فالناس عنده ببغاوات تنطق عن الهوى. وإذا تحدث عن النقد قال هو سهل يستطيع ان يردده كل دعى وهو لايضيف الى خزانة العرفان بقدر ما يسلبها ولاخير فيه إلا للأديب الناشىء، الذى يريد أن يعرف القوى من الضعيف من الآراء، ويود أن يتعلم الغربلة فى منتجات غيره حتى

يستطيع نقد نتاجه الأدبي . وإذا تحدث عن الأدب قال هو خير مسلاة وأرخصها لأنها لاتكلف كثيراً، ولأن الأدب إذا اتخذ حرفة لكسب القوت فسد وجاء بالنفايات وان الموظف مهما ضاق وقته فهو يجـد من الفراغ مايخلو فيـه للكتب يجالسها ويرضع من أفاويقها،وسيغريه حب الأخذ والعطاء ان يكتب ليفصح عما تكنه نفسه من عواطف ومايجول فى رأسه من آراء وتخيلات ، وبذلك يعمل على حفظ النوع . وكذلك «بنسن» كسابقيه لا أجد عنده حلا لحيرتي فأستخير الله وأرجع تلك الكتب واحداً واحداً الى مكانها بين أخواتها وأظل ساهما فى سقف حجرتي ، والشتاء يلهبنى برده ، مفكراً فى هذه الحالة النفسية التى تعتريني فتجعلنى لا أطمئن الى شيء ، فكل موضوع طرقته أعجزني لأنه إن أرضاني لايرضى الناس وإن أرضى بعض الناس لايرضى ضميرى . وكل كتاب لجأت اليه زادني فى حيرتي لأني أرى الكتاب والأدباء أحراراً فيما يقولون، يلتزمون الصدق وان أكسبهم الويل والدمار وعدم الشهرة . وهكذا إستسلمت لحيرتي وأطفأت سراجي وأغمضت عيني لأنام نوما غير هادىء لأن تلك الأفكار ستطوف بمخيلتي وتقض سباتي .

ولما أن أقبل الصباح نهضت من نومى وقمت بما على من واجبات وفروض وركبت الترام واستعرضت فيه بعض الوجوه التى رسمت صورها ولا أقوى على نشرها وشاهدت بعض الصحاب الذين يحار المرء إذا حاول إرضاءهم وبعض الصحاب الذين يقرأون على الدوام ولايكتبون سطراً، وقلت لعل عذرهم إنهم فى حيرة كحيرتي هذه لايجدون مايكتبون عنه . وما كدت أصل مكان عملى إلا وبدأ « عرفات » رئيس تحرير الفجر يسألنى فى التلفون عن مقالى الذى أعددته لهذا العدد فقصصت عليه ماقصصت على القراء فقال لى « وأى موضوع أجدر بالمعالجة من حيرة الأديب فى هذا البلد » وراقنى منه هذا الإقتراح فمضيت لحينى أكتب هذه السطور ومابعدها .

وعندى أن هذه الحيرة إذا طالت وشملت أدباءنا فسوف يقفون جميعهم مكتوفى الأيدى مغلولى الأرجل مقطوعى الألسن ولابد لها من علاج . وعلاج ذلك عندى أن يكون الأدباء مخلصين فيما يقولون جريئين لايخافون الجمهور ولا الأفراد ولايخشون الحكومة ورقيبها، وأن يروض الجمهور والأفراد أنفسهم على تذوق جميع فنون الأدب والوانه وأن يقبلوا على منتجات الكتاب والشعراء بروح خالية من الضغينة وأن ينظروا اليها نظرة نزيهة طلباً للإستفادة ولايكون كبير همهم الهدم والتقويض . أما أنا فلن تطول حيرتي فقد وصلت الى حل معقول وهو أن أنزع كل القيود وأحطم الأغلال وأن أعمل

كما يملى على ضميرى لا كما يملى على الناس . وسأكتب فى الأدب وفى الناس وسأنقد من يرضي ومن لايرضى لأنه كما قال الدكتور طه حسين « يجب أن تفرق بين فنك الباقى وشخصك الفاني » وعلى هذا سيكون اليوم آخر عهدى بالحيرة شفى الله غيرى من شرورها وحمى البلد مما تسببه من عقم .

٢٩

الوطنية والدولية (١)

وأين نحن منهما

فى جماعة أدبية مؤلفة من رهط من الأصدقاء تساجل إثنان من أصدقائي، وكان موضوع مساجلتهما طريفاً جديراً بالإعتبار والإستماع اليه، ألا وهو « أيهما أجدى الوطنية أم الدولية » ولقد أثار الموضوع فضولى وكدت أتطفل على تلك الجماعة التى لم يكن لى شرف الإنضواء تحت لوائها لأسمع مايقول الصديقان لا لأشاركهما البحث لأنه بلاشك لم يكن ذلك من حقى . ولكن الظروف كانت قاسية لم تمكنى حتى من الحضور ولم تقيض لى أن أستمع إلى حديث قد كنت أحمده . وأخيراً رضيت من الغنيمة بالإياب وقلت فى نفسى ولماذا لا أثير الموضوع على صفحات الفجر عل الصديقين ينزلان الى الميدان ويخرجان من صمت عميق كاد يحسب موتا، ولأن شعار تلك الجماعة أن تقرأ دون أن تكتب فيستفيد جمهور القراء بثمرات إطلاع أفرادها الواسع المنظم . وبهذا سأغتصب منهما زبدة ماقالاه فى مساجلتهما وسأخرجهما من صمتهما وأربح لقراء الفجر أديبين جديدين وسأبرهن على أن تلك الجماعة فى مقدورها أن تكتب كما أنه فى مقدورها أن تقرأ . ولعلى أستفز بذلك صديقاً لى ما أجتمعت به إلا وجرفنا حديثه إلى الدولية التى يؤمن بها ويبشر لها ويؤيدها فى حماس دونه حماس الرهبان والراهبات، وان فشلت فى استدراج الصديقين الأولين والصديق الثالث الى الكتابة فحسبى أن أبسط للقراء رأيى فى موضوع يكون الشغل الشاغل للأدباء والسياسيين فى أوربا ولايمر شهر أو شهران دون أن يصدر كتاب فى الموضوع أو مايمت اليه بسبب .

الوطنية والدولية خطوتان أو مظهران من مظاهر التطور البشرى تسبق أولاهما الثانية لأن الكتلة البشرية فى تطور مطرد من حيث نظام الجماعة، بدأ من البسيط الى

---

(١) نشرت بمجلة الفجر — المجلد الأول — العدد الخامس عشر — فى ١ يناير ١٩٣٥ .

المركب، ومن السهل الى الصعب، ولقد حققت السنون والقرون ما كان يعد من قبل حلماً. واذا كانت الدولية اليوم حلم الشعوب المتمدنة فسوف تحققها الأيام وسوف تزول الصعاب التى تعترض سبيلها إذا غير الناس ما بنفوسهم من حب السيادة والمطامع الذاتية وأصبح فى مقدورهم أن ينظروا نظرة إنسانية خالصة من الأغراض لاترمى إلا لإسعاد الإنسانية جمعاء وجعلها كتلة واحدة متساوية الحقوق والواجبات. والوطنية هى الخطوة التى تسبق الدولية فى سلم التطور البشرى ومعناها إتحاد الأفراد الذين يعيشون فى صعيد واحد ويتمتعون بالمساواة فى حدود القانون الذى تقره الجماعة ويصدر عنها، ويعملون كيد واحدة لإسعاد مجتمعهم ويضحون فى سبيله بمصالحهم الذاتية وذلك بعد أن ينقرض نظام القبيلة والأقليات الدينية وغير الدينية فينظروا إلى بعضهم البعض نظرة الشقيق إلى الشقيق ينقذه إذا زلت به القدم ويرشده اذا ضل السبيل. والأمة لاتطمع فى الإنضمام إلى سلك الدولية - إذا تحقق ذلك النظام - إلا بعد أن تكون وطنيتها ويكون لها شعورها القومى الذى يمكنها من الإنتاج والمساهمة فى خير الإنسانية العام.

والإنسان الذى بدأ حياة فردية كالوحوش يأوى الى الأشجار ثم الكهوف ولاينظر الى أخيه الإنسان إلا نظرة العدو وتدرج به الزمن فتآلف مع أفراد أسرته وربطه معهم مافى دخيلته من شعور خفى يحركه للا لفة والإتحاد مع الصق الناس به وذلك لشعوره بالحاجة الى التعاون ومقاسمة الأعمال، ثم إتسعت دائرة تفكيره فأنتظم فى الجماعة التى يعيش معها فى صعيد واحد وجعل يبادلها المنفعة ويشترك معها فى أفراحها وأتراحها ويتقايض مع الأفراد ويقرض ويقترض، ثم شعر بتأسيس القرية والتآزر مع أفرادها والعمل لإسعادها ورد الغارات عنها والدفاع عن حقوقها، ودرج مع الزمن إلى أن إتسع نظام القرية الى المدينة فالمقاطعة فالقطر بأجمعه، وغدت تنظر فى شئونه دولة مستقلة فى بعض الأمم ودولة مستعمرة كما هى الحال عندنا؛ خليق ذلك الإنسان أن يفكر فى جعل العالم أمة واحدة متبادلة المنافع متساوية الحقوق والواجبات. ولكن هل من سبيل للتغلب على الصعاب التى تعترض سبيله؟

لما كان الإنسان محصور المطالب متواضعها كان فى إمكانه أن يستغنى عن جاره فيطهى طعامه ويحوك ملابسه ويبنى داره بنفسه وكان فى وسعه أن يعيش فى معزل عن الناس ولكن التقدم المطرد وتعدد حاجيات الإنسان وتلونها وكمالياته المتزايدة صباح مساء جعل من العسير أن يجلس الإنجليزى فى إنجلترا مثلا لطعام الغذاء دون أن يكون فى مائدته

صنف، من كندا وآخر من استراليا . والملابس التى يرتديها يستورد قطنها من الهند ومصر والسودان وصوفها من كندا والولايات المتحدة واستراليا وهكذا الحال فى أجزاء العالم الأخرى . لذلك أصبح من المحتم أن يقوم نظام تجارى إقتصادى على أساس تبادل المنافع فى أنحاء المعمورة ولهذا كان الإقتصاد والتجارة والمواصلات والبريد المظهر الأول للإتحاد الدولى على الرغم من الأمم المستعمرة التى تسيطر على الشعوب المتأخرة لتسعدها بقدر ما تأخذ من موادها الخامة ومواردها الطبيعية وعلى الرغم من قيود الجنس واللون واللغة والحوائل الجمركية. وبدأت رؤوس الأموال الأمريكية تستغل فى إنكلترا وفرنسا وغيرهما وبالعكس، وساد تفاهم فى نظام البنوك والشركات المساهمة ــ ولو أن ذلك لايخلو من الفائدة الشخصية التى يربحها أصحاب رؤوس الأموال والأسهم فى الشركات وقد يكون ذلك الدافع الأول ــ ولكن الإنسانية على كل حال تجنى ثمار تلك الجهود غير مصبوغة بالجنسية ولايحدها وطن ولادين ولالغة .

وإذا ما انقضى دور الإقتصاد والتجارة وإنتقلنا الى عالم الفكر والثقافة وجدنا العالم محتاج حاضره إلى الماضى ومحتاج أقصاه الى أدناه ورأينا تبادلاً فى المعرفة وإتحاداً فى البحث والمقاصد ورأينا إتجاهاً محموداً نحو جعل الثروة الفكرية تراثا لكل الأجيال والأمم فالعلماء فى ألمانيا مثلا يعلنون عن نظرياتهم ويشرحونها ويبينون دقائقها ليستفيد منها غيرهم من العلماء فى الأمم الأخرى وليواصلوا البحث معهم ليصلوا بذلك إلى مالايتسنى لهم الوصول اليه بمفردهم . وكذلك الفنانون الذين تعرض صورهم فى مختلف معارض الدنيا وتنقد ويحتذى مثالهم، ويجدون من التقدير والعطف فى البلاد الأخرى مثل مايجدونه فى بلادهم وفى بعض الأحيان فوق مايجدونه من مواطنيهم . وكذلك الشعراء والكتاب لهم نصيبهم من الذيوع العالمى. فالقصص الروسى والرواية النرويجية والشعر الإنكليزى والفلسفة الألمانية وروحانيات الهند يقرأها شاب فى مصر ويتذوقها ويقرأها شاب فى السودان ويتذوقها على بعد الشقة وإختلاف الأمزجة وتباين الأفكار ، وذلك ناتج عن رغبة الإنسان الملحة ليعرف مايجهله ونزوعه إلى الإتصال الفكرى مع الأمم الأخرى ومصاهرة الآراء وتوالدها، ولاتستطيع أية قوة فى الأرض أن تقف فى سبيل ذلك التيار. وحتى التعليم بدأ يأخذ شكلاً واحداً فى جميع دول الأرض على الرغم من الأغراض الإستعمارية التى لاتبيح للشعوب الناشئة والتى تحت الرعاية ــ سواء عن طريق إنتداب أم الاستعمار الدكتاتورى ــ أن تأخذ حظاً وافراً من التعليم. والسبب فى إتجاه نظم التعليم فى طريق واحد راجع الى توحد المعرفة الإنسانية ومالها من الصبغة العالمية، غير أن المستعمرين

لهم حجتهم فى تضييق نطاق التعليم فى الأمم المتأخرة التى يقومون عليها مقام الوطنى وذلك أنهم يخشون علينا من التخمة ولهذا يأخذون بيدنا رويداً رويداً خوف الطفرة. ولكن هذا التصرف سيقف حجر عثرة فى سبيل الدولية ويقعد بالإنسانية عن مثلها الأعلى ، لأن هذه الأمم المحكومة لاينقصها من الرقى سوى المعرفة فإذا تيسرت لها سبل التعليم وأعطيت أوفر حظ منه بدأت تفهم مافهمته الأمم التى سبقتها فى مضمار الرقى وستعمل بلا شك للوصول الى ماترمى اليه تلك الأمم من تعاون وإتحاد .

وانه ليبدو من السهل ، بعد هذه النظرة الخاطفة الى سهولة الإتحاد الدولى وتبادل النفع فى ميدان التجارة والإقتصاد وميدان الفكر والثقافة ، أن يصل العالم فى القريب العاجل إلى إتحاد دولى أكيد، وستصبح الإنسانية أسرة واحدة، ولكن هنالك نواح متعقدة يصعب الإنتصار فيها ، وهى التى يتوقف عليها نظام الدولية ولن يتحقق إلا إذا ذللت صعوباتها . وأهم تلك النواحى العلاقات السياسية بين الدول القوية ذات السطوة والدول الضعيفة المحكومة من جهة، ومن جهة أخرى بين الدول القوية بعضها مع بعض ومايقوم من المطامع والشهوات،وما ينتج عن ذلك من الخلاف،وما يشب من الحروب التى تدمر لمدنية وتقضى على ماوصلت اليه الإنسانية من تفاهم وتعاون . فإذا قام تفاهم بين الدول القوية وبين الأمم المغلوبة على أمرها وعمل ذلك التفاهم على إزالة الصعاب القائمة الآن فسوف تتحقق الدولية وتعم العالم ، ولكن هل الواقع المشاهد يعطى برهانا على تحقيق ذلك الحلم الجميل ؟ .

ان الحرب العظمى التى نشبت بين دول أوربا واستمرت أربعة أعوام تحصد الناس حصداً ، وعطلت دولاب العمل وإرتفعت فيها أسعار الحاجيات الضرورية وإنتشرت المجاعات وقضت على كثير من الأرواح ، ووقف فيها سير العلوم والفنون إلى حد ما ، إلا ما كان فى ذاته أداة لإستعار نار الحرب كالمستحدثات الكيمائية التى كانت تسمم الجو وتقبض الأنفاس،ان تلك الحرب خففت كثيراً من غلواء الشعوب وخلقت جواً لحسن التفاهم، كانت نتيجته تأسيس عصبة الأمم التى تعمل للتعاون الدولى بمقتضى معاهدة وتمثل نحو الخمسين أمة . وعصبة الأمم تقوم على أساس المساواة بين الدول ولكن هذا فرض نظرى لم يتحقق، ولهـــذا لاتزال الدول القوية تسيطر على تلك العصبة وتسيرها فى الطريق الذى تريده وإلا لإنقضى الإستعمار وحل مكانه الإنتداب ولكان الإنتداب قصير المدى يعمل على رغبة الشعوب المحكومة ويساعدها لتنفذ أغراضها وتصل الى

الخطوة الأولى التى تؤهلها إلى الإنضمام فى سلك الدولية . هذا وعصبة الأمم لم توفق بعد الى تعميم السلام وضمانه فى المستقبل، حيث لم يفلح مؤتمر نزع السلاح وذلك لأن كل دولة تتقدم الى الميدان تطلب الى رصيفاتها تخفيف قوة سلاحها ولو كانت الدولة صاحبة الإقتراح تبدأ بنفسها لضربت بذلك مثلا يحتذى. وفشل مؤتمر نزع السلاح فى ذاته دليل على أن المطامع لم تنقشع وأن الدول لاتزال تتحفز للحرب والدمار وللإستيلاء على الشعوب الضعيفة وتسخيرها وإبتزاز أموالها ومواردها الطبيعية ودليل قاطع على أن نظام الدولية لن يحقق بعد حين .

وهذا التذمر من جانب الشعوب المغلوبة على أمرها والمشرئبة لأن تنال إستقلالها دليل آخر على أن الدولية لن تحقق حتى تمنح تلك الشعوب حريتها ومنها من رزح تحت نير الإستعمار قرونا أو بعض قرن وهو جاد ليتقدم ويبرهن لذلك الوطنى المتبرع أنه بلغ سن الرشد، وأنه جدير أن يحكم نفسه بنفسه، ولكن الوطنى المتبرع لايقتنع بذلك ويصر على أن الشعب لايزال قاصراً وفى حاجة الى الرعاية . وهذا التبلد من الشعوب المحكومة وعدم جدارتها لنيل إستقلالها إن دل على شىء فإنما هو دليل قاطع على أن الدول التى بيدها الوصاية لاتحسنها ولاتعمل حقا لرفع مستوى تلك الشعوب وأن بقاءها وعدمه سيان .

وشىء آخر لابد من ذكره وهو التفرقة الجنسية وتضارب الألوان الذى نراه متفشيا فى جميع الأوساط . فالرجل الأبيض لاينظر إلى شعوب آسيا وأفريقيا نظرة الإنسان إلى الإنسان وأقرب مثل نضربه لذلك ماحدث فى جامعة «أكسفورد» حيث انتخب الشاب الهندى « مستر كراكا » رئيسا « لإتحاد أكسفورد » عن جدارة وكفاءة فاستغربت صحف المحافظين هذا الإنتخاب وعجبت لهندى ينال ثقة جميع الطلبة ويرتفع لهذا المقام السامى .

وهنالك بعض جهود إختيارية لتحقيق السلام العالمى والإتصال بين الشعوب وتعميم المساواة بين الأفراد، فما الإشتراكية القائمة فى روسيا والمانيا وبعض فرنسا وجمعيات العمال فى إنجلترا والفاشستية فى إيطاليا سوى مراكز تجريبية لتحقيق نظام الدولية ولو كان هنالك إتصال حثيث بين تلك الجماعات لنتج عن ذلك الإتصال إتحاد دولى بسيط يكون بلا شك مقدمة للإتحاد الدولى العام. وعندى أن تلك الجماعات الإختيارية تؤدى مهمتها أكثر من عصبة الأمم التى تخضع — كما قلنا — لسلطان الدول ذات السطوة والجبروت .

من جميع ماتقدم نرى أن الدولية لن يحقق نظامها إلا إذا زالت المطامع ونزع السلاح وبطلت الحرب وعم السلام والأمن والحرية ورفع نير الإستعمار ومشت الشعوب

كتفا لكتف لافرق بين الأبيض والأسمر والأسود، وذلك يوم جميل سعيد تبلغ فيه الإنسانية قمتها . وأما نحن فلنفكر الآن في الخطوة التى قبل هذه لأن بلادنا لم تبلغها بعد وسبيلنا اليها سيكون شائكا وعرا وأمامنا من الصعاب ما يتطلب جهود الأفراد والجماعات وعليه فلنبدأ بتعبيد الطريق ووضع الأساس . ولنقض على القبلية المنتشرة حتى بين طبقات المتعلمين ولنمهد لحياتنا الإقتصادية، فإن بلادنا فقيرة، ولنطالب الحكومة لتعطينا المكانة الثانية في الدوائر الحكومية، وتنقل نظام الإدارة الأهلية الى أيدى الشباب المثقف المتعلم ، وتزيد نطاق التعليم لأنه كما قلنا، كل ما ينقص الشعوب المحكومة المعرفة، فإذا توفرت هذه المعرفة وفتحت سبلها وأعطينا من التعليم العالى ما يفتق أذهاننا ويهذب نفوسنا فلن يكون هنالك فرق بين الأوربي والأفريقي، وستسود المساواة بيننا وسنعمل معهم لخير الإنسانية العام . وآخر ما أختم به هذا المقال أن أطلب إلى الشباب السوداني قبل الكهول والشيوخ ثم أطلب الى الكهول والشيوخ أن يوجهوا جهودهم أجمعين إلى خلق شعور قومى ينتظم البلاد حتى تصبح وطناً محفوظ الكرامة مرموق المكانة، ونعمل بدورنا الى تحقيق حلم الإنسانية، أعنى الدولية التى تمثل قمة الرقى البشرى وذروة النظام الإجتماعى والتى ستقضى على كل المشاكل القائمة وتقضى على الإستعمار وتكفل تقدم العلوم والفنون والآداب .

٣٠

الجمال في حياتنا (١)

كنا أربعة من الرفاق ، نشأنا فى حى واحد وقضينا بعضاً من دراستنا الإبتدائية وكل دراستنا الثانوية فى مكان واحد، وكان يربط بيننا ميل غريزى لتذوق براعات الادباء والفنانين . ثم ذهب بعضنا الى دراسة الطب والبعض الآخر إتصل بالسلك الحكومى ، وكانت الظروف حسنة حيث كنا جميعنا بالخرطوم، ثم ضربت الأيام بيننا فافترقنا على أحسن مايفترق الرفاق المخلصون ، وإذا بالأيام تدور دورتها ونلتقى جميعنا مرة واحدة فى صعيد واحد وبدأنا نتلمس الحياة من جديد والتفتنا إلى الوراء فإذا كل ما ألفنا أو جله قد درس،واذا الحياة الجميلة التى كنا نقطعها وننهبها قد شحب لونها،وإذا بنا نبحث عن السرور فى دار السينما أو على سطح « بار بريطانيا العظمى » حيث نمتع النظر بحركات الراقصين والراقصات ونتبادل الآراء فى حسن هذه وإنسجام فستان تلك وفى رشاقة الفتاة الذهبية الشعر ذات الثوب الأخضر ،وبين هذا وذاك يحتسى بعضنا الوسكى والبعض الآخر ينعم بشراب عصير البرتقال وكل يجد فى مشروبه لذة لاتعادلها لذة . وفى دار السينما لاينقطع حديثنا عن الإخراج وبراعة التمثيل وخفة هذه الممثلة ورزانة تلك، ونعجب لهذه الحياة الغربية الصاخبة المرحة الداعرة،وكان أحدنا لايلتفت الى تلك الملاحظات إلا قليلا، وذلك لأنه يستوعب الشريط بحركته ولفظه ليعسكه على شاشة« الفجر» البيضاء. وهكذا قطعنا أيامنا ولياليناً نجد الجمال حيث لايجده الآخرون، ونصفى السرور من بين أدران الحياة وعبوسها . ولكننا ما اجتمعنا إلا لنفترق وإذا بي وحيد فقد قضت ظروف العمل ان يشرق هذا وأن يغرب ذاك .

سافروا جميعهم وبقيت أنا ، فكتب إلى أحدهم من مدني يسألنى أن أغشى دار

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الاول – العدد السادس عشر – فى ١فبراير ١٩٣٥

السينما وأن أمر بتلك الأماكن التى كنا نرتادها سويا فى ليلة عيد الميلاد نشهد القوم فى مرحهم وتبذلهم ونرقب حركاتهم ونحسدهم على تقديرهم للحياة وعلى سرورهم المتصل أو قدرتهم على إظهار السرور، فقد تغلى الصدور وتصطهر النفوس بالألم ويبدو السرور على الوجوه حتى لايشعر الآخرون بإنقباض مثل أحدهم منقبض حزين، ولكنى لم اشأ أن أشهد ليلة الميلاد منفرداً، فكتبت لصاحبى عن فلوها، حيث رأيت فى صبيحتها آثار الزينات فى «بارانطونيادس» وعلمت ان القوم قضوا ليلتهم فى رقص وقصف ولعب برئ وعلمت ان سطح الدار ماج بالفتيات وشهد من جمالات الخرطوم مالايتسنى إجتماعه فى ليلة واحدة، وعلمت انه كان معرضاً للحسن وللأناقة، وأسفت لأني لم أكن بين الحضور لأمتع النظر وأبل الشوق ولأصعد بنفسى فوق دنيا الكتب والمكتب، ولأشرب كأساً من عصير البرتقال على ذكرى الرفاق ولأنقل اليهم فى رسالة ما فاتهم التمتع به. وعلمت من إعلانات دار السينما انهم عرضوا فى ليلة الميلاد «أمور فولتير» وعلمت ممن شهدها انها كانت رواية عظيمة، فأسفت مرة واحدة وقلت فى نفسى لن اضيع فرصة بعد اليوم لأنه حرام أن يحرم البعد رفاقى من هذا النعيم وأن احرم أنا بعد فراقهم هذا السرور الذى كنا نتقاسمه، وكان أن أعلنوا وتفضلوا فى الإعلان عن «جرتا جاربو» فى دور الملكة «كرستينا» وكان ذلك فى أيام عيد الفطر فذهبت كعهدى وتخيرت مكاني ولكنى إفتقدت صحابي القدماء وكان الى شمالى رجل يدمن التدخين، فهو لايكاد يخرج سيجارة الزنوبية من فمه، وأنا لا أدخن ولا أطمئن الى رائحة الدخان، وقيود اللياقة لاتسمح لى أن اطلب إلى من لا أعرفه أن يكف عن شيء قد تكون فيه راحته وحبوره.

رأيت «جاربو» فى أبرع أدوارها وأزهى مواقفها، وكان حديثها ساحراً جذاباً وكان جمالها فاتنا أخاذاً، فبينما كانت تبدو غلامية عليها سيماء الفرسان مفتنة بركوب الجياد كنت تراها إمرأة مليئة بالأنوثة، مغرية، أنانية تريد أن تحيا لنفسها وأن تشبع عواطفها، تتنازل عن العرش وتخلع التاج الذى كان يزين مفرقها لتظفر بالرجل الذى أحبته وترتمى الى أحضانه وترضى أن تفارق وطنها وأن تترك ملكها لأنها فى قبلة واحدة التقت فيها شفتاها بشفتى حبيبها عرفت قيمة الحياة. رأيت «جاربو» فى رواية يديرها فتى الشرق «ماموليان» وهذا منتهى الجمال والفن، ولكنى لم أجد تلك النشوة التى كنت أجدها من قبل. عيناى تبصران وأذناى تسمعان، أبصرت جمالاً وسمعت صوتاً عذباً شجياً ولكنى لم أحس بالجمال يشيع فى نفسى تياره ولابالنغم العذب تتجاوب فى نفسى أصداؤه وخرجت

كما دخلت مكتئبا يزيد إلى إبتئاسى ذلك الجار الذى كاد يخنق أنفاسى دخان لفافته .

وكتب إلى الصديق الآخر من الدويم مسقط رأسى التى أحن إلى شاطئها الفريد الذى شاءت الطبيعة أن تحشد فيه حسنها ونماذجها حتى كأنه بقعة مثالية نادرة الوجود. ففى القسم الشمالى ثوب سندسى أخضر طوال أيام السنة تتجاوب فيه أصوات النواعير وتتنقل العصافير والقمارى من فنن إلى فنن ، وتأبى إلا أن ترافق «السواقى» فى موسيقاها . وفى القسم الجنوبي تلال رملية ناصعة البياض وغابات من السنط غزيرة ملتفة . كتب إلى الصديق ، وكان هذا أول عهده بالدويم ، يشكو الحال وينكر علىّ كيف كنت أقول الشعر عن شاطئها وقمرها ويعجب بشيطاني أين كان يجد ذلك الجمال الذى يغريه بالشعر . فعجبت لأمره ، وقلت مالصاحبى ينكر الحسن وعهدى به يقدر الجمال الطبيعى وينشرح صدره لضوء القمر الفضى والقمر أحسن ما يكون بهاء وأسطع ما يكون ضوءا وصفاء فى الدويم . عجبت من صاحبى ولكن سرعان ما تلاشى عجبى لأن تقدير الجمال لايقوم فى الغالب على مقاييس ثابتة ولا ذوق عام ، إنما هو وليد حالات نفسية وأجواء خاصة تحيط بالمرء ، فقد يحمد فى غده ويطمئن إلى ما أنكره اليوم . وقد يسخط على ما كان بالأمس يرتاح اليه ويجد فيه جمالاً مابعده من جمال . فكما أنكرت أنا حسن « جاربو » وفنها فى تلك الليلة ، أنكر صاحبى جمال الدويم وبهجتها ودعاني هذا التناقض الظاهر فى إحساسنا بالجمال وتقديرنا له أن أكتب عن « الجمال فى حياتنا »

° ° °

ليس فى الوجود فرد لايحس الجمال فى أحد اوضاعه ويقدره ، ولكن درجات الإحساس والتقدير تختلف بحسب الأفراد ونظام حياتهم ودرجة ثقافتهم وما يحيط بهم من مناظر الطبيعة وإبداع الإنسان فى العمارة والفنون والآداب وحسب حاجاتهم ومقدار فهمهم للغرض الأساسى من الوجود . فالشعوب المتأخرة لاتنظر الى الجمال إلا عن طريق العاطفة التناسلية ، وقليل ما يلفتها حسنه من مناظر الطبيعة ونماذج العمارة ، وذلك لفقدانها الحاسة التى تدرك ذلك النوع من الجمال ولاشتغالها بضروريات الحياة وتكاليف العيش عن الإلتفات إلى بدائع الخالق . وكلما تقدمت الشعوب وتوافر لديها المال وتقدم فيها سير الفنون والآداب كان إحساسها بالجمال أعمق وتقديرها له أوسع وغدت تتطلب من الجمال مافوق المستطاع ، وعكف أفرادها على نصب المثل العليا فى صورهم وأشعارهم وموسيقاهم لتجد الأمة فى عالم المعنى والخيال مالايتيسر وجوده فى عالم المحسوس . ومن

هذا كان تقدم الفنون والآداب رهينا بفهم الناس لمقاييس الجمال للتمتع به والإلتفات الى بدائعه، وكان من المقرر فى الامم المتمدينة أن تعنى بتوفر عناصر الجمال لأطفالها ورجالها حتى يشبوا وعندهم حاسة دقيقة لإدراك الجمال وتقديره فى الناس والطبيعة ونتاج الفنانين والشعراء، فى أنغام الموسيقى وإنسياق المعنى وإبداع اللفظ وإحكامه، وفي بساطة النثر وفخامة الشعر وفى الصور المشبعة بالخيال التى تزينها الظلال والألوان، وفى النحت والعمارة التى تتوفر فيها الراحة والقوة والمظهر إلى غير ذلك من ضروب الجمال وأوضاعه وقوالبه التى ينصب فيها. وكما ان الحياة بما فيها من الجمال تزيد إلى خيراتها وتحبب الناس فى قطع مرحلتها ، كذلك الناس عندما يضيقون بالحياة وينضب معين جمالها فى أعينهم يخلقون من عناصر الجمال مايضيفونه إلى الحياة ويصبح منها فيغريهم بالحياة ويدفعهم الى السير فى سبيلها الشائك الذى لاينتهى إلى حد ولكنه لايخلو من مباهج الجمال الفينة بعد الفينة.

وتقدير الجمال وليد العين والعقل والعاطفة، فإذا أبصرت العين وتدبر العقل ورضيت العاطفة أحسسنا بالجمال يغمرنا ووجدنا فى أدق مظاهر الطبيعة جمالاً لايجده من إختل ميزانه فى أفخم مظاهر الطبيعة . وإذا أبصرت العين وتدبر العقل ولم ترض العاطفة قل إحساسنا بالجمال، وقد لانلتفت اليه، وإذا إنشغل العقل فإن العين والعاطفة وحدهما لايتم تقديرهما للجمال، أما إذا زاغت العين فلا جمال ولاتقدير، لأن العين دليل العقل والعاطفة وهى مدخل كل جمال أو قبح إلى النفس إلا عند العميان فإن الأذن تقوم عندهم مقام العين. وإتحاد هذه الثلاث فيه كمال الإحساس بالجمال وتقديره، فإذا رأيت أمراً لايشاركك فى الإحساس بجمال ما وتقديره فأعلم ان عينه وعقله وعاطفته ليست على وفاق فى تلك اللحظة، ولعل فى هذا الأمر سر إختلاف الناس فى حكمهم على الجمال، وليس الذوق لأن الذوق يتهذب وينحط حسب حظ المرء من الثقافة وحسب مايحيط به . على أن الإحساس بالجمال وتقديره يحتاجان الى مران مثل كل شىء زيادة على الملكة الطبيعية التى يفطر المرء عليها ، فإن من يعتاد الذهاب إلى الرياض والحديث الى البلابل ومناجاة الزهور ويروض نفسه علـى إستيعاب الحسن والإستمتاع به تتربي فيـه ملكة تقـدير الجمال الطبيعى أكثر ممن يعيش فى القفر ، كما ان من يداوم النظر الى صور كبار الفنانين ويتعرفها ويرى مافيها من كمال ونقص ويعنى بجمعها يصبح أكثر تقديراً لجمال التصوير من الذى لاينظر إلى الصور ولم يألف مافيها من جمال . وكذلك جمال الموسيقى والشعر وسائر أنواع

الأدب يحتاج إلى عين فاحصة واذن مرهفة وعقل حاضر إعتاد صاحبها سماع الموسيقى والتدبر فى معاني الشعراء والكتاب يساعده على ذلك طبعه الفطرى .

الى عهد قريب كان الناس عندنا لاينظرون الى الجمال إلا فى وجوه الملاح أو الجياد وقل من ينظر الى صفاء السماء وزرقتها والى إكتمال البدر وضيائه أو الى خمائل الزهر وتغريد الطير أو الى إنسياب الجدول، وليس هنالك من يهرع الى سماع الموسيقى وإدراك مافيها من سحر وجمال أو يبحث عن الجمال فى الصور والشعر والنثر الفنى البارع ، وذلك لأننا كنا على فطرتنا ولم تتفتق أذهاننا ولم ترتق أحلامنا . ولكننا اليوم وقد بدأ التعليم ينشر لواءه بين ربوعنا، وبدأ الأفراد يزيدون إلى ثروتهم الفكرية ، وبدأنا نحس فقدان الجمال فى حياتنا وعدم التفاتنا الى النزر اليسير منه ، تعددت جهودنا وجعلنا نبحث عن الجمال فى المرأة السودانية وغير السودانية وفى الصور والسينما والكتب وبعد قليل ستتهذب اذواقنا وأذواق أبنائنا وسنبدأ بتوفير مواطن الجمال فى حياتنا حتى تبدو الحياة لاعيننا غالية عزيزة وحتى نشعر بأننا نعمل لننتج فناً جميلاً وأدباً رفيعاً .

إن علاقة الجمال بالحياة كعلاقة الماء والنور والطعام ، فإذا كان الماء يروى ظمأنا والنور يضيء طريقنا والطعام يغذى أجسامنا فكذلك الجمال يبل غلتنا من عناء الحياة وتكاليفها ويضيء نفوسنا لتنظر إلى الوجود نظرة خالية من المادية ، ويغذى عواطفنا ويلهبها ويغرينا بالإنتاج والزيادة إلى عناصر الحياة ، ولهذا كان من واجبنا أن نعنى بالجمال وأن نجلب ماليس عندنا منه وأن نروض أنفسنا على تذوقه والإحساس به وتقديره وأن ننشيء أبناءنا على حب الجمال والتعلق بمثله العليا ، وعندى ان الشعور بالجمال والسعى فى سبيله مما يؤدى الى ترقيتنا ، ونحن إذا شعرنا بالجمال فإنما نشعر بالحياة وحقنا فيها وإذا شعرنا بالحياة وحقنا فيها قمنا بواجباتنا على أتمها وطالبنا بما نفقده من حقوق وعرفنا معنى الحرية وطمعنا فيها . وإن أمة لاتدرك الجمال ولاتفتن به ليست جديرة بالحياة . وحسبى أن أدعو الناس عندنا إلى نشدان الجمال وتذوقه فى الناس والعمارة والفنون والآداب حتى يقضوا بذلك على مايحيط بحياتهم من سآمة وملل وما ينتج عن تلك السآمة والملل من عقم ، وليس معنى ذلك أن يجعلوا نشدان الجمال شغلهم الشاغل فإن الحياة جمة المطالب وعمر الفرد قصير وحسبنا أن نقدر الجمال أين وجدناه ، وأن يتوفر الجمال فى كل ما نأتيه من عمل يدوى أو فكرى ، وبذلك يتأصل حب الجمال فى أنفسنا ، ويفيض على حياتنا .

٣١

سر المهنة (١)

نادى خريجى المدارس بأم درمان فى قاعة الجلوس وقد صفت فيها أربعة من المقاعد الوثيرة وكنبتان ومائدة فى وسط القاعة، عليها بعض الجرائد والمجلات المصورة وعلى الجدران علقت صور أعضاء اللجان المتعاقبة .وقاعة الجلوس مفتوحة على حجرة المكتبة يوصل بينهما باب مفتوح على الدوام ، جلس أربعة من الرفاق أحـدهم محاسب والثاني مترجم والإثنان الآخران مهندسان .

أحمد — « يقف أحمد وهو مربوع القامة نحيل الجسم عليه سيماء حزن داخـلى عميق لايدريه إلا أقرب أصدقائه والصقهم به ، وكان يرتدى بدلة من الصوف وصديرى ليتقى لفحة البرد . وبعد أن نظف منظاره الذى لايرى إلا بواسطته دار فى الحجرة وتطلع الى بعض الصور ثم قال ملتفتا الى أصحابه :

إن صور هذه اللجان تثير فى نفسى فكرة عجيبة عن فعل الزمن بالأشخاص هذا أبو على كان بالأمس صغير السن حسن الطلعة أنيقا دائم الإبتسامة حلوها واليوم نراه مهدما لايعتنى بشىء . ان جلس يجلس فى ركن بعيداً عن الناس، يدخن سيجارته ويقرأ فى بعض الجرائد أعمدة الأخبار والتلغرافات، وإذا جلس اليه صديق حميم لايلبث أن يحادثه فترة قصيرة ثم يطلب إليه أن يلعبا النرد وذلك لأنه لايريد الحديث .

إبراهيم — ليس هذا ماتوحيه صور اللجان إلى نفسى فحسب لأنه من الطبيعى أن يغير الزمن من مظاهر الناس بفعل السن والمؤثرات ، ولكننى كثيراً ما أعجب حـين

---

(١) نشر بمجلة الفجر — المجلد الأول — العدد السادس عشر — فى ١ فبراير ١٩٣٥

أرى العم عبد القادر والعم عبد الرحمن يجلسان فى تلك الصورة جنبا إلى جنب الأمر الذى يدل على أنهما كانا يتعاونان فى العمل لإدارة النادى وترقيته وتحسين حاله وأراهما اليوم لايتبادلان التحية ولايجلسان تحت سقف واحد إلا فى مأتم . والعجيب أن يكون النادى سبب إختلافهما .

أحمد – ليس فى ذلك من عجب فقد يكون هذا النادى سبباً للخلاف بينى وبينك وبين صالح ومامون إذا نحن سرنا فى الطريق التى سار عليها سلفنا من الأعضاء .

صالح – وأى طريق كانوا يسلكون ؟ ألم يكونوا عاملين لخير واحد ؟

مامون – كانوا يعملون لخير واحد ، يا للذكاء ! انهم يعملون لشر واحد الا وهو الخلاف وذلك لأن حب الظهور كان رائدهم فى العمل .

صالح – اذاً لن نختلف نحن ما دمنا نزعنا تلك العاطفة الخبيثة من أنفسنا .

أحمد – ولكن عاطفة حب الظهور لاتفنى مادام مركب النقص يفعل فعلته وما دمنا نحن لم نتحقق بعد من أننا أبناء وطن واحد فخر أحدنا فخر للجميع وجهود أحدنا يجنى ثمارها الجميع .

إبراهيم – لقد ذهبتم بنا بعيداً واحمد يأبي إلا أن يحشر لنا علم النفس حشراً ويقنعنا وانوفنا راغمة بأن مركب النقص لازال يفعل فعلته . وإذا حللنا سر حديثه ذلك على طريقته لرأيناه أشد الناس تورطاً فى مركب النقص، فقامته ليست بالمديدة وجسمه ليس بالبدين وعيناه لاتبصران إذا خلع عنهما المنظار وهذا سر إجتهاده فى الأناقة وإطالته الدرس ليبذ رفاقه فى ميادين أخرى . أليس كذلك يا أحمد ؟ .

أحمد – أراك يا إبراهيم لاتكف عن الهذر ولكن الواقع إني أنا لا أخلو من مركب النقص ولاأنت ولا أى أحد فى هذا الوجود، ولكن درجاته تتفاوت وعلى كل حال دعونا من هذا ولنعد الى التحدث عن تلك الصور ، فإنها بلاشك موضوع حديث طريف ولابد . .

إبراهيم – (مقاطعا) حقا إن هـذه الصور فيها عبرة لنـا إذا قارناها بالواقع المشاهد، فقد تبدلت أشكال الناس ، فمنهم من صار ذا بدنة، ومنهم من غار جفناه ولقـد توترت علاقاتهم وغيرت ضمائرهم و . . . .

مامون – (متعجلا) وبعضهم لاضمير له (ضحك)

صالح – بالله عليك لاتهزأ يامامون ودعنا نصل الى سر هذه التفرقة .

مامون — سر هذه التفرقة فى الصور .
صالح — أراك لاتزال هازئا ، إن سر التفرقة فى النفوس .
مامون — ولكنى أصر على أن السر فى الصور فلولاها لما علمنا ان عبد القادر وعبد الرحمن كانا على وفاق ، ولولاها لما استرسلنا فى هذا الحديث وحدثنا أحمــد عن شعر الدكتور حمدى وعن «عواطفيات» التنى ولإحتدم الجدل بين إبراهيم وصالح فى موضوع حرية المرأة وحرية الرأى وحرية المهاترة وحرية ا . . . (يقاطعه صالح) .

صالح — حسبى منك ان تسكت لنسمع راى الأخوان .

مأمون — ولكنى أريد أن أعرف لماذا لاتوافقنى على أن السر فى الصور وهاهو الدكتور عمر قد جاء وسيحدثنا عن السر .

عمر — (يدخل الدكتور عمر وهو طويل القامة بارز عظام الجبهة ضعيف البنية واسع العينين وفى يده عصا من المحلب يتوكأ عليها فقال قبل أن يجلس) .

واى سر ؟ أخشى أن يكون سر المهنة (ضحك وتصفيق يجلس الدكتور) .

مامون — لايا دكتور إنما هو سر فى هذه الصور وأعقد من سر المهنة : نعم سر فى هذه الصور لأنه بالتطلع إليها بدأنا نبحث عن مبلغ فعل الزمن فى وجوه الأشخاص وملامحهم وتفلسف إبراهيم فساقنا إلى التحدث عن فعل الزمن فى النفوس وكيف فرق بين من كانوا بالأمس يعملون يداً بيد .

عمر — خير لى ألا أتحدث عن أى سر ، فإن سر المهنة يحرم على الحديث فى الحزبيات ونحن معشر الأطباء فى هذا البلد مفروض أن نتجرد من كل عواطفنا وأن نحيا كالإنسان الميكانيكى .

مامون — برافو يا دكتور فحدثنا إذاً عن سر المهنة .
عمر — أحدثكم عن سر المهنة ؟ إنه كسر الماسونية لايباح إلا لأبناء المهنة .
مامون — افرضنا منهم وحدثنا .
عمر — لايمكننى فإني حلفت اليمين الشرعية وحلفت يمين «أبقراط» أن أكتم السر

ابراهيم — (متعجلا ليتناول الحديث) قلت يادكتور انكم معشر الأطباء تتجردون من كل عواطفكم فهل معنى هذا انك لاتقدر جمال مريضاتك . لاينفتح قلبك لتلك

البسمات الملائكية ولاتتأثر بسحر تلك العيون النجلاء منها والسوداء والعسلية .ولايستهويك ذلك الجسم الأبيض كالشمع الذى يجرى الدم فى شرايينه فتكاد تراه بعينيك .

عمر – (متلجلجا) لا . لا اقدر الجمال فى اثناء العمل ولا التفت للبسمات ولا النظرات ولا السواعد العارية البيضاء فإني أخلص لمهنتي وانسى ماعداها ولا أرى جسم الإنسان إلا هيكلا عظمياً يستوى فى نظرى جميله وقبيحه .

مأمون – (هازلا) ولكن يا دكتور التنهدات والآهات والتوسلات الاتترك مفعولها

عمر – لاتصنع شيئا إنها تنبهنى لأن أخفف الألم وأزيل السقم

مامون – ولكن الا تزيد الى سقم قلبك .

عمر – نعم تزيد الى سقم قلبى مما تعانيه الإنسانية .

مامون – مما تعانيه الإنسانية ياخفة يارأفة يا دكاترة (ضحك)

أحمد – ولكن يادكتور أنت بذلك تغالط الحقائق النفسية الثابتة فإن علم النفس يؤكد ان كل امرىء تتقطر فيه عاطفة تقدير الجمال حينما يرى الجمال وعلى الأخص إذا كان ذلك الجمال يقاسى آلام المرض .

عمر – ولكن علم النفس يقرر أيضا أن الالفة تجعل الأشياء عادية فأنا أرى كل صباح فى العيادة مئات من أنواع الجمال ولهذا فأنا لا أحفل بالجمال أثناء العمل .

مامون – (هازلا) ولكن تترك ذلك فى سرك – لاسر المهنة – وعند إنقضاء ساعات العمل تعبر الشوارع جيئة وذهوباً لترى إحدى مريضات الصباح وتتمتع بالنظر اليها وتقدر جمالها من جديد اليس كذلك يا دكتور ؟

عمر – لا . أنا لا أتعقب مريضاتي ولا أنظر اليهن خارج المستشفى .

أحمد – ولكن يادكتور أفلا تشعر – وأنت رجل فنى المزاج – بشعور طيب وتيار روحى خفى عندما ترى خدود الملاح تتورد من شدة الحمى وعندما ترى تنهدات الذعر التى تتموج معها الصدور وتتدافع النهود وعندما تقرر النوم وتنوى الإنصراف فإذا بالمريضة تتعلق بك فى جزع طالبة أن تبقى معها لأنها لاتطمئن على حياتها إذا فارقتها .

عمر – صحيح إني كنت فنى المزاج قبل أن أغادر المدرسة وكنت مجنونا بورد الخدود ميالا لقطفه، وكنت أهيم وراء البسمة ولاأحتمل سهام العيون، وكانت لنا وقائع

ونوادر، ولكننا الآن غيرت منا الأيام، وقيدتنا ظروف المهنة ومراعاتنا للعرف وبحكم هذه الظروف فرادى ومجتمعة، أصبحت غيرى بالأمس فلا أنا أحفل ببسمة ولا ألين لنظرة .

مامون — العفو يادكتور — . ولكنى أنا أعرف قصصاً واقعية لبعض أبناء مهنتك فمنهم من أحب فى المستشفى وكان الحب طريقاً للزواج، ومنهم من بهت أمام الحسن لولا أن تداركته رحمة من عند ربه ومنهم ومنهم !

أحمد — ليس هذا بحكم قاطع فإن الناس يختلفون .

مامون — إذاً ليس ما يحول بين الدكتور عمر وتقدير الجمال سر المهنة .

عمر — سر المهنة له المكان الأول

مامون — سر المهنة أصبح كطاقية الخفاء .

عمر — لاتشك فى حديثى

مامون — لن أشك فيه ولكنى لا أصدقه يادكتور (ضحك)

صالح — حقيقة إن سر المهنة شبيه « بطاقية الخفاء » أما تراه حال بيننا وبين موضوع حديثنا الأول ؟ فلقد تركنا الصور والتفرقة وسرها وأوقفنا الدكتور موقفا حرجا .

عمر — ليس هنالك إحراج فمامون اللعين ما لقينى إلا وأخذ يجادلنى ويثيرني كأن بينه وبين الأطباء عداء مكينا و . . .

مامون—(مقاطعا) صدقت يادكتور إن عدائي معهم قديم، فقد قتل أحد أسلافكم من السوريين أو الانجليز — لست أدرى — أبي وخلفنى يتيما وعندما سألناه عن المرض وسبب الموت قال إنه سر المهنة ولايستطيع ان يبوح بتفاصيل المرض وسبب الموت إلا لأبناء مهنتـــه .

عمر — ولكن الموت لامحيد عنه والطبيب لايكفل لمرضاه الحياة ولايردها ولكنه يحاول التخفيف ويقوم بالمستطاع .

مامون — وبعض الأطباء إذا رأوا ان المريض لامحالة ميت يعجلون له بالموت اليس كذلك يا دكتور ! ولكن عفوا إني نسيت انه سر المهنة .

أحمد — كفى هذرا يا مامون فقد إهتديت أنا الآن (مامون يتشاغل)

عمر — إستمع يا مامون لما يقوله أحمد ودع عنك سر المهنة

مامون — كلى آذان . ماذا تقول يا أحمد .

أحمد — ليس السر فى الصور ولافى النفوس

مامون — إذاً فيماذا ؟

صالح — أخشى أن يكون سر المهنة (ويضحك)

أحمد — لاتضحك وتغرب فى الضحك إنه سر المهنة . فليس الدكاترة وحدهم هم الذين يحافظون على سر المهنة . فمهنة اللصوص لها سرها ومهنة قطاع الطرق لها سرها والمهندسون أمثال مامون وإبراهيم لهم سرهم ونحن المحاسبون لنا سرنا وأنتم يا صالح اليس لكم سر ؟

صالح — لنا سر بل وأسرار لايمكن أن نذيعها .

أحمد — صدقوني ان الخلاف القائم سببه سر المهنة الـذى لاندريه لأن أولـئك المختلفين كانت مهنتهم حب الظهور وسر مهنة حب الظهور هو الذى دعاهم للخـلاف وإياك أن تسألنى يامامون عن ذلك السر .

مامون — ولكن لابد أن أعرفه قبل الإنصراف أو بعده .

إبراهيم — لابد أن ننصرف الآن فالساعة بلغت العاشرة والنصف ونحن لنا واجباتنا المنزلية تنتظرنا لنقوم بها . وليفهم مامون السر بعد الإنصراف .

صالح — ولكن قبل الإنصراف عندى ملاحظة أريد إبداءها — فلقد رأيـتم كيف شغلنا سر المهنة وصرفنا عن حديثنا زمناً ، وفى النهاية هدانا إلى ما كنا فيه مختلفين فسر المهنة هذا شىء عظيم .

مامون — (هازئا ومتمما) إذاً لنطلب من الدكتور أن يركب منه دواء أو مسحوقاً ويقسمه علينا بكميات وفيرة نستعملها عند اللزوم لصرف الناس عن حديثهم أو الإهتداء إلى سر عميق (يضحك الجميع ويقفون لينصرفوا) .

٣٢

بلاد الجحيم (١)

سيدة يهودية وغير حسناء قطعت من العمر ثلثي المرحلة إن لم يكن كلها، جمعني بها هذا الترام الذى يكلفني على الدوام مشقة الجلوس والإستماع إلى من لا أرغب في مجالسته ولا أود الإستماع إلى حديثه ، وكان بينها وبين مندوب الشركة ، الذى لايصيب من تعبه وإجهاد نفسه إلا بعض مايقيم أوده ، كان بينهما حديث بلا شك مداره النقود . ولقد قررت السيدة انها إشترت تذكرة ذهاب وأياب بستة قروش صاغ ولكن هواء عاصفاً إختطفها من يدها والترام مندفع الى الأمام لايلوى على شيء، ولذلك لاتستطيع أن تدفع ثمن تذكرة الإياب، وكانت تتحدث فى حماس ويدها لاتنفك عن الإشارة وأناملها تروح وتجيء فى حركة عد النقود المألوفة، فقلت لابد ان تكون يهودية الأصل وشعرت بميل لمساعدتها خوف أن تقضى نحبها أسفاً على ما فقدت من نقود، وجعلت أجادل مندوب الشركة نيابة عنها بل وأرافعه، ومازلت به ملحفاً فى الرجاء حتى جاء المفتش فانقذ الموقف وأعفى السيدة من أجر الترام لأنه إقتنع بحجتها . وعادت إلى السيدة حيويتها وتهلل وجهها وإبتسمت إبتسامة عريضة كأنما ردت اليها خزائن الأرض والسماء .

وباسطتها فى الحديث فعلمت منها انها أرملة يهودية من المثرين، قضت فى السودان ردحا من الزمن ثم ذهبت إلى فلسطين بعد وفاة زوجها لتنظر فى شئون إبنها ولتهتم بتعليمه، ولقد جاءت قبل إسبوعين لتصفية حسابات الفقيد لأن إبنها بلغ الثامنة عشرة ويستطيع أن يسير دفة أعمال والده .

قلت : ولماذا كان كل ذلك الجهد وأنت على جانب من الثراء .

---

(١) نشرت بمجلد الفجر – المجلد الأول – العدد السابع عشر – فى ٢٨ فبراير ١٩٣٥

فقالت : إن من يضيع زهرة شبابه في « بلاد الجحيم » هذه ويجمع بعض النقود يجب ان يكون شحيحاً يحاسب على المليم الواحد .

قلت : (وقد بدأت الجحيم تصلى فؤادى) وهل تنوون البقاء في هذه البلاد .

قالت : لن نقوى على ذلك فإن الشمس تكوى أجسامنا والرياح ذات الأتربة تعمى عيوننا .

فأدرت وجهى عنها وأغمضت عينى عن دمامة فى الوجه وأوصدت اذني عن قبح فى اللفظ وجفوة فى الطباع .

ليست هذه أول مرة أسمع فيها بلادى تسب وتوصم بما فيها وماليس فيها،وكنت أقول لنفسي صبراً جميلا. فلعل هؤلاء النزلاء يثوبون إلى رشدهم ويحمدون لهذه البلاد فضلها عليهم ويقدرون مادرته وتدره عليهم من خيرات، وكنت أعزى النفس بما سيكشفه المستقبل لأولئك النزلاء من كرم هذه البلاد و كرم بنيها، لأننا على حـــد تعبير مصطفى كامـــل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » أحرار فى ضمائرنا لانصدر إلاعما نـــراه الحق ونؤمن به، كرماء نجود بالزاد ونحن فى حاجة اليه،ونبذل مايدخره الآخرون لغائلة الأيام ومايكتنزون من القرش الأبيض لليوم الأسود . ولكن أراني ضقت ذرعاً وضاق سواى واستغلت حرية نفوسنا وكرم طباعنا وسخاء أيدينا، فكانت سببا لثراء الأجنبى ولإجدابنا ولتعجرفه المتصنع الكاذب وتواضعنا الصادق . فهذه سيدة جئت لمساعدتها وكنت أفكر أن أخرج آخر قطعة من النقود بقيت فى جيبى لأدفع أجر الترام عنها ولأحسم النزاع لولا أن حماني ذلك المفتش الظريف من غائلة الإفلاس فى آخر الشهر فكان جزائي أن قالت عن بلادى انها (بلاد الجحيم) .

لقد شاء ربي ان اولد فى الجحيم فأنا بها قانع ولحرها صال فى صمت ورضاء، وقنعت بحظى من جهل لم تنقشع ظلمته بعد، وفقر لاسبيل الى رفعه مادام هذا الجحيم شديد المغنطيس يجذب اليه من زبانية البشر من يبلع ماقل من خيراته ويتركنى أتضور ، ولكن لا خير فى جحيم لايحمى أبناءه من غزوات الطفيليات وفتكة الحشرات،وكم أكون سعيدا بجحيمى الذى ولدت فيه وربيت لو تفاقمت حرارته وإشتد لظاها حتى لايعود مطاقاً إلا لأبنائه البررة ، كم أكون سعيداً به وسيسعد بي وبجهودى لو ثارت زوابعه وهمت أمطاره فكانت الجمر المذاب على أجسام النزلاء الجاحدين الذين ماصنعوا معروفاً

إلا وأتبعوه بالمن فأفسدوه وما أفسح لهم المجال إلا كانوا دعاة دمار ينصبون الفخاخ ولايتورعون عن إمتصاص الدماء ، وكانت بردا وسلاما على أبنائه الصابرين .

إذا كانت هذه البلاد جحيماً فلماذا تأتون الى الجحيم طائعين ؟ ويلي منكم وويلي من إخواني الذين لايحمون هذا الجحيم ، فلو شعروا بكرامته وأعزوه ولو تفانوا فى سبيله لصار جنة لهم دون المرتزقين الجاحدين ، جنة تفيض خيراتها وتطيب قطوفها وتتفجر أنهارها ولايدخلها إلا الذين لخيرها يسعون .

لقد أسهرتنى السيدة ونامت وأشعلت قلبى - ليس بحبها - بعد أن أثلجت صدرها وأرحت قلبها مما كان يعانيه من ضغط لضياع دريهمات معدودة . سهرت الليل أفكر فى خيال السيدة العارم وجعلت أستعرض الشوارع فأرى الأسفلت يتطاير منه الشرر فيصيب تلك الوجوه البيضاء ويشويها وأرى النيل وقد جرى من الجحيم ناراً مذابة وأتطلع الى الجبال فأدهش لحممها المتصاعد وقذائفها التى تنصب على أولئك النزلاء الجاحدين ، وفكرت فى سكان الجحيم ورسمت لهم صوراً أعرضها عليك: فهم سود الوجوه غلاظ الطبع أشداء على الظالمين عراة حفاة يؤلمهم النسيم العليل وتخنقهم رائحة الورد وعبير الزهر . وطفت وديان كردفان ذات التلال والوهاد والرمال وأرض الجزيرة ذات الخضرة والنضرة ذات التربة الغنية العذراء، فتصورت الوديان معمورة بالمردة والتلال تذكى لهيب النار وتزيد إلى حرارتها، وأرض الجزيرة تنبت شوك القتاد ويحصد منها وقود النار ، ورثيت لحال أولئك النزلاء الكرماء الذين جاءوا ليشاركوني ما أعانيه فى هذا الجحيم وغضبت لأنهم لايحتملون الأذى كما نحتمله، ولايسكتون عن ترديد كلمات الاستياء، فهم جاءوا ليزيدوا إلى هذه الجحيم وليذكروني بحرها ووهجها كلما نسيت ذلك أو تناسيته .

هذه سيدة فاضلة تكرمت فأسمت السودان بالجحيم وبالأمس تكرم أحد المثرين الذين ماطعموا الحياة ولاذاقوا النعيم إلا فى هذا الجحيم، وأسماك يابلادى « عظم النزاع » وهو يحسب انه بر بك وبأبنائك بل ويعد نفسه منهم . وغير هؤلاء كثيرون وهم يحسبون فى سكوتنا رضاء عن أقوالهم وتصرفاتهم وتقديراً لأعمالهم، ولهم عذرهم لأن أبناء الجحيم لاتتوفر فيهم صفات أهل الجحيم، فما هم غلاظ ولاهم أشداء ولم ير منهم النزيل إلا كل كرم وكل لين، فصفى مافى الجحيم من ذهب وابتزه ، وحصد مافيها من زرع وضرع وصدره الى خارجها وأبناء الجحيم فى غفلتهم حتى يصبح الجحيم جحيمين، جحيم الحياة التى ولدنا فيها وجحيم اللفظ الجارح واللعنات التى تصب علينا صباح مساء .

لاشك انه من المتعة أن يطوف المرء بالجحيم ويرى بنيها عراة حفاة ويشاهد اللهيب المتصاعد المندفع وينعم بمنظر الأجساد تكوى، والناس تستغيث ولا مغيث، وان سياحة فى الجحيم كالتى دبجها يراع «دانتى» أو كالتى صورها المعرى الكفيف لمما يتوخاه الإنسان ولايعجب له أو يستغربه ساكن الجحيم. وأنا أفهم حق الفهم ان تشد الرحال من أوربا وغير أوربا فى زيارة إلى بلاد الجحيم لمتعة وقتية قصيرة ونرحب بضيوفنا ونعرض لهم مافى الجحيم من متع، ولكن النازحين من جناتهم والتاركين قصورهم ليسكنوا الجحيم فهؤلاء الذين يشكل علينا أمرهم وتأخذنا الدهشة حين نراهم يزاحمون الفاعل المسكين ونرى النجار مع النجارين والحداد مع الحدادين والخياط مع الخياطين. وحين نرى البقال لايترك مجالاً لغيره من أبناء الجحيم الذين الفوا هذه الحرارة وصارت من ملازماتهم. هذا مالا أفهمه! فاخرجوا أيها النزلاء من بلاد الجحيم التى لاتوازى عظمة بين كلبين وأرحموا أجسامكم من لهبها وأرواحكم من عذابها وأتركونا ننعم بالجحيم فقد ضقنا وضاق بكم.

إني لألوم أشقائي من أبناء الجحيم على إهمالهم فى وطنهم وتراخيهم وتجردهم من مميزات أبناء الجحيم، وإني لأكرر اللوم على من رزقوا بسطة فى المال أو نالوا حظاً من التعليم، فهؤلاء مسئولون عن حمايته وأن يضعوا على الأبواب مردة عتاة لايسمحون لأجنبى بالدخول، وإني لا أقصر اللوم على هؤلاء بل أعتب على مدربينا من إنجليز ومصريين فلولاهم لما عرف هؤلاء القوم باب الجحيم ولتشعبت أمامهم السبل، ولم يعرفوا فى أيها يسلكون. أعتب عليهم لأنهم جردونا من بعض الوحشية وقد كانت لنا فيها وقاية ومناعة وراضوا خلقنا فلم نعد قادرين على تحمل الإساءات التى تزيدنا ضغثا على إباله. ولو تكرم أولو الأمر فينا وأراحونا من شرور هؤلاء النزلاء وتعاونوا معنا لنخلق من هذا الجحيم جنة لنا ولهم فى الحاضر (ولنا بعد أن نبلغ سن الرشد) لقاموا بواجب الوصاية حق القيام. أما أن يغفلوا عنا وأن يفسحوا لكل أفاق المجال فى بلادنا فهذا مالانرضاه.

والآن وقد رأينا كل مالا يرى من ذل وإستكانة، أفلا يحق لنا ان نعلن إستقلالنا داخل هذه الجحيم؟ نعم يحق لنا ذلك فلنقاطع الدخلاء فلا نبيع لهم ما بأيدينا ولانشترى منهم مايلزمنا، وإذا لم يكن لنا نصيب فى إستقلال سياسى فعلى الأقل يجب أن نستقل ذاتيا فتكون لنا متاجرنا وصناعاتنا التى نؤازر القائمين بها ونحدب عليهم ونعضدهم وندفع عنهم الشر والأذى ونتعصب لمنتوجاتهم دون سواها حتى ولو كانت دونها فى الجودة

والنوع . وليكن لنا أدبنا الخاص يغذى عقولنا ويهذب نفوسنا ويجلو لناصور جحيمنا فهى عندنا تعدل أروع الصور فى أطيب الجنات . ولتكن لنا قوميتنا وأخلاقنا ولنحتقر هذا الدخيل الجاحد أني وجدناه حتى نراه يشعر بالجحيم حقا فيشد الرحال ويترك البلاد لأبنائها . وليس هذا عداء منا للإنسانية أو لزهد فى السلام العالمى ولكن لأن هؤلاء الدخلاء ليسوا من الإنسانية فى شىء، فهم يفقدون كل آداب اللياقة وحسن السلوك ويشتمون صاحب الدار وهم فى داره يأكلون زاده ويتمتعون بخيراته، ولأنهم زاهدون فى السلام وحسن الوئام . وإذا جاهرك أحد بالعداء فالواجب أن تناصبه العداء فالسن بالسن والعين بالعين .

لقد أشعلت قلبى ياسيدتي فكنت قاسياً عليك ولكن ماحيلتى وأنت أججت الجحيم وأغضبت أبناء الجحيم فكان جزاؤك شواظاً منها وسيكون هذا جزاء كل من لا يرعى حرمة المضيف ولايقدر إحسان المحسنين ولنا معكم أيها النزلاء بعد هذا حساب عسير إلا اذا خففتم من غلوائكم ورجعتم إلى رشدكم فسوف تنزلون منزلاً طيباً وتجدون منا كل كرامة وتكريم .

٣٣

الادب السوداني والادب المصرى (١)

كانت المساجلة بين الأستاذ حسن صبحى وكاتب هذه السطور حول موضوع الثقافة السودانية ووجوب قيامها بذاتها منفصلة عن الثقافة المصرية بدء سلسلة من المناقشات على صفحات الجرائد والمجلات. وفى مجالس الخلصاء سواء فى مصر أم فى السودان. ولقد ذهب الناس مذاهب عديدة فمنهم من يقول إن الثقافتين لايمكن إنفصالهما لما بين القطرين من صلات فى الدم واللغة والدين، ومن قائل إن إندماجهما غير ميسور لإختلاف طبيعة البلدين وتباين عادات السكان إلى غير ذلك من الظواهر التى تحتم قيام ثقافتين منفصلتين، يميز كلاً منهما طابع خاص بها وميسم تعرف به بين ثقافات الدنيا، ومن قائل بحل وسط ألا وهو التعاون بين الثقافتين مع محافظة كل على ميزاتها وخصائصها. وظن بعض الناس الظنون بأن من ينادى بفصل الثقافتين كمن ينادى بقطع الصلات بين القطرين بل بفصم شريان الإتصال ألا وهو هذا النيل المبارك الذى يغدق الخير على كل من يعيش على ضفتيه وينهل من مائه العذب، وظن آخرون ان من ينادى بالإندماج فهو كمن يطلب فناء السودان فى مصر، بل فقدان ذاتيته فلا يعرف إلا إذا أضيف إلى مصر ولن يعرف ابناؤه إلا إذا قالوا إننا مصريون.

وآخر ماوجه إلينا فى هذا الموضوع مقال الاستاذ الأديب محمد عبد القادر حمزة الذى نشر فى العدد الحادى والعشرين من مجلة الفجر. والاستاذ صديق للفجر منذ ظهوره، ومتتبع لخطواته ومهتم بكل ما يكتب فيه، وقد نوه عنه بكلمة، نشكرها لـه فى جريدته البلاغ الغراء. ومقال الاستاذ فيه من الإخلاص وحسن النية ما جعلنا نقدره ونبالغ فى التقدير وما حملنا على مناقشته لأن المرء لايناقش من الآراء إلا ما يحترمه ويرى فيه خيراً لابد من

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الثانى والعشرين – فى ١٦ يونيو ١٩٣٥

توضيحه . ونحن إذا تحدثنا عن الأدب السوداني والأدب المصرى فإنما نتحدث عن أدبين أداة التعبير فيهما هى لغة الضاد كسائر آداب الشرق العربي ، نتحدث عن أدبين أخذا ويأخذان عن بعضهما بحكم الجوار أكثر مما يأخذان من أدب أية أمة أخرى ، ولن نقصر حديثنا عن الماضى والحاضر فحسب ولكن المستقبل سينال من عنايتنا أكثر من ذينك لأن الماضى والحاضر فصل فيهما الزمن. والمستقبل وحده هو الذى نطمع فى تكييفه على النحو الذى يرضاه الأديب المخلص لفنه وأمته والعارف لمعنى الأدب القومى المدرك لما يترتب عليه من نتائج فى حياة البلد وأهلها .

حديث الأدب القومى فى مصر ذاتها جديد لم تمض عليه سنوات ،وحتى الآن لم نر نتاجاً مصرياً جديراً بأن يسمى قومياً . فشوقى وحافظ وأحمد محرم كانوا يقرضون الشعر على طريقة العرب ويسوقون الحديث عن النوق والخيام والهوادج ويتغزلون فى سعاد ودعد وهند ولايحفلون بزينب وفاطمة وبثينة . وما كنت لتلمح أثر مصر فى قصيدهم إلا عندما يمتدح شوقى خديويها أو يرثي أحد أبنائها ،أو عندما يتغنى حافظ بالوطنية المصرية ويدفع الشعب للقيام بواجبه . والعقاد والمازني لافرق بين شعريهما فى المعاني والتخيلات وبين شعر «توماس هاردى» أو «شلى» أو «بيرنز» فهو شعر إنجليزى فى لغة عربية. وأما النثر فحتى بداية هذا القرن كان سجعاً مقفى ، وما «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى عنا ببعيد . واما كتاب العصر فهم بين نزوعهم الى التجديد واللحوق بالغرب ،وبين محافظتهم على اسلوب عبد الحميد الكاتب وبيان الجاحظ ،لم يتقدموا خطوة إلا ليتأخروا خطوات ،وأدباء الشباب الذين يحاولون إدخال القصة أو الأقصوصة والمسرحية إلى اللغة العربية لاتتعدى كتاباتهم الترجمة إذا كانوا أمناء والمسخ إذا كانوا ممن ينتحلون فضل الغير . والأثر الأدبي الذى قرأته ورأيت بين سطوره حياة مصرية صحيحة هو كتاب «الأيام» للدكتور طه حسين ولكنى ما كنت لأخطىء هنا وهناك أصبعاً لطريقة «أناتول فرانس» فى معالجته لتاريخ حياته فى كتابيه « بيير نوزير » و « كتاب صديقى » وكدت أتهم الدكتور بأنه مقلد لايستطيع الإبتكار ،ولكن طلاوة الأسلوب وتلاحق الصور البيانية وغرر المعاني حملتنى لأغفر الذلة ولأشيد بفضل الدكتور على الأدب المصرى خاصة والأدب العربي عامة . والكتاب الثاني لكاتب مصرى شغلته السياسة والكتابة فى الصحافة عن التوفر لفنه وتجويد أدبه ،ألا وهو الأستاذ فكرى أباظه ،وكتابه هو « الضاحك الباكى » حيث وجدت فى الكتاب صوراً من الحياة المصرية لاغبار عليها مجلوة فى أسلوب سهل فكه تتمثل فيه روح عصره السمحة

الفكهة، ولكن مافي الكتاب من ضعف لغوى وضعف فني في سبك القصص جعل الكتاب في مرتبة أقل مما يستحقها موضوعه . والأثر الثالث لكاتب مشهور بارع الأسلوب مشرقه حلو الفكاهة مغرب فيها ألا وهو الأستاذ المازني . وكتابه الذى نشير اليه هو « صندوق الدنيا » ولكن الأديب لم يخل من التقليد والنقل فى بعض الأحيان من بعض كتاب الغرب المشهورين بالفكاهة والسخرية أمثال « مارك توين » و « جيروم جيروم » وهكذا نرى ان الأدب القومى لم تقم للآن فى مصر دعامته، وأذكر اني كتبت فى رسالة لصديقى الأستاذ حسونة القصاص المصرى فى عرض الحديث عن الأدب القومي قائلاً :— « وأى خير فى أن نقرأ ل«اناتول فرانس» و«برنارد شو» و«كانت» ونخرج خليطاً من الأدب إن استطعنا معرفة امه فلن نستطيع معرفة أبيه » والأدب المصرى سيطول جهاده قبل أن يكون قومياً بالمعنى الصحيح، وذلك لأن كثيراً من الكتاب فى مصر يقرأون ويكثرون القراءة ولكنهم لايهضمون، ولذلك يكون نتاجهم نصف غربي ان لم يكن غربياً من رأسه حتى القدم . والسبب الآخر فى تعسير خلق الأدب المصرى القومى راجع لإختلاط الأجناس فى مصر حتى أصبحت مصر تسمى أم الدنيا بحق وحقيق .

اما الأدب السوداني الذى نوده فلم يولد للآن، وذلك لأن بلادنا مرت بها قرون من الجهل الحالك وكان أهلها فى شغل بضروريات الحياة ورد الغزوات والإنهماك فى الحروب الأهلية عن التفرغ للدرس والتحصيل، بله الإنتاج الأدبي، وعندما تفرغ الناس الى الدرس فى العهد المصرى التركى كانوا جادين فى تحصيل علوم الدين ولم يلتفتوا إلى الأدب إلا قليلاً وكل نتاجهم كان شعراً فى مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم أو فى بعض الشئون الدينية لتسهيلها على طلابها . وعندما جاء عهد المهدية إنشغل الناس بشئون الدولة والإستعداد للحرب والموت فى سبيل الله عن كل ماعداه إلا بعض قصائد كانت تصاغ فى مدح المهدى وخليفته وبعض الأمراء، ولما انقضى عهد الثورة المهدية وجاءت هذه الحكومة الحالية (١) وشرع الناس فى تلقى العلوم الحديثة على أيدى الأساتذة المصريين ومن بين تلك العلوم اللغة العربية وأدبها وفقهها؛ تخرج بعض الطلاب الذين ظهرت عليهم علامات النبوغ والميل للإنتاج الأدبي وفى الشعر فقط . وكان هؤلاء الطلاب يقلدون اساتذتهم من المصريين فى طرق التعبير والأداء، فجاء شعرهم مثالاً من شعر العرب القدماء فى لغته ومادته وتصويره ولقد ضاقت بهم — للأسف — مواضيع الشعر فكانوا لايصوغونه

(١) الحكم الثنائي - الانجليزى المصرى - الذى امتد من ١٨٩٨ الى ١٩٥٥

إلا فى مدح أو رثاء أو فى ليالى المولد النبوى الشريف من كل عام أو رأس السنة الهجرية وماشابه هذه المواضيع ،فكانت مادة الشعر مما لايدع مجالاً للإفصاح عن الشعور السوداني أو خلق أى أدب قومى .

وتقدم الزمن حتى ظهرت فى الآونة الأخيرة جماعة من الشبان الذين تعلموا اللغة الإنجليزية إلى جانب اللغة العربية، وشعروا بظمأ شديد للإستزادة فى جميع فنون الأدب من شعر ونثر وقصص ودرامة وجعلوا يقرأون كل مايقع تحت أيديهم فى اللغتين العربية والإنجليزية، وكان للأدب المصرى النصيب الأوفر من عنايتهم لأنه أقرب الآداب اليهم، وكانوا باديء ذى بدء يقرأونه فى خشوع ويتلقون الوحى منه ويحسبون كل مايكتب فى مصر خلواً من العيب ولايعتوره نقص أو قصور ،حتى اتهموا بفقدان ملكة النقد، تلك الملكة الفاحصة الباحثة عن الحق أين تراءى لها والتى تكلف بتصفية الأدران وقطع الطفيليات وبتعهد الجمال والقوة ومساعدة كل جليل ونبيل من الآراء والعواطف . ولكن الإطلاع بلاشك يغير كثيراً من حالات الناس وعلى الأخص من يمنون أنفسهم بحياة أدبية منتجة . فبدأ الشباب السوداني يتناول آثار الكتاب والشعراء المصريين بالنقد والغربلة ولايقرأ أحدهم كتاباً إلا ويكون عنه رأياً ويعرض هذا الرأى على معارفه وأصدقائه، وأخيراً أصبح أدباء الشباب يجهرون بآرائهم فى الأدب المصرى على صفحات الجرائد والمجلات السودانية والمصرية، واني لأذكر أن كتاب « صندوق الدنيا » للأستاذ المازني نقده صديقى الأديب محمد عشرى الصديق نقداً نشرته السياسة الأسبوعية، ولا أظننى مبالغاً إذا قلت إن ذلك النقد من خير ما قرأت بين المقالات التى كتبت عن ذلك المؤلف على كثرة ما كتب عنه . والذى ساعد على هذا الإتجاه الحسن هو إدمان بعض الشبان قراءة الكتب الإنجليزية كما يقرأها أدباء مصر البارزون، فهم يقرأون لأعلام الأدب الإنجليزى قديمه والحديث ويطلعون على الأدب الروسى والألماني والفرنسي والنرويجى عن طريق اللغة الإنجليزية ، ويتناولون هذه الآثار الأدبية بالنقد والغربلة .

والنقد بلاشك هو الخطوة الأولى بل حجر الأساس لكل أمة تريد أن تنشيء لها أدباً صحيحاً قائماً على دعائم من المعرفة الصادقة . ولعل هذا النقد هو الذى هدانا كما هدى أدباء مصر من قبل إلى أن من الضرورى أن يكون لنا أدبنا القومى الخاص بنا والذى يحمل طابعنا ويميزنا عن بقية الأمم، ولا أظن هنالك من يتهمنا بالعقوق لمصر أو بالخروج عليها إذا نحن فكرنا فى خلق أدبنا القومى لأن ذلك معناه الشعور بالوجود .

ومصر أيرضيها أن يكون القطر الشقيق فى أعلى الوادى عالة عليها بل جثة هامدة لاحياة لها ؟ أيرضيها أن نفقد حتى التعبير عن حياتنا والإفصاح عن عواطفنا ونزعاتنا وطموحنا ؟ أيرضيها أن نكون صورة منها إذا فقدت أو وجدت لايحس العالم بفقدانها ولاوجودها ؟ لاياإخواننا المصريين، نحن إذا نادينا بقيام الأدب القومي ذى الطبيعة المحلية فإنما ندعوا الى خلق شعب شاعر بكيانه، يعبر عن مرئياته من سماء زرقاء، أو ملبدة بالسحب، ومن غابات كثيفة وصحراوات قاحلة، ومروج خضر. ومن حياة بدوية هادئة، إلى حياة عصرية صاخبة، ومن إيمان فى «الكجور» والسحرة، إلى إيمان بالله وحده لاشريك له. ومن حب للحسن الطرى الناعم المنظم المشذب، الى تقدير للجمال الساذج، يعبر عن خلق عربي رجيح، فيه شجاعة وإقدام وكرم وإباء، ويأنف الذل والعبودية، ويقول بملء فيه « ونحن لانرضى أن نكون شعباً خواراً يستعبد إلى الأبد » .

والغريب أن ينفر الناس من فكرة إنفصال الأدبين المصرى والسوداني، أو الثقافتين المصرية والسودانية، وهذا أمر طبيعي لابد منه، وليس معناه قطع الصلات ولاالتفريق بين الشقيقين، بل معناه زيادة عناصر الحياة فى وادى النيل، فالشعب الواحد الذى تتعـــدد جوانب النبوغ فى أبنائه وتكثر إتجاهاتهم وميولهم شعب بلاشك غنى قدير على النهوض بكل أعبائه وله فى كل ميدان من ينهض بأعباء ذلك الميدان، فوادى النيل إذا قطنه نفر إختلفت صفات من فى أسفله عن صفات من فى عاليه وكان من جراء ذلك أن قام فيه أدبان مختلفان أو ثقافتان مختلفتان لكل منهما عناصرها القوية ومميزاتها وطابعها الخاص فذلك من الخير له لأنه سيكون غنياً فى نتاجه الأدبي كثير التنوع. وبذلك يستطيع أن يباهى أغنى أمم الأرض بنتاج أبنائه، وأن يكون فى مقدمة الأمم ثروة أدبية وإجتماعية .

وإذا عمل المصرى لخلق أدبه القومى وتدعيمه وعمل السوداني لخلق أدبه القومى وتدعيمه فسوف يأتي الأوان الذى يشعر فيه المصرى بحاجة ملحة الى دراسة الأدب السوداني والإقبال على كل ما ينتجه الفكر السوداني، وسيشعر السوداني بحاجة ملحة لدراسة الأدب المصرى والإقبال على كل ماينتجه الفكر المصرى، وسيجد كلاهما فى أدب الآخر مايتمم به نقصه، والآن إذا أقبل السوداني على دراسة الأدب المصرى وتذوقه فذلك لأنه ناشىء يطمع فى أن يكون له ثروة أدبية وأن يغذى أفكاره وعواطفه بنتاج جاره وشقيقه، ولكن المصرى لن يرغب فى دراسة الأدب السوداني والأقبال عليه مادام الأدب السوداني صورة من الأدب المصرى وبلاشك فاترة وناقصة . وإذا نحن شرعنا فى كتابة أدبنا القومى

فسوف تجد كتاباتنا مكانتها فى مصر وسوف يقبل عليها اخواننا بالدرس والنقد والتعقيب وسترحب مجلاتهم وجرائدهم بكل مانكتب .

أما مسألة التعاون بين الأدبين فهذا مالاينكره أحد. ونحن لانقول بضده بل نذهب الى أبعد من ذلك التعاون، فإننا نريد أدبنا أن يتعاون مع كل آداب الدنيا. وخير مانختم به هذه العجالة ماجاء فى ختام مناظرتنا مع الاستاذ حسن صبحى(١) « والسودان الجديد ممثلا فى آبائنا المخضرمين ، وشبابنا الحاضر، والجيل المقبل؛ سيكون شعباً واسع الصدر مفتق الذهن يقبل على دراسة كل مايهمه ويتعلق بمسائله من ثقافات كل الأمم الحاضرة والسالفة ولكنه سيهضم تلك الثقافات ويحولها الى دم يجرى فى عروقه لايلبث ان يختلط بدمه حتى يصبح دماً سودانياً فيه كل مميزات السودان من أخلاق وطباع وعادات، وسيقبل على خلق أدبه الخاص وفلسفته الخاصة لأن تخيلات أهله وأحلامهم وأمانيهم غير تخيلات وأحلام وأماني الأمم الأخرى. وسيتخذ من حوادثه وأخلاق أهله وتقاليدهم مادة لفنه القصصى والشعرى، ومن مناظر غاباته وصحاريه ووديانه مادة لفنه التصويرى ومن مشاعر أهله وإحساساتهم وحركاتهم وسكونهم مادة لموسيقاه، وكفاه الإسلام دينا ينير له طريقه الروحى . ورجائي إلى أبناء السودان الجديد أن يصلوا حاضرهم بماضيهم وأن يقتبسوا من نور الفكر فى كل أنحاء العالم، كما يجب عليهم أن يمدوا العالم بقبس من فكرهم، وعلى هذا ستصبح للسودان ثقافته الخاصة به المنفصلة عن الثقافة المصرية المستمدة منها بعض نورها والمشعة عليها بعض خيوطها الفضية الجميلة، والسودان وأبناؤه لابد ساعون لخلق ذاتيتهم وتكوين شخصيتهم وثقافتهم التى يجب أن يعرفوا بها لدى العالم، لأننا نريد الحياة والبقاء » .

فأعذرونا يا اخواننا المصريين ، وساعدونا على مانريد لأن فى إنفصال الأدبين وقيام كل منهما بذاته خيراً للبلدين . وثقوا أننا لانرضى بكم بديلا ولكننا لانستطيع أن نقول لكم إننا نفضلكم على أنفسنا فهذا منطق لايقبله العقل. وحسب مصر والسودان أن يتبادلا العطف وأن يتعاونا ماوجدا إلى التعاون سبيلا، وليكن ذلك التعاون قائما على المساواة بين الطرفين، وعلى الإحترام المتبادل حتى ينتج نتاجاً حسناً ويؤتي أكله بعد حين .

---

١ اول رئيس تحرير لجريدة النيل

٣٤

ادباء معاصرون [١]

هذا كتاب أصدره الأديب حبيب الزحلاوى وتكرم وأهدى نسخة منه الى مجلة الفجر وطلب إليها أن توافيه بنقدها للكتاب ، وأبي رئيس التحرير إلا أن يجشمنى هذا المركب الصعب ، فدفع بالكتاب إلى وحملنى مسئولية القراءة والنقد والتعليق ، وأنا رجل أخشى غضب المؤلفين وما أسرع ما يغضبون فى هذا الزمان ، وأحاول جهدى أن أكسب صداقتهم ولكنى لا أرضى ان أدفع ثمن تلك الصداقة غالياً ، لا أرضى أن أدفع ثمنها بقول لايطابق الواقع وقد يحاسبنى عليه النقاد حساباً عسيراً ، وقد يشق على أن أقول كلاماً لايرضى ضميرى ، ولايرضى الأدب لأكسب صداقة أديب قد لاتدوم لأنها قائمة على أساس غير صحيح من المجاملة وبهرج القول وسرعان ما تنهار وأعود أدراجى وأنا لم أربح الصديق الجديد ، ولم أرض ضميرى ، ولم أخلص للأدب . على هذه الحال تناولت الكتاب وقرأته بإمعان شديد وأعدت قراءة بعض موضوعاته عساى أن أجد فى الكتاب مايبسر لى كسب صداقة المؤلف وإرضاء ضميرى ولكنى عدت مقتنعاً بأن صداقة المؤلف ميسورة سواء قلت أجاد أم لم يجد لأن الكتاب ذاته فصول نقدية حمل فيها المؤلف على مغالاة الأدباء المعاصرين والشباب منهم بوجه خاص فى كتابة مقدمات كتب أصدقائهم ومن يتتلمذون لهم من الكتاب والشعراء ، وثار على هذه الفوضى الأدبية التى كادت تغمر كل نتاج أدبي يصدر فى مصر ، فلم نستطع التفريق بين الجيد والردىء ولا الصحيح والزائف ، وكاد الحق يضيع بين عبارات المدح المنمقة والفاظ العبقرية والنبوغ والذكانة التى تكال بغير حساب لكل من مسك القلم وأجرى على القرطاس حديثاً تقبلته منه الصحف أو تولى نشره على الناس بعض مريديه الذين وقفوا جزءا من مالهم لإكتساب مودة الأدباء الناشئين وضمهم إلى صفوفهم ليسبحوا بإسمهم . ورجل كهذا يثور على مثل

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الثالث والعشرين – فى ١٦ يوليو ١٩٣٥

تلك الظاهرة الأدبية السيئة ويفرد لها كتابا للنقد بصدر رحب وعلى الأخص ان كانوا ممن لاتربطهم معه صلة لابخير ولاشر ولاينظرون إلى كتابه إلا بالعين المجردة عن كل غرض، الباحثة عن الجمال والقوة والحق فى أعمال الأدباء لتساعدها على النمو والإزدهار وتقضى على ما سواها .

موضوع الكتاب طريف وجدير بالعناية، فقد أفرده صاحبه لتوضيح ظاهرة متفشية بين ادباء العصر، ولايكاد ينجو منها إلا القلائل من الذين وهبوا حساً دقيقاً وروحاً أدبية نزيهة وكان لهم من أنفسهم وازع وخافوا محاسبة الأجيال المقبلة . وهذه الظاهرة تنحصر فى ناحيتين : الناحية الأولى مغالاة الشباب فى تقديم كتب أصدقائهم إلى القراء حيث يكيلون المدح بغير حساب ويظنون انهم يخدمون بذلك أصدقاءهم وبنوبهم ، ومغالاة الشباب لاتقف عند هذا الحد بل تتخذ شكلاً آخر أشد وطأة وأكبر خطراً ألاوهو التودد الى أدباء الشيوخ والإشادة بهم وتنظيم الدعاية لهم، وبهذا يفقد الشبان مكانتهم ويحاولون أن يظهروا على حساب أولئك الشيوخ الذين يشيدون بهم ويحاول أولئك الشيوخ أن يشفعوا لهم وأن يقدموهم إلى القراء بما ليس فيهم فلا تنفعهم شفاعة الشيوخ، وهكذا يضيع ادباء الشباب بين المجاملة والدعاية دون أن يبنوا أنفسهم ولايكونوا لهم أساساً أدبياً يرتكزون عليه، ويبنون فوقه مجدهم ومجد أمتهم وسوف يمضى الزمن وهؤلاء الادباء فى غفلتهم وتدهمهم الشيخوخة وهم لم يتقدموا خطوة إلى الأمام ويدركهم الجيل المقبل من الشباب وقد يكون أقوى منهم شكيمة وأصلب عوداً وأجلد على مغالبة الحياة وأقل إكتراثاً بالمسنين من الادباء، وقد يكون جيلاً مجداً يمعن فى الدرس ويحاول الخلق والإبتكار وإنعاش الحياة فى القطر ويفلح فى ذلك، وقد لايرحم أولئك الأدباء الذين كانوا بالأمس ساهين، وهنالك سيندم هؤلاء الصحاب حيث لاتنفعهم مجاملاتهم الزائفة ولادعايتهم لكبار الأدباء .

والناحية الثانية تتلخص فى صلف شيوخ الأدباء وشغفهم بالشهرة ونشدانها فى كل السبل ومداجاتهم فى قول الحق حيث يمتدحون من يتقرب إليهم ويتمسح بأعتابهم من الأدباء ويهدمون من لايعبأ بهم ولايعطيهم أكثر مما يستحقون ، ويترقبون هفواته ويجسمونها وبذلك يفقد النقد وظيفته ويصبح آلة لإشباع الشهوات النفسية ولإجازة من يقدم الحسنة وللإنتقام ممن لايعرف غير فنه والإخلاص لذلك الفن. واولئك الشيوخ لايلبسون ثوب النقاد فحسب ولكنهم يقومون مقام الوعاظ والكهنة يمحضون النصح ولكن لاعن خلوص

نية وصدق عاطفة ، ويحيطون أنفسهم بجو من الطقوس والمراسيم التى تجعلهم أشبه بكهنة القرون الوسطى الذين كانوا يتحكمون فى كل نتــاج الفكر وفق هوى فى نفوسهم وبهذا يساهم ادباء الشيوخ فى إماتة الروح الأدبي الصحيح فى امتهم وفى قتل جرثومة التفكير الحر النزيه،ويساعدون على خلق جيل من الأدباء يدين بالتبعية ولايعرف لنفسه حقاً ولايقيم لها وزناً ولايفطن إلى حقيقة الأدب الذى كان ولايزال الداعى الى التجرد من النزوات الخبيثة والتمرد على كل مامن شأنه أن يقيد الفكر أو يحد حرية الرأى أو يقضى على العواطف النبيلة ، وجريمة الشيوخ فى هذا الأمر أكبر من جريمة الشباب وأشد إضراراً بالأدب لأن الشيوخ ينبغى أن يكونوا أشرف مقصداً وأعرف بروح الأدب من الشبان وينبغى أن يصدوا عن الشهرة ويقنعوا بما أصابوا فى شبابهم وأن يخلصوا لخدمة فنهم وأدبهم دون أن يتطلعوا لما يقال عنهم .

هذا موضوع الكتاب ولكن بقى علينا أن نرى هل أفلح المؤلف فى معالجة موضوعه وعرضه على القراء ، وهل كان موفقاً فى معرفة أصول الداء ووصف الدواء حتى يساهم بذلك فى تطهير الحياة الأدبية فى أمته ويدفعها فى الطريق الذى يؤدى الى النجاح وزيادة الإنتاج القيم المشرف للأمة المصرية خاصة والشرق العربي عامة ؟ ونحن نأسف لأن جوابنا على ذلك بالنفى لأن المؤلف لم يوضح لنا ما تلك المغالاة وما ذلك الصلف ولم يستقص أسباب الداء ونتائجه ولم يصف الدواء بل ذهب فى سرد الأمثلة فما ترك مؤلفاً أخرج فى السنوات الأخيرة إلاوساق الحديث عنه وعن مقدمته ، فهو لم يترك أديباً من ادباء الشباب الذين كتبوا المقدمات إلا ورماه بهذا الداء وساق البرهان مما كتبه،ولم يترك واحداً من ادباء الشيوخ الذين يحاولون كسب صداقة أدباء الشباب ويرغمونهم على تلك المودة سواء بالنقد أم بالنقد الصارم أم بالتدليس ، وعلى هذا أصبح الكتاب عبارة عن مجموعة من النتف التى تكتب لملء الفراغ فى أعمدة بعض الجرائد اليومية دون أن يلتفت أحد إلى قراءتها وإذا إلتفت وقرأها فلن يعيرها أهمية ولن يخرج منها بزبدة يحسن السكوت عليها . ولقد حاول المؤلف أن يعرض علينا أولئك الأدباء واحداً واحداً ويضع أصابعنا على مواضع الضعف منهم،ولكنه كان يتحامل ويغالى فى التحامل والمغالاة من التقريظ والثناء ، ولايحسب حساب المستقبل . وليت ادباء الشيوخ يطلبون الشهرة عن طريقها السوى ولكنهم يشترونها كما بين المؤلف بأموالهم حيناً وحيناً آخر بتهديداتهم ووعيدهم .وعلاج ذلك فى قــوة الشباب التى سيكتسبونها عن قريب،وفى رجوع الشيوخ إلى رشدهم وإهتمامهم بتوطيد مجدهم ومجد أمتهم وترفعهم عن إصطياد الشهرة الزائفة .

ولعل من الخير أن نقول كلمة عن اسلوب الأديب ولغته قبل أن ننتقل الى النقطة الأخيرة من مقالنا .

كانت لغته سليمة إلى حد بعيد ولم نلاحظ عليه إلا فتحة همزة ان المحكية بالقول وأشياء اخرى قد تعزى إلى عدم الدقة فى الطبع أما اسلوبه فكان مضطرباً غير متماسك،ولعل ذلك ناتج عن الخطة التى إتبعها فى عرض موضوعه فى مقالات قصيرة نشر بعضها فى الجرائد اليومية والبعض الآخر لم يقدر له أن ينشر،ولعل السبب الجوهرى فى إضطراب الأسلوب وفقدانه للقوة والجمال والسلاسة التى نتطلبها فى أسلوب أديب ناقد يحاول تهذيب المعاصرين من الأدباء راجع إلى لغة المهاترة التى كانت تفيض بها صفحات الكتاب،ولإنعدام الفكرة الأساسية التى تنتظم الموضوعات،وأكبر الظن ان الأديب لم يفكر فى وضع كتاب مربوط الأجزاء،إنما كان كبير همه أن يراسل الجرائد ببعض فصول فى نقد زملائه،وعندما وقفت الجرائد فى سبيله كما أخبرنا جنح إلى جمع هذه المقالات — مانشر منها ومالم ينشر — فى هذا الكتاب .

وحيث ان الكتاب يعالج المغالاة فى كتابة المقدمات كان من واجب المؤلف أن يحدثنا عن كتابة المقدمات وهى تكاد تكون عند الغربيين فناً قائماً بذاته،له أصوله وقواعده كالقصة والدرامة والمقالة . بل هنالك بعض الكتاب الذين لم يتفرغوا تفرغاً جدياً لغير كتابة المقدمات وعليها وحدها يرتكن مجدهم الأدبي . وأنت عندما تقرأ مقدمة لمؤلف اوربي تلاحظ جلياً ان كاتب المقدمة يسلك إحدى طريقين ، اما أن يكتب تحليلاً نقديا للكتاب يوقفك فيه على مواضع القوة والضعف والجمال والقبح على السواء ويحلل لك روح المؤلف وطريقته فى التفكير والكتابة والظروف التى أحاطت به وجعلته يحسن أو يسيء فى كتابه— وكتاب المقدمات لايراعون فى ذلك صداقتهم للمؤلف لأنهم يخشون النقاد ويتهيبون حكم الزمن—وأما أن يتناول موضوع الكتاب ويكتب فصلا يوضح فيه فكرة الكتاب بجلاء ويضفى على آراء الأديب الذى يقدم كتابه ثوباً قشيباً يحببها إليك فتندفع إلى قراءتها وأنت جد متعطش لتأتي على ماحواه الكتاب. وبعض هذه المقدمات تغنى القارئ المجترئ عن قراءة الكتاب،وفى كلتا الحالتين يلتزم الكاتب جانب الصدق والإخلاص لفنه أكثر من إخلاصه لأصدقائه .

هذا ولايفوتنا فى ختام كلمتنا أن نشير إلى الروح النبيلة التى دفعت الأديب الزحلاوى إلى طرق هذا الموضوع الذى لم يتصد إليه غيره من الادباء المعاصرين،ونشكر له

إخلاصه وجهده ونتمنى لكتابه كل ذيوع . كما اننا نتمنى أن نراه أعمق بحثاً وأكثر إهتماماً بموضوعاته فى مؤلفاته المقبلة،ونسأل الله أن يطهر الأدب المصرى من كل العيوب التى تكتنفه فى الحاضر،لأن فى تطهيره وتقدمه تطهيراً وتقدماً لأدب اللغة العربية فى كل الشرق،لأن الناس يحلون مصر ويضعونها مكان الزعامة ويقتفون آثارها فإذا وفقت مصر وفقنا وإذا فشلت فلن نهتدى إلا إذا هيأ الله لنا من أمرنا رشدا .

٣٥

اديب (١)

تأليف الدكتور طه حسين

تلخيص وتعقيب

الدكتور طه حسين من ادباء مصر البارزين وينفرد بنزعته العربية الأصيلة ودراسته لأدب العرب القديم وتاريخهم والإستنباط مما يقرأ كما فعل فى حديث الأربعاء والأدب الجاهلى وعلى هامش السيرة . والأخير يمتاز بأسلوبه القصصى وسلاسته وسهولة عباراته وجزالتها ،لأن المؤلف قصد منه تحبيب القديم من التراث العربي إلى من ينقصهم الجلد والصبر على دراسة الكتب القديمة وأسانيدها المطولة والتوائها وتعقدها ، وشاء أن يجعل الأدب العربي القديم مصدر وحى للمحدثين من الأدباء كما كانت «الإلياذة» مصدر وحى للادباء فى اوربا ولاتزال . وللدكتور جانب آخر هو جانبه الغربي ،وإذا أردت التحديد فقل الفرنسى ، فهو من الأفراد الذين أتاحت لهم ظروفهم التعليم فى فرنسا وإنقطعوا للتحصيل واستفادوا مما درسوا وأفادوا . فهو واسع الإطلاع فى الأدب الفرنسى كثير الشغف به وبفرنسا مصدر كل حسن وفن وحرية . وانه لكثير التطلع ليدخل أساليب الأدب الفرنسى وقوالبه التى ينصب فيها إلى لغة الضاد، يساعده على ذلك تمكن من اللغة العربية لايتوفر إلا للقليلين من نظرائه الذين كان الأزهر مطلع شمسهم والجامعة المصرية ضحى حياتهم ، حيث تلقوا فى الأزهر أصول اللغة وفقهها وتوسعوا فى دراستها، وحيث أتاحت لهم الجامعة المصرية تطبيق تلك الأصول بما منحتهم من حرية الإنشاء والمحاضرات . وكان نتاج الدكتور بعد ذلك التطلع « كتاب الأيام » و« فى الصيف » و « أديب » والأخير هو الذى نريد تلخيصه والتعليق عليه .

* * *

هى قصة اديب من ذلك النفر الذى يقرأ ويكتب لأنه محتاج إلى القراءة والكتابة

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الأول – العدد الرابع والعشرين – فى ١ أغسطس ١٩٣٥

إحتياجه إلى الطعام والشراب والتدخين . لايكاد يحفل بالذى يكتبه ولا بما كتبه ولا يجد متسعا من الوقت ليفكر فى عواقبه . ويقرأ ويمعن فى القراءة حتى يعييه الجهد، ويكتب ويطيل فى الكتابة حتى يمل الكتابة ، بل انه ليوحى إلى أصدقائه ومعارفه ضروباً من التفكير والتخيلات بما يحدثهم عنه من مرئياته ومطالعاته ، ما يسخطه منها وما يرضيه، ومايضعه لهذا التفكير وتلك التخيلات من الصور الإنشائية . يكتب ولكنه لايذيع مايكتبه فى الصحف ولاينشره على الناس إلا إذا ألح عليه المقربون من أصدقائه فيقرأ عليهم فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر بما أملتها عليه يقظته، أو نسجتها هواجس أحلامه. وكثيراً ما طلب إليه أصدقاؤه نشر ما يكتبه فلا يجيب طلبهم لأنه يكتب لنفسه دون الناس.

كان قبيح الشكل نابى الصورة ، قصيراً، وعلى قصره عريضاً ضخم الأطراف ، لم تكن قد تقدمت به السن، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز الثلاثين فقد ظهرت علامات الكبر على وجهه . وكان صوته خشناً غليظاً، وضحكه داوياً كالرعد، ولم يكن للنجوى معه من سبيل، وكثيراً ما ضايقه هذا فى باريس . وعلى رغم هذا كله كان أحب الناس إلى المؤلف وأكرمهم عليه وآثرهم عنده وأقربهم إلى نفسه، يزوره فينصرف إليه عن كل شئ ويجد إلى قربه متعة ولذة. عرفه فى القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس، ثم أدركه فى باريس، عرفه مصادفة فى الجامعة المصرية أول ما أنشئت، وكرهه كرهاً شديداً لأنه كان يهزأ بزيهم الأزهرى وينكر إهتمامهم بما يسمعون من محاضرات هى عنده من ضروب اللغو . ثم تعارفا وتعاهدا على أن يتعاونا على الدرس والتحصيل . حيث يقوم بتدريس الأزهرى مافاته من العلوم العصرية إلى جانب اللغة الفرنسية التى لابد من معرفتها، ويقوم الأزهرى الكفيف بتدريسه الفقه والأصول، ويتوسع معه فى دراسة اللغة العربية . وكانا يجتمعان ويفترقان فى منزل أحدهما أو فى دار الثاني أو فى مقهى من المقاهى التى اعتاد طلاب الأزهر والمتأدبين الجلوس إليها ، ولكن دون أن يأخذا فى الدرس ، بل إن صديقه ليقطع معه الساعات الطوال فى إستذكار أيامهما الماضية فى الإبراهيمية، ويمعن فى وصف الشوارع والحوارى والحدائق والناس والباعة، ويصف مجالس الأنس عند الأصدقاء وعلى جانب القناة حتى يكاد يعيد حياتهما سيرتها الأولى ، وإذا ما أخذ الإعياء منهما كل مأخذ إنفض مجلسهما ليلتقيا إذا ما جن المساء فى اليوم التالى . وكانا يكثران اللف والدوران فى أنحاء القاهرة لأن الأديب بوهيمى قلق لايستقر به المقام فى مكان .

إنقضى العام الأول والثاني والثالث من حياتهما فى الجامعة على هذا النحو دون

أن يتقدم أولهما فى دراسة المنطق، ولاالثاني فى دراسة الفرنسية، ولكنهما تقدما فى سوق هذه الأحاديث التى تلم بكل شيء ولاتكاد تتقن شيئا، ولكنها تفتح القلب والنفس لضروب من العواطف والخواطر، وتبعد بهما عن الطريق التى رسمها كل منهما لحياته . فالأديب الذى كان يبتغى أن ينفق حياته موظفاً ويزيد إلى مبلغ ثقافته يوماً بعد يوم قــد ضاق بقيود الوظيفة وأصبح شديد البرم بمصر ولايفكر إلا فى أن يعبر البحر إلى فرنسا يطلب فيها العلم والأزهرى الذى كان يبتغى أن يكون كالإمام محمد عبده مجدداً وحاول أن يستعين بدروس الجامعة للوصول إلى غايته لم يعد يحفل بالأزهر ولابدروسه، بل أصبح كبير همه أن يعبر البحر إلى فرنسا يطلب فيها العلم .

وكان أن قررت الجامعة المصرية إرسال بعض الطلاب كبعثة إلى فرنسا، فجاء الأديب إلى صديقه طالباً إليه أن يتوسط له عند بعض ذوى المكانة من معارفه، فتوسط له وكان أن تم لأديبنا بعد أسابيع مايريد، وأصبح أحد أعضاء بعثة الجامعة، وأخذ يتهيأ للرحلة إلى باريس . وذهب إلى الريف ليودع أبويه قبل مفارقة الديار المصرية، فكان أن جزع أبواه لهذا الفراق، وان أنكرا عليه ترك وظيفته والسفر لطلب العلم وراء البحار، وسخطت أمه على المدارس وتأسيسها، وكان أن ضاق بهما وضاقا به ، وخرج ذات يوم من القرية ينشد النزهة لينسى آلامه، فإذا به يمعن فى السير حتى بدت له معالم الإبراهيمية مهد طفولته فرآها تبدلت وتغيرت وعملت فيها يد العمران حتى كاد ينكرها ، فلم يجد الشوارع التى ألفها، ولا الحوارى ولا الباعة الذين كان يأنس اليهم، ولاالقناة التى كان يلهو فيها مع الرفاق ، وافتقد الكتاب وبيت الشيخ فلم يلفهما ولم يبق من الكتاب سوى نخلتين قامتا بين الأطلال المتهدمة، فأسف كل الأسف وسخط بدوره على المدنية التى تقلب الأوضاع وتمحو مواضع الذكريات. ولقد إفتقده أهله طيلة النهار وعند الظهيره، حتى إذا جاء العصر ولم يبن له أثر إزدحمت الظنون وجاشت فى نفوسهم الأوهام، فظنوه غادر القرية غاضباً وأسفوا لأن يغادر مصر دون أن يودع أحداً، وعلى الأخص امه ووالده الشيخ ، ويئسوا منه. عاد إليهم يقص من أخبار الإبراهيمية ماتقدم ، وكان أن رضى أبواه ووافقا على سفره فودعهما وذهب إلى القاهرة ليعد نفسه للسفر .

وكان نظام الجامعة لايسمح بإرسال أى طالب متزوج فى البعثات ، وكان صاحبنا متزوجاً وكان بين أمرين أحلاهما مر : الكذب أو الظلم ، أما الكذب فهو لايرضاه ومن العيب الفاضح أن تكون فاتحة أعمال طالب العلم الكذب . وأما الظلم ولأقرب الناس له

وأحبهم إلى نفسه فأمر لم يوطن نفسه للقائه . هو بين أحدى إثنتين، أما أن يكذب على الجامعة فيقول إنه غير متزوج ، أو يطلق « حميدة » التى لم تجن ذنباً، وإلا فقد الفرصة بعد أن تمت أسبابها وبعد أن نجح فى إمتحان الجامعة . إستشار صديقه الأزهرى المجدد ، فجعل يقارن بين هذا العلم الذى يصفه ويبالغ فى وصفه والذى قد يتاح إدراكه فى مصر دون سفر ودون تجشم تعب . وبين هذه الزوج المخلصة الأمـــينة ، وأخيراً أشار عليه بأن يهجر العلم ويبقى الزوج . ولكن هذا الحل لم يرض الأديب، وظن أن هذا الجدل مضيعة للزمن فهو لايكره الكذب ولايخشاه وطالما أباح لنفسه أشياء يحرمها الدين، ولكنه يخاف الكذب لما سيدفعه إليه من الآثام ، فهو مصمم على الرحلة وواثق من أنه سيلاقى فى اوربا من ضروب اللهو والإغراء مايدفعه إلى خيانة زوجه والكذب عليها بأنه يحبها ولايخون عهدها ، وإنه ليهون عليه أن يطلقها ليكون حراً لايسىء إلى أحد إلا نفسه . واستغرب الأزهرى القح هذا الإصرار على إرتكاب الرذيلة، وثار فى وجه صديقه ثم أسف لأن هذه الحادثة كشفت له عن نفسيته الدفينة، فهذا التجديد الذى يظهره إن هو إلا بهرج خارجى، أما فى قرارة نفسه فهو أزهرى يحرم مايحرمه رجال الأزهر .

عزم الأديب على السفر، وأمضى العقد مع الجامعة ولم يكذبها، فقد أرسل زوجه الى الريف وسيبلغها الطلاق إذا كان الغد . ولكنه قضى ليلة نابغية تساوره فيها المخاوف والأشباح، فما قصد داره الاتمثلت له « حميدة » حانقة عليه وصار فى حالة قلق نفسى شديدة تكتنفها حيرة بعيدة القرار . ولكن حبه للعلم دفعه لأن يكتب إلى والده ليبلغ « حميدة » أمر الطلاق . ولقد كتب إلى زوجه رسالة يشرح فيها قلقه وحيرته وجحوده للنعمة وقسوته وظلمه، وإنتهى به الأمر أن يعطى تلك الرسالة إلى صديقه، لأن « حميدة » لاتقرأ حرفا واحداً، وإذا استطاعت أن تقرأ فلن تفهم ما كتبه . ركب السفينة وعبر البحر وحاله لم يتغير، فلم يكد يجلس لحظة إلا وتصور حميدة أمامه، ولم ينم طول ليله لأن ذكراها تؤرقه . فحميدة أحسنت اليه أولاً وآخرا ، فأبواه كغيرهما من أهل الريف خطبا له إبنة عمه، وهى على جانب من الحسن ، وكانت البنت تكره أن يذكر أمامها هذا الزواج ولكنها لم تظهر الكره حتى إذا جاء دور التنفيذ خرجت على التقاليد وقالت انها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الفتى الدميم . فأنكرت حميدة هذا الرفض وكان إنكارها سبيلا للتعارف، فالخطبة، فالزواج . على أنها كانت أبرع من إبنة عمه حسنا وأكثر مالاً وأشد ذكاء .

وصل فرنسا وقضى في مرسيليا ليلة نسى فيها تعب الرحلة ونام نوماً عميقاً ولم يساوره القلق، فقد كان الفراش وثيرا حبب النوم إليه . وفى الصباح أيقظته فتاة الفندق، وكانت رشيقة بارعة الجمال عذبة الصوت، علمتها المهنة كيف تستهوى الناس ، فجن صاحبنا بالفتاة وظنها ملاكه الحارس ، فإذا جاءته بطعام الإفطار وكادت تنصرف؛ حاول أن يستبقيها فأفهمته أن عليها واجبات نحو غيره ينبغى أن تؤديها، وظل طعام الإفطار أمامه إلى أن عادت اليه فألفته كما تركته ، فقال لها: ألم أقل لك إني لا أستطيع الأكل إلا إذا كنت إلى جانبي ، فأصاب ما تيسر من الطعام . وفى مرسيليا لأول مرة تناول النبيذ على المائدة لأنه الفى الناس لايشربون الماء على المائدة ، وعرف الجعة وأدمن فيها، وبعد أن كان مقررا أن يغادر مرسيليا قبل المساء بقى فيها أسبوعاً كاملاً من أجل تلك الفتاة . . . إستقر به النوى فى باريس، وقابل مراقب البعثة وتودد إليه، وإنتسب الى الجامعة ولم يبق بد من أن يتردد عليها إذا ما انقضت عطلة الصيف وطلب إلى المراقب أن يسمح له بالسفر إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوها قريب من جو مصر . فلم ينكر عليه ذلك ولكن نهاه عن مرسيليا وحسن له « كان » ومنحه أجر السفر على حساب الجامعة فى الذهاب والإياب . وكان أن مر بمرسيليا ونزل فى ذلك الفندق واستوثق من أن « فرنند » ستلحق به لأنها لها الحق أن تستريح وتصطاف وإن كانت خادمة . وهكذا قضى معها زمناً سعيداً وقضى فى الوحدة بعد سفرها زمناً مظلماً تعساً . وعاد إلى باريس مثقلاً بأمراض ما كان له أن يبرأ منها لولا عطف مراقب البعثة وعنايته .

أقبل على الدرس والتحصيل، فأدرك فى سنة مالايدركه غيره فى سنوات ولم يكتب طول هذه المدة لصديقه الأزهرى ولا لغيره، بل كان صديقه يتلقف أخباره عن إدارة الجامعة، فيعلم أنه متقدم فى دراسته متفوق. وكان الأزهرى يمنى نفسه أن يلحق بصديقه وهو لايخشى الفتنة فقد تقطعت به أسبابها وها هو يتأهب لامتحان الأزهر الذى أخفق فيه، ويتهيأ لامتحان الجامعة الذى نجح فيه، ومضى عام آخر لم يكتب فيه صديقه وهو يسأل عن أخباره، فيعلم عنه أنه متقدم فى درسه متفوق فيه، وأصبح رمزاً للجد فى العمل والتوفيق فى الحياة . وقد تهيأت أسباب الرحلة إلى فرنسا لصاحبنا الأزهرى، وبينا هو يتأهب للسفر إذا بالحرب الكبرى تعلن، وإذا كل شىء قد تغير، وإذا الرحلة تؤجل، وإذا صديقه يكتب اليه محزونا لهذه الظروف التى حالت بينه وبين السفر إلى فرنسا، متألما لحاله لأنه ليس له بين المصريين المقيمين فى باريس صديق يأنس اليه، إذ هموم قوم متخاذلون متنافسون

يمكرون لبعضهم ويكيدون، ولايهتمون إلا بالتافه من الأمور، ولكنه إتخذ من الفرنسيين أصدقاء أحبهم وأحبوه غير أن الحرب حرمته لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً، فالمصريون قد فروا بأنفسهم هرباً من الموت الذى سيغزو باريس، والفرنسيون دفعوا بأنفسهم إلى الموت ليردوه عن باريس . والأديب الوفى الذى ألف باريس ونعم بالحياة فيها أبى أن يفارقها وآثر الموت فيها، وظل ينهب ملذاتها مستعداً للقاء الموت الذى سينزل بها وإلى جانبه « ايلين » التى أحبها وأحبته ، والتى كانت تحمله على الدرس فيدرك فى أسبوع مالايدركه الآخرون فى شهور ، وتصرفه عن الدرس فينصرف عنه وينسى ماعرف .

وكان أن سافر الأزهرى إلى فرنسا إبان الحرب والتحق بجامعة « مونبليه » وكتب إليه صديقه ساخطاً على الجامعة التى تعود طلبتها على الجبن وتنتظر أن يكونوا أساتذة يتخرج على أيديهم طلبة هم ذخر الوطن ، ويحدثه عن باريس التى ليست فى دور العلم ولافى دور اللهو، بل فى ميدان القتال، تدفع الموت وتذوده عن الوطن ، ويخبره عن أن الأساتذة الذين يسمع عنهم العلم هم شيوخ أقعدتهم السن عن حمل السلاح أما أساتذة السوربون الذين يتوفر فيهم الشباب فقد ذهبوا إلى ميدان الحرب، ويمنيه بأن يجىء الى باريس بعد أن تستقر الأمور، ليسمع العلم الصحيح ويشهد الحياة الجميلة الحرة، ويعلن له فى أسى أنه لن يفارق باريس إلى مصر، وإذا قدر له أن يعود فلن يعود سليم العقل وإذا ذهبت حياته فى غير نفع فما أكثر أمثاله من شباب هذه الأيام .

أخذ عقله فى النقصان وصار يخفق فى إمتحاناته على غير عادته، فاللهو مع « ايلين » يذكره وينسيه . ووصل درجة الجنون وأخذ يهذى بأحاديث لايقرها العقل ، واذا بصديقه الأزهرى يعود إلى القاهرة دون أن يراه، لأن الجامعة ادعت أن ليس لديها من المال مايمكن الطلبة من إتمام دروسهم ، فيأسف الأديب لذلك، ويسخر من مصر التى تضن بالمال على طلبة العلم . ويعود الأزهرى الى باريس بعد ثلاثة شهور، فيرى صاحبه ولكنه لايكاد يعرفه لولا صوته، فقد تغير فيه كل شىء فهو بين حزن وفرح متواصلين وما كان ليحدثه عن العلم كما كان يحدثه فى مصر بل أخذ يحدثه عن السوربون قليلا وعن « ايلين » كثيراً . وبعد الصيف بدت عليه علامات مرض نفسى ، يقول إنه مريض والأطباء لايعرفون له علة، فهو وهم إنقضى إلى ذهول ففقدان للعقل . فصار يحسب أن كل صحف فرنسا تهاجمه وأن الحلفاء يوقعون به .

وبعد عام تحمل صاحبة البيت إلى الأزهرى حقيبة ضخمة ومعها رسالة من «ايلين»

تأسف فيها لما حل بخليلها وصديقه الذى أحبته وحزنت عليه ولن تنساه، وتقدم إليه هذه الحقيبة التى حوت أوراقاً أولى بها أبناء وطنه منها. وإذا بالحقيبة تبقى عند الدكتور بضعة عشر عاماً لايعرف ماحوته، حتى إذا أتاح له الظالمون شيئا من فراغ نظر فى هذه الأوراق فألفى أدباً رائعاً حزيناً صريحاً لاعهد للغتنا بمثله فيما يكتبه الأدباء المحدثون، وإنه لايدرى إذا كانت ظروف الحياة الأدبية فى مصر تسمح بإذاعة تلك الآثار .

هذا كتاب «أديب» كما وضعه مؤلفه، أطلت فى تلخيصه حيث كان يطيل الحديث واختصرت حيث كان يوثر الإيجاز . والكتاب رواية يحاول فيها صاحبها رسم صورة لبداية الحياة الجامعية فى مصر، ولسلوك طلاب العلم فى مصر وخارج مصر، ويتفرع به الحديث فيصف جانباً من حياة الريف وأيام الصبا . ولكن بقى علينا أن نرى هل الكتاب جدير بإسمه وهل إستكمل ما يستوجبه فن الرواية ؟ وإنه ليشق على أن أقول إن الكتاب غير جدير بإسمه، لأن الدكتور العميد ينبغي أن يكون مايصدره كاملاً إلى أبعد حد، فليس هو من المبتدئين فيتسامح معه النقاد، بل انه لمن يتطلع الأدباء إلى آثارهم ويتخذونها مثالاً يسيرون على هديه .

كنت أنتظر أن أرى أديبا يتخذه الشباب نموذجاً ، وحسبت أن الدكتور سيضع لنا فى روايته مثالاً حياً للأدب، فنهتدى إلى ما كنا نجهل، فإذا به يحدثنا عن رجل يحاول أن يتعلم ويترك زوجه فى سبيل العلم فإذا ماورد منهله حال اللهو بينه وبين مايريد . وإذا به يحدثنا عن رجل ينتج أدباً ولكن لم يطلع الناس عليه بعد . والادباء كما نعرفهم أناس يفرضون على أنفسهم إذاعة مايكتبون على الناس مثلما يفرضون عليها الكتابة فرضاً ، والأدباء أناس من دأبهم الزيادة الى عناصر الحياة، ولايهدأ لهم بال إلا إذا رأوا الحياة تنمو وتزدهر ، ويرون فى ذات الوقت أن نتاج الأدب يضيف الى عناصر الحياة ، وإلا لأحجم فحول العرب عن إذاعة شعرهم ولأحجم «شكسبير» و«برنارد شو» و«أناتول فرانس» عن إذاعة أدبهم ولأحجم الدكتور ذاته عن إصدار كتبه التى يجد الناس فيها لذة ومتاعاً .

ثم أرى الدكتور لايحفل كثيراً بموضوعه، ولايرتب فصوله وأراه ، يسوق لنا الحديث تارة فى حوار طويل صاخب شاق بينه وبين صديقه يكاد يسبب للقارىء دواراً، وتارة فى رسائل مطولة لايمكن أن يكتبها صديق إلى صديق ، ورسائل يلتوى فيها الحديث ويتعقد التواءه وتعقده فى الحوار بين الصديقين. ويحاول الأديب أن يلم فيها بكل شىء ولكنه لايبلغ فيها شيئا. على أني قرأت من الروايات لـ «اناتول فرانس» ولـ «دكنز» ولـ «الدوس هكسلى»

فما رأيت أحدهم يسلك هذه الطريق التى سلكها الدكتور . وأسلوب الدكتور السهل الجميل لانجده فى هذه الرواية . فهو يطيل الوصف والإستذكار، ويعيد الألفاظ ويكرر الجمل حيث لاداعى للإعادة والتكرار، ونصف الكتاب الأول مقدمة لما سيأتي بعده وهذه المقدمة مضطربة، يزيد فى إضطرابها محاولة الدكتور تصوير الحياة المصرية، فتزدحم بذهنه المواضع والأشخاص ، وتتنوع فى نفسه العواطف والذكريات، فلا يدرى أيها يهبها عنايته ويحصر عليها حديثه، وهكذا حاول أن يصور كل شيء فأفسد كل ماصور . وأين هذه الصور الباهتة الفاترة من الصور الجميلة الواضحة القوية التى كان يفيض بها كتاب «الأيام»

وأما نصفه الثاني حيث ذهب الأديب إلى فرنسا فجميل واضح الصور متسقها . وعيبه انه كان فى رسائل .

وكتابة الرواية تحتاج إلى خيال واسع يحيط بكل مايريد الكاتب تصويره ، ثم تحتاج الى تركز وحسن إتجاه ، ثم تحتاج الى معرفة أكيدة بفنون الحوار ، وربط العقد وحلها وبأحكام المفاجأة. ونحن لاننكر على الدكتور طه – وهو عميد كلية الآداب – تمكنه من كل فنون الأدب، ولكننا لانحسب من السهل على من يملىء أن يخرج رواية واضحة المعالم متصلة الأطراف محبوكة الحوادث . وحسب الدكتور هذه الصور المتناثرة هنا وهناك فى الكتاب عن ريف مصر وعن حياة اللهو فى باريس ، ولئن فشل الكتاب كوحدة فنية فلن تعدم هذه الصور من يلتفت اليها من طلاب الصور، يقرأها ويستسيغها ويجد لذة فيها لاتعدلها لذة ، ويتذوق أسلوب الدكتور السهل الجميل ويتمتع بحديثه الذى لايمل، فهو عندما يكتب إنما يتحدث إلى قرائه، حسبه هذه الصور المتناثرة هنا وهناك فى الكتاب، فهى عزاء لمن لايجد العزاء ، وحسبنا أن ننتظر من الدكتور «ذلك الأدب الرائع الحزين الصريح الذى ظفر به فى حقيبة أديبه » فنحن جد موقنين أن الدكتور سيذيعه إذا كانت ظروف الحياة الأدبية فى مصر تسمح بإذاعته أولا تسمح ، لأننا عهدنا الدكتور حراً صريحاً لايحفل بما يصادفه فى سبيل الأدب وحرية الفكر، وما ذلك الأدب الرائع الحزين الصريح الذى يزعمه وينحله لأديبه المجهول إلا من نتاجه، وماعهدنا الدكتور يتحمل مسئولية وأد بنات أفكاره . وها نحن لذلك الأدب مترقبون – فصدق الآمال أيها العميد وخيب الظنون .

٣٦

الصداقة الفكرية (١)

إعتدت كما إعتاد سواى أن أرتاد دار السينما مرة فى الأسبوع لأشهد على الشاشة فن هوليود من ناطق وصامت، وكم فى صامته من معنى تلمحه العين قبل أن تنقل الاذن إلى العقل والقلب معاني الجمل والألفاظ وترجمة التأوهات والتنهدات، وإني لاغشى تلك الدار لأنسى همومى عندها ساعة ولأمتع النفس بما تفيض به السينما من موسيقى وحركة ومرح ولأتبادل الملاحظات البسيطة والبسمات السريعة التى تفصح عن كثير مما اريد أو يريده صاحبى الذى لا أغشى تلك الدار إلا معه والى جانبه . ولكن السينما ككل مافى حياتنا من مباهج العلم والفن لايقف أثرها عند الترفيه وتزجية الزمن ، ولاتنحصر مهمتها فيما نريده لها نحن الأحياء من أغراض ومتع، فليالى السمر والغناء نجد فيها ما يشغل الفكر ويذهب بنا إلى الإمعان والتدقيق، وحتى الرقص من سوداني وإفرنجى لايخلو من حركة أو لفتة تلهب اللب وتشعل الفكر، فكيف بالسينما التى تقوم أول ماتقوم على نفثات أقلام المفكرين والروائيين. إنها لمما لا ريب فيه مجال للتفكير مثل ماهى مجال للمتعة والترفيه وليس عجيباً ان نجلس إليها لننسى أنفسنا وننقطع عن عوالم العمل والتفكير الممض فتردنا إلى التفكير على الرغم منا وتحملنا مئونة البحث والتنقيب والكتابة.

وموضوع هذا المقال أوحاه موقف على الشاشة فى رواية «اسرة برت» التى تدور حول الشاعر الإنجليزى «روبرت براونتج» والشاعرة الإنجليزية «اليزابث برت» اللذين كانت بينهما صداقة فكرية بدايتها ما قرأه كل منهما من شعر الآخر وما شعرا به من إتفاق فى الروح ومنحى التفكير وما عقب ذلك من مقابلات وتبادل للعواطف وما استجد من عطف سرعان ما إنقلب إلى حب قوى مثمر حيث كانت نتيجته الزواج لأن الشاعرين

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الثانى – العدد الرابع – فى ١ اكتوبر ١٩٣٥ .

لم يقنعا بتزاوج الأفكار حتى تم لهما تزاوج الأرواح والأجساد . وفي موقف من تلك الرواية ، كان والد «اليزابث» يقول إن بينها وبين الشاعر «براونج» صداقة فكرية ، ولكن لهجته لم تكن لهجة الواثق مما يقول، بل يكاد لايؤمن بهذه الصداقة الفكرية المزعومة . وفى هذه اللحظة أدار صاحبي وجهه نحوى وبرقت عيناه، فعرفت مايجول بخاطره لأنه الآخر كاد ينكر الصداقة الفكرية التى آمن بها من قبل، بل ويكاد يكون حسنة من حسناتها ولعل الذى جعله لايؤمن بها فى تلك اللحظة قيامها بين رجل وامرأة . فقلت مهلا يا أخى إن الصداقة الفكرية حقيقة لاتقبل الجدل وتاريخ الآداب فى كل الأمم يثبتها ويدلل على فائدتها وعملها على تقدم الفكر الإنساني . والى هنا إنتهى حديثنا وما كنت أحسبه سيتصل ولكن إعتزازى بالصداقة الفكرية وإيماني بفوائدها وحرصى على أن تقوى أواصرها بين أدباء الشباب لتكون الحافز الأول لتقدم الفكر فى هذا البلد ، دفعنى إلى كتابة هذه العجالة عن الصداقة الفكرية معرفاً بها وقاصاً بعض ثمارها فى تاريخ الآداب .

العطف الشامل والخلق الرصين وإنكار الذات هى عماد الصداقة الفكرية، يعززها الذوق الأدبي السليم الذى يمكن صاحبه من تفهم غيره من الأدباء والمفكرين وتقديرهم والعطف عليهم، وإنها لتحتاج إلى كثير من التضحية والأثرة، ولهذا لاتتوفر خصائصها إلا عند القليلين من رجال الفكر الذين يصبحون حلقة وصل أدباء عصرهم ومفكريه ويعملون على وصل ما إنقطع بينهم كلما دبت الخصومات وإشتدت . وهؤلاء الأفذاذ الذين يكبرون الصداقة الفكرية ويضحون من أجلها يخدمون عصورهم بما يبيئون للأدباء والمفكرين من صفاء فى الجو وتبادل للآراء وتلاقحها يجعل الأدباء والمفكرين أمام فيض من الآراء التى لايطيقون معها إلا أن يفكروا ويمعنوا الفكر ويخرجوا لأبناء جيلهم والأجيال المقبلة نماذج من الفكر يجدون فيها متعة وغذاء . والصداقة الفكرية قد تسبق اللقاء ، عن طريق القراءة وتبادل الأفكار فأنت إذ تقرأ لشاعر أو كاتب قصيدة أو صورة وتجد بين نفسك ونفسه تجاوباً وأن بينكما رباطاً من الفكر وثيقاً حتى تحسب ان ما يعبر عنه ماهو إلا تخيلاتك وأفكارك وأنه لو لم يكتبها لكتبتها أنت ، وحين تتفقد عواطفه وتتعرف ميوله فتجده يولى عطفه للجهة التى توليها عطفك ويميل إلى ما تميل ، تشعر أنك أمام صديق لاتمل صحبته وأنك إذا لقيته ستقضيان العمر فى هناءة وسعادة . وعلى هذا النحو قامت كثير من الصداقات الفكرية فى العالم بين الأدباء والمفكرين المعاصرين لبعضهم البعض كالصداقة التى قامت بين « روبرت براونج » و « اليزابث برت » وما عقبها من زواج وتأليف ضخمة فى الشعر وتجديد فى قوالبه وقوافيه ومعانيه .

وفى أجيال الإنتقال والنهوض حيث يكثر غالباً عدد المفكرين والأدباء ، تزدهر الصداقة الفكرية كما يتمخض إختلاف الآراء عن العداوات الفكرية . وذلك لأن عصور الإنتقال والنهضات تكون فيها مهمة المفكرين عسيرة،وكل من وجدت بينهم وشيجة من التفكير المشترك والغرض الموحد يجمعون كلمتهم وتنشأ بينهم رابطة قوية تزداد كلما تقدمت بهم الأيام،وذلك لأن النشاط الفكرى السائد على جماعتهم والآراء التى يتناولونها تقرب الشقة وتهيء النفوس إلى تعارف أكيد وتحابب قائم على العطف وتقديس الفكر وهذا النوع من الصداقة الأدبية الذى ينشأ بين أبناء الجيل الواحد هو الذى يخلق المدارس الفكرية ذات الطابع الخاص والتى تعرف فيما بعد بإسم الجماعة التى كانت تدعو الى تلك الآراء أو بإسم العقيده التى كانوا يدعون لها . وهذه المدارس الفكرية تبقى على الزمن ، وفى كل الأجيال لها من يشايعها ولها من يناهضها ومن هذا ترى ان الصداقة الفكرية بين أبناء الجيل الواحد لاتقف عند منشئيها ولكن يمتد ظلها إلى الأجيال اللاحقه،وهكذا تسمع بجماعة أصدقاء المعرى وجماعة أصدقاء إخوان الصفا وجماعة أصدقاء « شكسبير » وجماعة أصدقاء «لام » .

الصداقة الفكرية لاتقف إذن عند حد التعارف وتبادل الآراء والعطف بين المعاصرين ولكنها تتسع وتشمل من يأتي بعدهم ممن يقرأون لهم ويعجبون بآرائهم ونتاجهم الفنى وقد يكون لتلك القراءة وذلك التقدير والإعجاب أثرها فى خلق صداقة فكرية ليس بين الكاتب الذى يقرأ له وبين القراء ولكن بين أولئك الذين تتشبع أذهانهم بآراء من يقرأون له وتتأثر نفسياتهم بما يلمح بين سطوره من عواطف وأخيلة وإن دائرة هذه الصداقة لتمتد مع الزمن حتى توشك أن تكون رباطاً بين مختلف الأجيال فى مختلف الأمم،وتساعد على تنمية الفكر وإزدهاره،ولهذا كان أثر الصداقة الفكرية فى تقدم الأدب والفنون عميقاً وأصيلاً ، وكان ظاهراً للعيان .

و هنالك بعض الشخوص الظاهرة فى بعض الأزمنة والتى يبلغ إحترام الناس لها مبلغاً يجعلهم يتخذونها قطب الرحى لصداقتهم وإتصالهم وذلك لإشتراكهم فى الإعجاب بها والإشادة بذكرها والدفاع عنها . وأقرب مثل نضربه الأديب الإنجليزى الذائع الصيت دكتور«جونسون» الذى كانت له حلقة أدبية تجمع المعجبين به الشغوفين لتلقف أخباره وسماع حديثه الذى لايمل ، فقد كان من أعظم محدثي عصره وما كتاب صديقه « بزول » عنه إلا أصدق شاهد على براعته فى الحديث وتنميقه وإتصال سلكه .

وهذه الشخصيات الكبيرة وإن كانت لاتهتم بالصداقة الفكرية ولاتحفل بأن يكون لها من الأصدقاء عدد لاكثير ولاقليل لكنها تساعد على قيام صداقة فكرية متينة بين المعجبين بها والمقدرين لها، ولتلك الشخصيات الكبيرة عذرها لأنها دائماً تجيء في بداية عصر من عصور الإزدهار، وتكون بين معاصريها منفردة بالنبوغ وجلاء الفكر، فتحسب من الخير لها أن تضع حولها سياجاً من العظمة الذاتية يقيها من شرور من لايستطيعون تقدير الأفذاذ.

والنابغات من النساء والمتأدبات منهن بوجه خاص كن ملتقى الأنظار وقبلة المفكرين يولون وجوههم شطر مجالسهن للتحدث والتندر، وتلك المجالس وإن عرفت بأسماء مختلفة إلا انها كانت دائما مكان وحي وإيحاء، لأن سلطان المرأة يجعل تلك المجالس خالية من لغط الحديث، ويحمل المتحدثين على أن يتخيروا الموضوع وينمقوا اللفظ ويأتوا بالدرر ولهذا كانت هذه المجالس مكان غربلة الآراء وتصفيتها من الأدران وما أكثرما كان نتاجها خيرما يشرف آداب عصرها. فسكينة بنت الحسين كان يلتقى عندها الشعراء ينشدونها الجيد من شعرهم لتنقده وكانوا يحتكمون إليها لتميز بينهم وساعدت كثيراً بهذه الطريقة على تقدم الشعر العربي فى زمانها، وعلى الأخص النسيب والتشبب، لأنها كانت تهذب الأذواق وتصقلها وكانت تنبه الرجال إلى مالا يرتضيه ذوق المرأة ومالا يوافق طبعها، والمرأة أعرف بالمرأة من سواها. وفى فرنسا كانت الأديبة « جورج ساند » المسماة « بإبنة الفجر » ملتقى صداقة فكرية ومصدر إنتاج لها ولمن إتصل بها كالشاعر «دى موسى» والموسيقار « شوبان» ، كما كانت مدام « دى ستايل » من سيدات الصالونات التى نال الأدب الفرنسى بفضلها تقدماً محسوساً على يدى «فولتير» و«روسو». وما أكثر الأمثلة وأبلغها. ولعل الصداقة الفكرية تتخذ لوناً طريفاً وأكثر قابلية للإنتاج عندما يكون للمرأة أصبع فيها، لأن المرأة، وعلى الأخص إذا كانت أديبة لبقة ، مصدر إيحاء للرجل تدفعه ليأتي بالبراعات التى لايستطيعها لولا المرأة وفنها.

وقبل أن أنتقل بك أيها القارىء إلى ذكر الأمثلة فى تاريخ الأدب يجدر بي أن أحدثك عن العداوة الفكرية، لأنها لاتقل قيمة عن الصداقة وعلى الأخص إذا كانت نزيهة وقوامها تقديس الفكر ، فهى بدورها تساعد على تقدم الأدب والفنون والعلوم أكثر مما تعمل على تأخرها، والعداوة الفكرية تكون نتيجة عدم إتفاق فى وجهة النظر يعززه ماعند بعض المفكرين من إخلاص لمعتقداتهم وآرائهم، وعدم عطف على كل مالا يوافق منطقهم، وهى لاتكون بين الأفراد وحسب بل تكون بين الجماعات ، فكل جماعة تدين

بمذهب فكرى مخالف للمذهب الفكرى الذى تدين به الجماعة الأخرى تجد بينهما عداوة قد تتعدى الآراء إلى الأشخاص.وما أكثر الأشخاص وما أكثر ما يبغض أحدنا زيداً من الناس لا لأى سبب سوى انه عديم الإيمان بآرائه كارهاً لها بل تكاد تجسمه له فى أبشع الصور وأبغضها إلى النفس . والعداوة الفكرية إذا ساعدت على تقدم الفكر فإنما عن طريق النقد الصارم الذى يتبادله من تقوم بينهم تلك العداوة . والنقد الصارم يعمل على تصفية الأدران وقطع الطفيليات التى تعوق نمو المفيد من النباتات الذهنية .

والآن إلى الأمثلة من تاريخ الآداب ، ومعذرة أيها القارى اذا حصرناها على الأدب الغربي وذلك لأننا نريد ان نوقف الناس على أشياء قد تكون جديدة عليهم وطريفة وأول الصداقات الفكرية التي احدثك عنها صداقة «جيتى» و«شلر»شاعرى الألمان، فلقد تأصلت بينهما صداقة على الرغم من ان «جيتى» كان يكبر صديقه بسنوات عشر. والذى كسبه الأدب من وراء هذه الصداقة إشعال نار الحماسة والنشاط فى نفس«شلر»الذى كان بائساً ومريضاً فانعشته صداقة ذلك الشاعر العظيم ودفعته لأن يصدر خير تراثه الأدبى ، وإن لم تنتج صداقتهما سوى رواية « وليم تل » وهى آخر رواية أتمها «شلر» فى حياته لكفى وهى من الأعمال الأدبية ذات القيم الرفيعة،وأذكر أن صديقى الأديب محمد عشرى الصديق نقلها إلى العربية عن اللغة الإنجليزية فى ترجمة دقيقة ولكنها لاتزال سجينة فى مكتبه كمعظم ما كتبه، وذلك لضيق ذات اليد وفقدان الناشر .

ولننتقل إلى الأدب الإنجليزى ولنحدثك عن صداقات تمخضت كل منها عن أثر خالد فى تاريخ الأدب الإنجليزى. فالشعراء «بيرون» و«شلى» و« كيتس» كانوا أصدقاء يتبادلون الرسائل والآراء ويتهادون القصائد فيما بينهم ،وكانت نزعتهم الفكرية متحدة ولكن كل واحد منهم سلك طريقاً مخالفاً للآخرين فى التعبير عن أفكاره وتخيلاته وكانوا يلقبون بشعراء البحيرة ،وقد إمتاز «بيرون» بقوة شخصيته ،وماعنده من جاذبية ،وبقوته البيانية وتنوع موضوعاته وطرافتها. وأما «شلى» فكان شاعراً غنائياً ممتازاً على كل شعراء الغناء فى كل العصور ،وإن موسيقاه التى تساقطت إليه من مهمه الزمن فأرسلها لحناً عجز الزمن عن ان يجاريه لفريدة لايجود الدهر لها بمثيل. و« كيتس »من الشعراء العبقريين وكان يستقى قصصه من خرافات الإغريق (الميثولوجيا) ولهذا كان شبيهاً بشعراء اليونان فى منحى فكره وتصويره .

وفى بداية القرن التاسع عشر إزدهرت كتابة « المقالة » على أيدى نفر كان معظمهم إن

لم يكن كلهم أصدقاء يجمع بينهم لون من الفكر والمطمع ،على أن صداقتهم كان يعتورها بعض الفتور والتقطع فى بعض الأزمنة . وقام من بينهم واحد كان حلقة الوصل بين الجميع ،لأنه لم يعاد أحداً منهم ولأنه كان يضحى كثيراً ولايعبأ بالشهرة . وتلك الجماعة التى أحدثك عنها هى جماعة – «لام» ، «هازلت» ، «توماس دى كونزى» و«لى هنت» وهم كتاب المقالات فى القرن التاسع عشر ومقالاتهم لاتزال ذخراً لطلاب اللغة الإنجليزية والعاكفين على دراسة آدابها « ولى هنت » هو الذى كان حلقة الوصل وهو الذى كان يضحى ولايعبأ بالشهرة أما « لام » فكان شديد الحرص على أصدقائه لايفرط فيهم بل كان يجذبهم اليه برباط من حديد،وقد يحدث بينه وبين بعضهم شىء من الفتور ولكن سرعان مايعود الصفاء،وأما «هازلت» فكان كثير العداوات،وذلك لأنه كان ناقداً صارماً لايعرف المهاودة ، وهؤلاء الأربعة كانت لكل واحد منهم ميزته الأدبية،فقد كان«لام» أقدرهم على تصوير الحياة وعلى الأخص مايتعلق منها بشخصه من صور وأحاديث وكان «هازلت» ناقداً بصيراً صارماً وكان «دى كونزى» دارساً مبتكراً غير منتظم فى نتاجه وكان «لى هنت» جميلاً يحب كل جميل وإنسانياً يجد لذته فى الصداقة وحسن العشرة وكان فى أدبه ناقداً ولكنه غير صارم وخير مافيه جمال أسلوبه .

وحسب الأدب الإنجليزى هذا التراث الأدبي الثمين الذى خلفته له الصداقة الفكرية بين شعرائه وبين كتابه . والآن فلنتقدم إلى هذا الشرق العربي الحديث واذا قلنا الشرق العربي الحديث فالنظر لايتجه إلا نحو مصر،ولايلتفت الذهن إلا الى أدبائها ومفكريها،فمصر هى اليوم قبلة الأنظار ومتجه الأفكار . وإني لآسف أن أقول إن أبناء مصر ظلموا مصر وذلك لأن كبار أدبائها إبان نشأتهم لم يكن بينهم أى نوع من الصداقة الفكرية المنتجة. ولعل لهم عذرهم لأنهم كانوا الباكورة وكان كل فرد منهم يحاول تأثيل مجده الأدبي غير انهم بذلك لم يتركوا مثالاً حسناً للأجيال المقبلة . وإنا لنذكر الصداقة الفكرية التى كانت بين عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازني ولكنها لم تدم طويلاً حيث تألب العقاد والمازني على زميلهما،واستمرت الصداقة بينهما،وكانت واضحة الأثر فى نتاجهما الأدبي، فلقد قام العقاد والمازني فى وجه الأدب القديم الذى ثارا عليه وشذباه ماسمح لهما الزمن وماساعدتهما أفكار مواطنيهما،ولكننا نلمح الآن أن كبار الأدباء فى مصر بدأت الشقة بينهم تقترب وبدأ بعضهم يواد البعض ، ولعل ذلك ينتج صداقة فكرية بين أكثرهم إذا لم تفسد السياسة ماغرس ، وتكون تلك الصداقة بداية عهد جديد من الإنتاج الفكرى

السليم القائم على حسن التفاهم والتحابب ومبادلة الآراء، وستكون تلك الصداقة قدوة للشباب فى مصر والسودان، وعليه سيشهد وادى النيل جيلاً من الشباب المفكر الرشيد يعمل على تحريره من ربقة الجهل، فنحن لم نصب بالإستعمار السياسى فحسب، بل زدنا ألماً على ألم فإستعمر الفكر فى ربوعنا ، واليوم الذى يستقل فيه الفكر ليوم حبيب الينا كاليوم الذى ينال فيه هذا الوادى إستقلاله ويبلغ رشده .

٣٧

عرفات (١)

وانه لحديث حزين هذا الذى تحويه صفحات الفجر هذه المرة لأنها تنتظم دموع شعب كريم عرف لأبنائه حقهم فقدره، وشعر بفقدهم فبكاهم، ولأنها تفيض بأنات الشباب وقد فجع فى حامل لوائه، وتزدحم بالنظيم والنثير من كل لؤلؤى إكتسب الحمرة من دماء القلوب المفجوعة وفضى هو ذوب المآقى الحسيرة، وكم كنا نود أن يكون حديث اليوم فى الفجر من فيض قلم عرفات السحرى يعالج فيه ما استعصى من شئوننا العامة، ويحدثنا عن الواجبات، ويذكرنا بالحقوق، ولكن هكذا إرادة الله حكمت ولا راد لقضاء الله .

مات عند الفجر :

فى فجر ذلك اليوم المشئوم إستيقظت من نومى على صوت أقرب الناس إلى وأحناهم على عرفات فى أيام علته التى قضى بعدها، وماكدت أزيح الغطاء عن وجهى إلا وانفرجت شفتاه عن لفظتين لايزال صداهما يتردد فى أذني وقلبى « مات عرفات » وهنا إستولى على الذعر، وعقد لسان صاحبى وهو الذرب، وجاش صدره بالحزن وفاضت عيناه بالدموع وأجهش فى البكاء وعهدى به لايحزن على ميت ولايبكى على فائت لأن مهنته جعلته يرى الأموات فى كل يوم يغادرون هذه الدار الى دار أخرى ، ولكنه فقد الصديق العزيز والرجل النافع يلين القلوب القاسية ويبعث الشجون الكامنة ويفجر الدموع من الجفون الجافة . أجل « مات عرفات » وهأنذا أعدو فى الطريق حاسر الرأس شارد اللب أسكب الدمع فلا يبرد علة، وأرسل الصوت بالأنات الكامنة فلا يفرج كربة، وهأنذا أدخل داره فإذا كل من فيها حزين ثاكل وإذا بطفلتيه الحبيبتين قد جللهما السواد وإذا بزوجه الوفية قد ذوت كالغصن الذابل، وإذا بي أسترجع الذكريات سراعا، وإذا بي أرى آماله الكبيرة

---

(١) نشرت بمجلة الفجر – المجلد الثالث – العدد الثانى – فى ١٦ مارس ١٩٣٧

تنهار، واذا بي أرى مجلسه العامر ينطوى، واذا بي أرى الصحب يتلفتون ليروا هل من فتى يعقد له اللواء فترد الأبصار حاسرة لأن الفتى قد قضى نحبه ولأن رب اللواء قد سقط فى حومة الجهاد ولم يبق سوى الجند ، فأبكى ويبكى من حولى ولكن ماذا يجدى البكاء .

النعي :

وما كادت أشعة الفجر الفضية تمحى من أثر الفاجعة الأليمة وترتفع الشمس إلى كبد السماء ولكن بها كلف من أثر الحلكة التى كست الوجوه وأعشت العيون إلا واقبلنا على بعضنا نتفاكر ونقول ولكن لعرفات علينا حقاً أكثر من هذا البكاء لابد من القيام به، ولأمة عرفات علينا بعض الحق لابد من وفائه وأول ما فكرنا فيه أن ننعيه لأمته، وهنا عقدت الألسنة التى تحسن الإملاء وجفت الأقلام التى ما عودت الجفاف فهذا يدفع القرطاس إلى ذاك وهذا يحاول أن يملى فلا يفلح، فأيقنا أن الفجيعة لم تقف عند حد وان هذا الموت لم يكفه القضاء على واسطة عقدنا وريحان مجلسنا بل ضاعف الفقد بأن عقد السنتنا وشل أقلامنا فعجزنا حتى عن نعى عرفات . وأخيراً بأيد مضطربة وشفاه راجفة وأكباد واجفة دفعنا إلى المطبعة النعى الذى وزع على سكان العاصمة المثلثة فى حينه والذى نشرناه فوق هذا الحديث فكان نعيا حزينا مضطربا يدل على أن الحزن عقال الألسنة الذربة وقيد الأقلام التى لايكبحها قيد .

مشهد الجناز :

وما كاد النعى يصل إلى أيدى الناس إلا وانهالت الوفود على دار الفقيد ولاغرابة فذاك فقد امة بأسرها، وكم من دموع اريقت يومذاك وكم من قلوب قطعت، وظلت الوفود تنساب الى الدار الى أن وافى ميعاد الدفن وخرج النعش يظلله اللواء الأخضر وقد نقشت عليه ثلاث كلمات عاش ومات عرفات لها « الحرية والنهضة والفجر » وتسابق الشيوخ والشباب يحملون النعش على أكتافهم فرأينا امة تسير وراء نعش ورأينا الدموع تنحدر وسمعنا الأنات تتحشرج فى الصدور وبأيدينا أودعنا القبر من كنا نعزه على الدمقس والحرير، وهلنا التراب على من كنا نرجو أن نهيل عليه أكاليل الغار وهو يحرز انتصاراً بعد انتصار . وتقدمت الهيئات تضع أكاليل الزهر على قبر الزعيم وكنت أقول فى نفسى، ولكن هذا الزهر سيذبل ويموت فينتصر الموت على الحياة مرة أخرى . ووقف الخطباء يبكون الفقيد ويعددون مآثره، وكنت أقول فى نفسى ولكن هذه الكلمات ستنسى وتموت فينتصر الموت على الحياة . وتقدمت بدورى أتحدث على قبر الفقيد لعلى أخفف

من لوعه حزني فكنت حيث التفت أرى دموعاً فياضة ووجوهاً أسيفه وأسمع الأنات الحبيسة وشعرت ان دقات قلبى تتجاوب مع دقات تلك القلوب الحزينة التى حولى وأن نبرات صوتي تفنى فى جلبة تلك الأنات المتصاعدة وان ما أقوله سيدركه النسيان والموت والموت دائما له النصر . وشاء ربك أن لاتبقى من كلمتي على قبر عرفات سوى ذكراها لأنها كانت مرتجلة والحزن الذى عقد الألسنة وقيد الأقلام قد خيم أيضا على الذاكرة فلم تع سوى جملة واحدة سجلتها الجرائد يومذاك وهى « ان نشرة الرواد تشب كاللهب من القبر » وهكذا نفقد عزيزاً وتضن علينا الأيام ببقاء بعض الكلم التى فاضت بها القلوب حزنا عليه قبل أن تنبس بها الشفاه .

يوم الأربعين :

وجاء يوم الأربعين فأقيمت حفلات التأبين للفقيد فى أم درمان ومدني وبورتسودان فكان ذلك أول خطب لرجل تقام له حفلات التأبين فى العواصم المختلفة، فشكراً لله الذى قيض لعرفات تقدير امته بعد موته، وشكراً لله فقد نال عرفات الجزاء الآجل وهو خير الجزاء ولم يك عرفات يطمع فى جزاء عاجل ولايتطلب الثناء على عمل يرى من واجبه القيام به وتأبين عرفات اشترك فيه الجنوب مع الشمال حيث ارسل لنا أحد مواطنينا فى الجنوب قصيدة تفيض بحزن أهل الجنوب على الرجل الذى نادى بضم الصفوف وقام يذود عن الحمى ليكسر القيد فمات والمعول فى يده ولكن القيد عصى لاتقوى على كسره يد واحدة وان كانت قوية الساعد .

وفى يوم الأربعين قلت كلمتى عن « عرفات المجهول » الذى لايعرف الناس منه إلا ظاهره، واستهللتها بعبرة ساخنة وكنت شديد الخوف من أن يذهب الزمن بكلمتى ويدركها الموت، لأن للكلام كما للناس آجال وما كنت أحسب الموت سيدركها سريعاً ولكن المصائب لاتأتي فرادى والحزن لايدخل النفس على درجات كالسرور ولكنه يدهمها . وشاء الله ان يفرق الأحياء من الصحاب بعد أن إختار إلى جواره من اختار فرحل عن هذه الدار صديقى الأديب سكرتير التأبين وترك جميع المراثي فى داره لنأخذها عند الحاجة وكنا طيلة الزمن نجاهد لنصدر الفجر فلما صدر الفجر وأردنا إصدار عدد خاص بمراثي الفقيد ذهبنا الى دار الصديق فوجدنا مالاحاجة لنا به وافتقدنا مانحن فى أمس الحاجة اليه وكلمتى التى كنت أخاف عليها من الموت اغتيلت لأنها من ضمن مافقد من مراثي فقيدنا العزيز فليهنأ الموت بهذا النصر ولنغص نحن معشر الأحياء لأننا

نحاول إستخلاص الحياة من بين براثن الموت فيهزمنا الموت . وهكذا فجيعتى فى عرفات ويزداد حزني فأفقد حتى الأثر الضئيل الذى صورته من حياته لتقف عليه الأجيال المقبلة وليس أمامى إلا أن أرضى بما قسم الله وأن احاول من جديد إلقاء بصيص من نور على تلك الحياة العامرة بجليل الأعمال .

عزيز على أن أبكى عزيزاً فقدناه ونحن فى أشد الحاجة إليه،وأن أسوق الحديث عنه وقد كان بالأمس القريب يسوق لنا الدرر،وأن أروى الخبر عمن كان يروى لنا صحيح الخبر . وها نحن ما مررنا بدار جمعتنا إلا وطالعنا خياله،وما تحدثنا فى موضوع من المواضيع التى كان يشاركنا الحديث فيها إلا ورن فى آذاننا هاتف من صوته وطارف من آرائه الناضجة وماذلك إلا لأن الألفة قد جمعت قلوبنا،ولأن المودة قد قربت بين أرواحنا فأصبحنا تغنينا الإشارة عن العبارة،واللفظة الواحدة عن الحديث الطـــويل . والقلوب إذا اجتمعت،والأرواح إذا تقاربت،عسير عليها أن يفرقها الموت ويباعد بينها. فتظل الحية منها تحن إلى التى قضى الله فى أمرها،ويظل ذلك الحنين على الأيام يزداد قوة إلى أن يجمع الله الشتيتين وفى دار غير هذه الدار مع الصديقين والأبرار .

عرفات فى طفولته :

ولد فى يوم عرفات وعند الفجر وذلك قبيل الفتح الأخير،وطبول الحرب تدق وجلجلة السلاح ودوى المدافع تصم الآذان،وقد احست روحه وهو فى المهد دماء الشهداء تسيل على ثرى الوطن،وأرواحهم تفيض إلى بارئها راضية مطمئنة،لأنها قضت واجبها نحو الله والوطن،وان من يولد فى مثل تلك الظروف لحرى أن يقف حياته لخدمة بلاده وأن يجاهد أصدق الجهاد، ولهذا كانت روح عرفات روح تضحية وجهاد لأنها أحست معنى الوطنية فى المهد وتشبعت به .

عرفات الطالب :

لايزال أبناء جيله يتحدثون عن ذكائه الخارق ونبوغه ودماثة أخلاقه فقد كان رحمه الله مثال الطالب الذى يفطن لأدق المسائل وينفذ إلى خفى الأمور ، وكان يبدو ذاهلاً متشاغلاً عن الدرس حتى كاد بعض الناس يحسبه مهملاً ، ولكن أولئك فاتهم أن العبقرى لايقوى على سماع الحديث المكرر ، ولايستطيع كبح نفسه عن التطلع الى العوالم التى تتراءى أمام عينيه ويحصر نفسه فى دنيا الفصل،وذلك شأن الرجل الحالم،فقد كان

عرفات يحلم بتأثيل مجد طارف، وكان يعمل لذلك حتى موته. وقد إنقضت أيام الدراسة وهو فى الطليعة، وإنخرط كغيره من زملائه فى سلك الوظائف الحكومية.

عرفات الموظف :

وقد إتصل بمصلحة البريد والبرق، وكان فيها مثال الموظف المجد الذى يعرف الواجب المحتوم، وكان يعمل ليجد لأبناء جلدته مكاناً بين موظفى الجاليات الأخرى وهم كثر فى تلك المصلحة، ولما كان عرفات رب عائلة كبيرة وكان مرتب الوظيفة لايفى بحاجته فقد كان يعمل فى أوقات فراغه فى البيوت التجارية ليحصل على بعض المال ليتساعد به فى مهام حياته، وإذا جن الليل عاد إلى داره يقرأ ويكتب، أوعرج على بعض صحابه يتجاذب معهم أطراف الحديث ويتقارضون الشعر ويروون من أخبار العرب كل طريف وظريف، فقد كان عرفات رحمة الله قطب رحى محادثات الأدب وريحانة مجالس الانس والسمر، وبينما كان المستقبل فى الوظيفة يبسم له والحياة من حوله ضاحكة مستبشرة؛ وبينما كان ينعم بقرب زوجه الكريمة وطفلتيه الحبيبتين، قرعت أجراس البلاد فخف عرفات يلبى النداء.

عام الفداء :

وأعنى به عام ١٩٢٤ حيث رأى جماعة من شباب هذا البلد ورجاله أن الفرصة سانحة لخدمة وطنهم، فقدموا أنفسهم فداء للبلاد، وأولئك هم عرفات وصحب عرفات الذين لم يصموا آذانهم عن تلبية النداء وحمل اللواء، ومضوا فى جهادهم غير عابئين بالسجن ولابالتشريد ولابالموت، وكان فقيدنا وأخ له تقدمه فى الشهداء ألا وهو المرحوم عبيد، وثالث لهما لايزال ينعم بالحياة أطال الله فى أيامه، كانوا بمثابة الرأس المفكر واليد المحركة، ولا يزال الناس يذكرون ذلك النداء الذى نشره عرفات باللغة الإنجليزية على صفحات التايمز ونشرت الأهرام ترجمته، وذلك فى وقت كان كتاب الأنجليزية فيه لاوجود لهم فى بلادنا ولكن عرفات كان سباقاً فى كل حلبة.

فى مصر :

وكانت ظروف الجهاد تستلزم سفره إلى مصر ليكون على مقربة من معقل النهضة المصرية، فشد الرحال، وضحى بالوطن الأصغر فى سبيل الوطن الأكبر، بعائلته فى وسبيل امته، وغادر البلاد غير حاسب حساب زوجه الوفية ولاطفلتيه الحبيبتين وغير حاسب حساب

المرتب المضمون وهو مقبل نحو حياة مجهولة وليس له من عدة سوى عزم أكيد وإيمان صادق . وسرعان مانزل إلى ميدان الجهاد وإتصل بالدوائر وإمتزج بالأوساط ،فرأى فيه المصريون حركة دائمة وفكراً ثاقباً وصبراً على الشدائد وتقديراً للواجب ،وقد قدمت إليه الوظائف فرفضها بإباء وهو يقول « ماجئت إلى مصر طالب مال ولاباحثاً عن عمل، ولكنى جئت أعرض مطالب شعب وأدافع عن قضية امة » وبينما هو فى كفاحه قتل «السير لى إستاك» فزج مع صحبه من السودانيين فى السجن،وظل سبعة أشهر كان فيها مثال الثبات والصبر والنزاهة . الثبات أمام القضاء والصبر على مضض السجن، والنزاهة فى الرد على مايوجه اليه من أسئلة . وخرج من السجن فوجد الحياة على غير ماترك،ووجد نظام الحكم غيره بالأمس،ورأى الوجوه التى كانت باشة متجهمه،ووجد النفوس التى كانت لاتعرف الخور قد قبعت فى الدور ،وأيقن آنذاك أن جهاده قد وضع له حد ولو إلى حين،ونزل إلى ميدان العمل الحر فلم يأنف من أن يفتح حانوتاً للبقالة يرتزق منه هو وأبناؤه الطلبة الذين ذهبوا إلى مصر فى طلب العلم،ثم نزح إلى سيناء واتصل بشركة التعدين الإنجليزية،وظل يعمل فيها زهاء العام، إنفصل بعده من الشركة حسب رغبته. وهنالك له قصة طريفة مع مدير الشركة من الخير أن نرويها وذلك أنه قدم إستقالته وأعطى الشركة إنذار شهر حسب شروط العقد الذى بينهما،وظل فى العمل نشطاً مخلصاً كما كان من قبل وقد داخل المدير الإرتياب وظن أن هذه الإستقالة مناورة يطلب عرفات من ورائها المزيد فقال له ذات يوم: هل أنت مجد فى إستقالتك ياعرفات؟فأجابه بأن نعم فقال له: ولكن أراك نشطا مجداً فى العمل كأنك إتصلت بالشركة أمس الأول فقال له: ولكنى أعمل بنشاط لأني أتقاضى مرتبى عن هذه المدة ، فأسف المدير وعلم فى تلك اللحظة أنه فقد رجلاً ذا شعور عظيم بالواجب .

فى جدة :

ومن سيناء ذهب إلى جدة، وإتصل بشركة القناعة للسيارات وكان فى أوقات فراغه يعطى دروساً فى اللغة الإنجليزية واللغة العربية لبعض الراغبين فى الإستزادة من العلم،وجمع حوله جماعة من الصحاب السودانيين والمصريين والجداويين. والذين زاروا بيت الله الحرام فى ذلك العام من أهل هذه البلاد ، وجدوا فى عرفات خير عون وخير موئل وقد أدى فى ذلك العام فريضة الحج ،فكانت تلك خاتمة المطاف ،عادبعدها إلى هذا الوطن العزيز ليعمل مع العاملين من أبنائه لأنه من الذين يؤمنون بأن الرجل لايستطيع خدمة بلاده وهو

خارج الحدود . وان الصوت الذى يأتي من خارج الحدود يأتي خافتاً .

عودة الرائد :

تغرب عرفات عن الوطن ، ولكن فى سبيل الوطن ، مدى خمسة أعوام ونيف ، عاد بعدها إلى البلاد وقد إكتسب تجارب عظيمة وازداد معرفة بالأيام والناس ،وقليل من الناس من يعرفون كيف عاد عرفات إلى الحمى ألا فليسمعوا كيف عاد : كتب عرفات من جدة إلى أستاذه «المستر هللسون» وكان إذ ذاك مساعداً للسكرتير الإدارى فى الشئون الأهلية طالبا منه أن يسهل له سبيل العودة الى بلاده ليعمل مع العاملين على رفعتها وقد مهد لهأستاذه سبيل العودة على أن يأخذ على نفسه تعهداً للمحافظة على الأمن العام مدة عامين ،واذا أخل بذلك الشرط دفع خمسمائة من الجنيهات. ولعل السر الذى لايعرفه الناس هو الرسالة التى بعث بها الى السكرتير الإدارى يطلب العودة إلى بلاده، فما كان فيها مستجديا ولامتملقا ولكنه كان صريحاً حراً . واليك ترجمة هذه الفقرة من تلك الرسالة «ليس بدعاً أن يطلب الرجل العودة إلى بلاده وعلى الأخص عندما يرى أمانيه وآماله تحطمت أمامه . لقد إشتركت فيمن إشترك فى حركة سنة ١٩٢٤ تدفعنى إلى ذلك وطنيتى ،ولما أن فشلت فى مهمتى أريد العودة اليوم إلى بلادى ولا أقطع على نفسى عهداً بأننى إذا دعتنى ظروف الخدمة العامة فى بلادى سأحجم عن ذلك» هكذا عاد الرائد الى الوطن لا ليقبع فى داره ويكسب عيشه وعيش أولاده بل ليعمل مع العاملين من أبناء امته وليلبى النداء من جديد حين تقرع أجراس البلاد.

عرفات فى الحمى :

وكان أن عاد عرفات الى الحمى ،وسرعان ما وجد له عملاً عند غير الحاكمين ،لأن من له مواهب عرفات لن يعدم العمل أني حل وأني سار . وجعل يتسلل إلى المجتمعات ويتعرف بالأوساط من جديد ، وكان نادى الخريجين بالخرطوم فى طور التأسيس،فقام عرفات بإخراج وتمثيل عدة روايات لمساعدة النادى. ولعل الناس ذاكرون له بالخير تمثيله لدور مجنون ليلى وهو يهيم بليلاه ويحن إلى تراب المهد من أرض عامر . ولم تحرم مؤسسة من المؤسسات الوطنية الخيرية من خدمات عرفات،فقد مثل فى رواية أو إثنتين مساعدة للمدرسة الأهلية،وأقام السوق الخيرى الأول لمساعدة ملجأ القرش،وشرع فى السوق الخيرى الثاني للمشاريع الوطنية الثلاثة الأهلية والأحفاد والملجأ ليبرهن للناس أن عمل الخير لايعرف التحزب،وأن خير الأعمال ما كان لخير الوطن جميعه وخالصاً لوجه

الله. ولكن المنية عاجلته قبل أن يتم مابدأ. وبالأمس القريب أقيم السوق وأتى أكله من الناحيتين المادية والإجتماعية وذكر الناس عرفات بالخير وحمدوا له سعيه، وكلما أقيم سوق خيرى سيذكر عرفات وستقدر جهود عرفات.

كيف عرفته :

وأنا الذى عرفت الفقيد فى أحرج الظروف وأشد الأيام يحق لى أن أتحدث عنه وعن كيف كان الناس يهابونه ويتوجسون التقرب منه لأنهم كانوا يحسبونه تحت الرقابة وأن سيف الحكومة مصلت فوق عنقه، وأن عيونها مبثوثة حوله، وكان هو يبسم إبتسامته العريضة الساخرة ويقول يا للرجال قد عمل الإضطهاد فى نفوسهم فأصبحوا يخافون حتى من أنفسهم، وهذا شر مايجنيه سلطان الإستعمار. وقد عرفته أنا تحت تلك الظروف ولم أعبأ بما كان يقوله الناس من شر سيلحقنى من وراء معرفته والإتصال به، ووازنت بين جانبى الضرر والخير ورجحت الكفة الثانية على الأولى، وتأثلت بيننا صداقة لم يعتورها سوى الموت، صداقة تقاربت فيها روحانا وارتفعت بيننا الكلف، فعرفت نفسية لا ككل النفسيات، وتكشفت لى طوية نفس محبة للخير متفانية فى خدمة الغير تهون عليها التضحية فى محراب الوطن المقدس. فماله وزمنه وصحته وحياته كلها كانت وقفاً لخدمة وطنه ولايطلب الجزاء ولايستدر العطف والثناء.

عرفات الصحفى :

وأبرز ما فى عرفات إيمانه فى الصحافة كأداة لخدمة الأمة من الناحيتين الثقافية والإجتماعية، وإعتقاده فى أنها خير أداة لتحقيق مطالب البلاد. وعندما عاد من الأراضى الحجازية أحس بالنقص الفاضح فى صحافتنا، وما كاد صديقنا المرحوم أبوالريش يفكر فى إصدار مجلة النهضة ودعاني للعمل معه وطلب إلى أن أدعو عرفات ليعمل معنا لأن صلته بعرفات لم تكن لتسمح له أن يطلب منه ذلك الطلب إلا وتقدمت لصديقى أزف اليه البشرى بظهور صحيفة الشباب، وأدعوه الى العمل فى الصحافة التى يؤمن بها، وكان أن نزل على رغبتنا وقال لأبي الريش «سأحاول التعاون معك بقدر مايسمح لى زمنى» وخامر أبا الريش الشك فى معاونة عرفات له لأن عرفات لم يعطه عهداً قاطعاً. وشد ماكانت دهشة أبي الريش ودهشتى عندما بدأنا العمل ورأينا عرفات أكثرنا مواظبة وتوفرا على خدمة الصحيفة فى تحريرها وإدارتها، وكان أول من جزع لإحتجابها فى المرة الأولى وأكثر الناس حزناً عليها يوم ماتت بموت صاحبها عليه رحمة الله وغفرانه.

الفجر :

وعز على عرفات ألا تكون للشباب صحيفة بعد إحتجاب النهضة، فعمل جهده إلى ان أصدر الفجر يرسل أشعته الفضية على سواد هذا الليل الحالك، ويبذل فيه كل ما ملكت يده وسكب فيه عصارة فكره وذوب قلبه، فكانت صحيفة الشباب فى أدبها وثقـافتها وإجتماعياتها ووطنياتها كانت ملتقى القديم الصالح بالجديد النافع . وهنالك بدت مرونة عرفات وحنكته السياسية، فكان يهدىء من ثورة الشبان إذا رأى اللهب يكاد يجتذبهم ويذكيها عندما يرى الجمر كاد يخبو ويصير رماداً، وكان يعمل مايريد عمله فإذا بالفجر يصدر وإذا بإدارة الأمن العام تدق جرس التلفون تحذر مرة وتهدد أخرى، وإذا بعرفات يقابل التحذير والتهديد بصدر رحب وإبتسامة صفراء، ويمضى فى عمله غير عابىء بالتحذير ولا بالتهديد ولسان حاله يقول: سنعودهم الحرية حتى يألفوها وسنطالبهم بالحقوق حتى يقروها وسنريهم مقدرتنا على القيام بالواجب فى غير ماضوضاء حتى يكبرونا، وهكذا مضى وخلف الفجر تركة إجتماعية لهذا الشعب، واستمر الفجر فى ليل طويل حتى حسبناه لاحقاً بصاحبه، وكدنا نقيم عليه مأتماً وحداداً وكدنا نؤبن هذه الأمة لولا أن هب شباب البلد العاملون وخافوا من وصمة الأجيال القادمة، فعاد الفجر بفضلهم وفضل القراء إلى الظهور، وعرفات الذى ولد فى الفجر ومات فى الفجر ستنعم روحه بالخلود فى هذا الفجر فأحفظوا ذكرى من كافح من أجلكم وعاش ومات لكم وأحيوا الفجر لتحيى ذكرى عرفات .

عرفات الصديق :

وهنا أرجو أن يعفينى القراء لأن ذلك شىء يخصنى وحدى دون سائر الناس وماذكرته إلاثارت شجوني وفاضت عيوني بالدموع وإزدحمت بمخيلتى الذكريات، وكفاني أن أبكيه بينى وبين نفسى فى دمعة حارة أرسلها أو قصيدة أدبجها على القرطاس كلما جاش القلب لذكراه وإن أبى الناس إلا أن يشاركوني هذه الذكرى الحزينة فليترقبوها فى أوانها فى كل عام، وأما أنت أيها الميت الخالد الحى الذكر فنم هانئا فى جنات عدن تحف بك الحور الحسان ويطوف عليك الولدان المخلدون وثق أن صحابك على العهد باقون وهم لتراثك الأدبي والإجتماعى حافظون ولمبادئك السامية راعون وهذا فجرك منارة هديهم وأداة جهادهم وعليه بعد الله يعتمدون، تساعدهم على ذلك امتك الكريمة التى هم لعطفها وتقديرها راجون طبت ياعرفات دنيا وآخرة وتلك عقبى المحسنين .



بحـــث

الحركة الفكرية في السودان
إلى اين يجب ان نتجه

٣٨

الحركة الفكرية فى السودان

إلى أين يجب أن تتجـــه (١)

فى كل الأماكن والعصور منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا وإلى الأبد فكر وسيفكر الممتازون وأصحاب الثقافة الحقة من أبناء البشر فى إيجاد مثل أعلى، تسخر فى سبيل الوصول اليه جهود بنى الإنسان ويرفع فى سبيل تحقيقه مستوى الحياة ويعظم فى نظر الناس غرض الوجود. وفى كل فرع من فروع الحياة ولكل مذهب من المذاهب الثقافية أنصاره المخلصون المتفانون الذين يبذلون كل مافى وسعهم للوصول إلى نتائج ترى الدهماء من أتباعهم تحقيقها غير ميسور ان لم يكن من المستحيلات. ولو لم يوجد اولئك المخلصون أصحاب المثل العليا لما تقدمت الفنون والآداب خطوة عما عرفت به فى زمن من الأزمان، لأن الحياة البشرية بطبيعتها تخاف المخاطر وتتحاشاها وميالة إلى ماوجد الناس عليه آباءهم عدوة كل تغيير يطرأ على الأفكار والأعمال. ولربما بقيت الدنيا فى حالة من الركود لامناص من البقاء عليها لولا ظهور حفنة من الموهوبين أصحاب المثل العليا المخلصين المتفانين الذين ينفخون فى الصور ويدفعون بالناس صوب المرمى الذى يجب أن يصله أمثالهم من الموهوبين، ذلك المرمى الذى يتخيلونه ويجزمون بضرورته لهم ولبنى الإنسان ولايعدمون من الصبر والجلد وقوة الإيمان مايجعلهم يثقون فى النصر النهائى.

تهم الحياة المثلى الإنسان فى حياته كفرد وفى حياته ضمن المجموعة التى تربطه بها علاقات الموطن والدم والدين والغرض المشترك والأفراح العامة والآلام المتجاوبة. وهذه الحياة المثلى ينبغى أن تعطى حقها من العناية عند الفرد والجماعة فى جميع فروعها وشعابها، فالحياة المادية لها نصيبها، والحياة الفكرية لها نصيبها. وأغراض بنى الإنسان إتصلت فى العهد الأخير إتصالا وثيقاً جعل رفاهية الفرد لاتتعارض فقط مع رفاهية الفرد الآخر بل ومع رفاهية المجموعة وسلامتها. فقطعة الحلوى فى يد الطفل اللاهى يحرم منها زميله البائس،

---

١ نشر هذا البحث في شكل كتيب في ١٩٤١

والدار الجميلة التصميم الوثيرة الأثاث الفخمة الرياش يقطنها البليد الطبع الميت الإحساس العديم الأريحية، بينما الشاعر الرقيق الحواشي والبلبل الغرد وصاحب القيثار الذى يكاد يبوح بأسرار الكون لايجد الكوخ الحقير ناهيك عن النعيم المقيم . وهذا التعارض البغيض أكثر وضوحاً فى علاقة الأمم بعضها بالبعض منه فى علاقة الفرد بالفرد . ولكن فى عالم الثقافة ودنيا الفكر ونشاط الذهن لكشف الستار عن حقائق جديدة وإستنباط آراء مبتكرة للتسامى بالإنسانية لايوجد ولايمكن أن يوجد مثل هذا التناحر، فبشرى لبنى الإنسان بهذه السعادة يجدونها فى عالم الثقافة والفكر حيث يحلو لهم خلق المثل الأعلى والتسامى للوصول إليه، تفنى منهم أجيال تلو أجيال ومثلهم الأعلى متجدد ونشاطهم لتحقيقه يتجدد ويقوى.

من السهل أن نتخيل وضعاً من الأوضاع يستوى فيه نصيب كل الأجناس والأمم والاسر والأفراد فى الثقافة والعدل والأ ريحية والإعتبار. ولكن ذلك الوضع لايتحقق إلا إذا كان الأشخاص والأمم والأجناس التى وهبها الله فى وقت ما ميزة فى العقل والخلق تمكنها من تكييف مصير الآخرين وتكون رسالتها فى الحياة أن تفيض على جيرانها من طلاب ومستضعفين خير ماعندها من ثقافة وعلم وثروة بقصد إشادة أعلى المثل الأخلاقية والفكرية والمادية لبنى الإنسان .

ولكن تعاليم الصفوة المختارة وأريحيتها لاتثمران إلا إذا بلغ كل الأفراد مستوى عالياً من النبل ، لأن بعض الأفراد بحكم تأثرهم بما خلفته أجيال ماضية من الجهل والحماقة أو لما عندهم من غريزة الشر المتمكنة من نفوسهم لاينفعهم التعليم الشريف الغرض، وكل جهد لإصلاحهم ضائع. وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ كما أن هنالك طبقة الرجعيين الجامدين الذين لايقبلون المستحدث من الآراء وإن كان الحق، ولايسيرون مع القافلة إلا إذا رأوا أنفسهم منفردين فى صحراء الحياة . كما أن هناك أصحاب الأغراض الذين عميت بصائرهم ورغبوا فى أن تستمر الحال على ماهى عليه حتى لايفقدون ماعندهم من سلطان وان كان زائفاً ولايعدمون مايدر عليهم من ثروة وان كانت من غير وجه شرعى. لابد أن يبلى المصلحون فى كل زمان ومكان وفى كل فرع من فروع الحياة المادية والفكرية بأمثال هؤلاء، ولابد من أن تقوم فى وجههم المعارضة المغرضة . مثل هذه المعارضة المغرضة وشيكة أن تزول فى وجه المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا الذين لايهدأ لهم بال إلا إذا عملوا على الوصول بالإنسانية الى الكمال المنشود ، لأن النضال والنصر النهائى فى معركة بين النور والظلام والحق والباطل ، بين التقدم والفناء يتوقف على حمية وإخلاص زعماء النهوض والتجديد لاعلى عناد دعاة الجمود والتخاذل .

لايعرف المثل الأعلى التوسط ولابد فيه من الكمال . وليس فى ذلك من خيال ولاجرى وراء السراب . كل مافى الأمر إختلاف بين اناس لايهمهم من الحياة غير شهواتهم الذاتية من مأكل ومشرب وملبس ومتعة نفس واناس يرون ان الحياة لاقيمة لها اذا أنفقت فترتها القصيرة فى السعى وراء المسرات المطروقة العادية ، ذلك السعى الذى يولده الجهل والحمق والغباء تلك التى لايسعها أن تتصور الحياة سلسلة متصلة يمضى الأحياء وتبقى وتموت الأجسام الفانية وتبقى ثروتها للأجيال القادمة . ولهذا يعمل دعاة الإصلاح وعباد المثل الأعلى ويضعون من الخطط والآراء مالايمكن تحقيقه فى حياتهم ولكن لابد من تحقيقه مابقيت الحياة ، يعممون العلم والمعرفة من غير تفضيل بين الطبقات والبلدان والأجناس . وتقدم العلم والمعرفة يضعف العصبية والتناحر بين الأفراد والجماعات ويزيل الفوارق وسوء التفاهم ويمهد الطريق لتبادل الثقة والإعتبار .

ذلك شأن المصلحين والمخلصين المتفانين من دعاة المثل الأعلى فى كل الأماكن والأزمان ، ولاتثريب علينا من أن نكون منهم لحظة ونضع المثل الأعلى للحياة الفكرية التى نريدها لهذه البلاد الناشئة . ولا أدعى فى ذلك أنني من اولئك الموهوبين الذين تتكشف لهم حجب العصور ويطوون الزمان القهقرى ويرون ما كانت عليه الأمم وماصادفته فى حياتها الفكرية من نجاح وفشل ثم ينظرون إلى المستقبل البعيد ويكشفون عن غيبه ومايتطلبه من آراء وأعمال ويضعون أصدق مثل أعلى للحياة الفكرية فى بلادهم ،فذلك شرف ليس لى إليه من سبيل . غير أني سأحاول جهد المقل دراسة ماضى هذه الأمة وحاضرها ودراسة ماضى ماعرفت من الأمم وحاضرها ثم بعد ذلك احاول توجيه الحركة الفكرية فى بلادنا صوب ما أراه المثل الأعلى ،فإن وفقت فذاك ما ابغى وان فشلت فليكن عزائي أن هذه الأمة لن تعدم من أبنائها من يقوم إعوجاجى ويصلح أخطائي ويقدم لنا مثلنا الأعلى الذى ستتكاتف جميعاً على تحقيقه :

ودعوا هـذا الهنـاء	واستجيبوا للنـداء
ذلك المجـد يعـاد	بجهـود وعنـاء
نحـن للأوطـان نبنى ونعيد	سالف العـزة والمجد التليد
وحياة ليس تبنيـها الجهود	لحياة أودعت رهن القيود

فتعالوا نبتدىء هذا البنـاء

إنه وان كانت الطبيعة البشرية يندر ان تختلف كثيراً إلا أن إختلاف الزمان والمكان والبيئات قمين بان يعطى كل امة طابعاً خاصاً يميزها عن بقية الأمم فى مناحى تفكيرها وإتجاهاتها وبالتالى فى إنتاجها المادى والفكرى . والسودان ككل بلاد الله له ماضيه البعيد والقريب وله حاضره كما له مستقبله . وسودان اليوم تراث أجيال متعاقبة من الوراثة والإختلاط ، كما ان سودان المستقبل سيتأثر بمخلفات ذلك الماضى وتراث هذا الحاضر .

سكان هذه البلاد الأصليون هم السود أو الزنوج ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت إليه من عرب الحجاز واليمن وسكان آسيا ومن الأمم المجاورة كالحبشة ومصر وبربر وبلاد المغرب واختلطوا بأهله بعض الإختلاط وامتزجوا بهم إلى حد ما ، « وهاجرت إليه بعد الفتح الإسلامى قبائل عربية حجازية ويمنية ومغربية وسادت أهله الأصليين وامتزجت بهم بالزواج فكسب الوافدون السحنة السوداء قليلا أو كثيراً وشيئا من العادات ، كما طاردوا عدداً كبيراً من السكان وردوهم إلى الجنوب ومن ثم إحتفظ جنوبي السودان بطابع سكانه الأصليين كما كان عهدهم منذ آلاف السنين ، مع شيء يسير من التقدم ، ظهر فى المدن التى أنشأها الغزاة من قديم وإلى اليوم وحوالى هاتيك المدن (١) » .

على أن هناك بعض الأجناس التى إستوطنت السودان كبعض الأتراك الذين دخلوا بعد فتح السلطان سليم سنة ١٥٢٠ ، والمصريين الذين جاءوا إليه قبل فتح محمد على وبعده واتخذوه مقاماً ، والأحباش من مسلمين ونصارى .

وطبيعى أن يحدث هذا الإختلاط والتزاوج وتبادل المعرفة فعله فى تكوين الأجيال التى عقبته حيث تجرى فى العروق دماء مختلفة وتتماذج وتتفاعل ، وحيث تتغلغل فى النفوس طباع متنوعة متآلفة تارة ومتنافرة أخرى . وقد ينتج ذلك تفوقاً لامثيل له وذكاء نادراً وشجاعة قاهرة ، كما قد يحدث إنحطاطاً عقلياً وغباء وجبناً وكم يعجبنى فى ذلك قول صالح عبد القادر :

وانا ابن وادى النيل لوفتشتنى تجـدين فى بردى بأس أسود
تجدين مجموع الفضيلة والنهى تجدين حلم البيض جهل السود

(١) تاريخ السودان لعبد الله حسين ج ١ص ١٧ .

ويروقنى ورد الخدود ولفتة الر ... ثم المهفهف وإبتسام الغيد
ويلذ لى حلو الحديث وطيبه ... وسماع شادية ونغمة عود (١)

يدل ماضى هذه البلاد البعيد أنها إتصلت بمصر الفرعونية إتصالاً وثيقاً، تارة تغزو مصر وتغزوها مصر أخرى، وآونة يتهادنان ويتبادلان المنفعة من ثقافة وتجارة. «ولقد قامت فى السودان قبل الفتح الإسلامى مملكة أثيوبيا حيث كانت تمتد من الشلال الأول عند أسوان الى أقاصى الحبشة شمالاً وجنوباً، ثم إنقسمت أثيوبيا العليا المعروفة الآن بالحبشة وأثيوبيا السفلى فى شماليها ومن أشهر عواصم أثيوبيا السفلى « نبته » عند جبل البركل ومروى عند البجراوية . وقد عاصرت هذه المملكة الفراعنة والبطالسة والرومان الذين حكموا مصر على التوالى،وأخذت من حضاراتهم جميعا وتأثرت بهم كما أثرت فيهم ، ويرتبط تاريخ النوبة إرتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر،حتى ليصح القول بأن كلاً منهما متمم للآخر، فإن وحدة الأصل والوطن والدين قد احكمت بينهما أواصر القربي والجوار، فإذا هما شعب واحد فى آماله وآلامه على الرغم من إختلاف الإقليم والمناخ (٢)» وقد قامت على آثار مملكة أثيوبيا التى زال حكمها فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد مملكة النوبة على النيل بين الشلال الأول والحبشة، ومملكة البجه فى الصحراء الشرقية . أما النوبة فقد صارت نصرانية فى القرن السادس للمسيح،وأما البجه فقد إحتفظت بالوثنية حتى الفتح الإسلامى لمصر فى سنة ١٨ هجرية و ٦٤٠ ميلادية فاعتنق البجه الإسلام وعملوا بتعاليمه . ثم تم الفتح العربي للنوبة السفلى سنة ٧١٧ هجرية واتحدوا مع الفونج فى جنوبى سنار ففتحوا النوبة العليا سنة ٩١٠ هجرية فعم الإسلام وأخذ مكان الوثنية والنصرانية .

ومن هنا ترى أن هذا السودان فى ماضيه القديم قد تأثر بالثقافة الفرعونية وثقافة البطالسة وهى فى جملتها ثقافة يونانية وبثقافة الرومان كما تأثر بالثقافة العربية أولا عن طريق الهجرة وأخيراً عن طريق الغزو والفتح . ولقد تأثر بديانات وثنية وأخرى سماوية فقد عرف عبادة الشمس وغيرها من ديانات قدماء المصريين وعرف النصرانية بتعاليمها وطقوسها، كما عرف الإسلام الحنيف بمساواته وتسامحه وعدالته وطهارته . وكل هذه لها أثرها عن طريق الوراثة فى الأجيال المتعاقبة . وعقل الإنسان لو كان حراً يختار مايريد لما إختار غير طريق الخير ولكن هذا العقل خاضع لما يرثه من خصائص كما هو خاضع

---

(١) مجلة الفجر مجلد ٢ عدد ١١ صفحة ٢٢٠

(٢) تاريخ السودان لعبد الله حسين ج – ١ – ص ٤٥.

لما يكتسبه من معلومات وهذه الوراثة كما تظهر فى العقل تظهر فى الجسم والخلق على السواء .

على اننا ينبغى ألا نعطى عنصر الوراثة أكثر مما يستحق لأنه وإن كان من الواجب الإعتراف بنظرية الوراثة فإنه ليس من الحكمة أن نكون خاضعين كل الخضوع لما يقال عن أثرها، لأن مقدار ماتقدمه الوراثة من تعطيل لقافلة التقدم أومساعدة لها لا يدريه أحد حتى ولاعلى وجه التقريب، ولايظهر أثر الوراثة فى الفرد بوضوح كما يظهر فى الجماعات، لأن بنت الجميلة لايلزم أن تكون جميلة كأمها كما ان إبن الذكى لايتحتم أن يكون كأبيه ذكياً . وحسبنا أن نؤمن لحظة بأن تراث هذه الثقافات المتعاقبة والديانات وصنوف الحكومات التى مرت بهذه البلاد عملت كثيراً وتعمل على تكييف الحركة الفكرية فيها وتوجيهها صوب المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها .

وليس العجب فى ماضى هذه البلاد البعيد وحسب وإنما فى ماضيها القريب وحاضرها كل العجب . فقد خضع السودان للحكم التركى فى عهد محمد على فى عام ١٨٢٠ ميلادية وكان ضمن تلك الإمبراطورية العربية التى كان يحلم محمد على بتكوينها (١) ولكن العهد التركى كان أظلم العهود على السودان ثقافياً لولا بيوتات العلم والدين والأفراد القلائل الذين شقوا طريقهم إلى الأزهر الشريف أو حرصوا على تلقى العلوم على يدى بعض الأساتذة العائدين من الأزهر الشريف لما بقى فى السودان شىء من التراث العربى . ولما كان ذلك العهد عهد ظلم وفتك ونهب وتقهقر فى الأخلاق ، كان من الضرورى قيام ثورة فى البلاد لأن النفوس مهما خمدت لابد أن يثيرها الظلم ويلهبها هتك الأعراض وإستباحة المحارم، فجاءت الثورة المهدية فى عام ١٨٨٣ وعمت البلاد، وقضت على الحكم التركى ونال السودان الإستقلال مدى ١٦ عاماً حتى تم الفتح الأخير على يدى المصريين والإنجليز فى عام ١٨٩٨ وابرمت الإتفاقية الثنائية لحكم السودان على النظام القائم الآن من الحكم المشترك.

على أن الغزو والحروب الداخلية لم تترك لحكومة المهدية فرصة للعناية بالحياة العقلية والأدب، ولكن البلاد لم تعدم حفنة من الحفاظ والدراس والعلماء الذين حافظوا على البقية الباقية من تراث الأدب العربى ، وكنت تسمع الفينة بعد الفينة قصائد الأمداح

---

(١) يقظة العرب لجورج انطونيوس ص ٢٣

النبوية وقصائد الحث على الجهاد كما كنت تسمع المقدمات الغزلية الطلية الجيدة ترد فى مطالع تلك القصائد كما تسمع بعض الإخوانيات فى العتاب والملح والدعابـة .

ولست فى حاجة لأن أفيض فى الحديث عن نتاج هذا العهد الحالى فى هذا المكان فذلك سيكون لباب هذا البحث الذى امهد له بهذه النظرات الخاطفة .

من كل ماتقدم نرى ان عقلية هذا الجيل الحاضر خلاصة حضارات متعددة متشابهة ومتنافرة وثقافات هى فى الواقع الأساس لكل التراث الفكرى الموجود فى العالم . كما أنها وليدة عقائد دينية منها الوثنى ومنها النصراني والإسلامى .

ولكن الأمر الذى لاشك فيه هو أن الثقافة العربية هى الغالبة أو على الأقل هى التى تستحوذ على لب القارئين وتتأثر بها عقليات الكاتبين ، كما أن الدين الأسلامى الحنيف هو دين الأغلبية الساحقة فى هذه البلاد وهو الدين الذى قبلته وتقبله قبائل الجنوب الوثنية بسرعة مدهشة ويتجاوب مع طبائعها ولاغرابة فى ذلك فهو دين الفطرة « ان الدين عند الله الإسلام » وانه ليجمل بي أن أعقد فصلاً خاصاً عن أثر الثقافة العربية والدين الإسلامى فى العقلية السودانية تماماً للبحث وتقرباً من المرمى النهائي الذى يجب أن تتجه صوبه الحركة الفكرية فى هذه البلاد حتى تأتي بالفائدة المطلوبة وتحقق آمال المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من ابنائها البررة .

— ٣ —

يرجع تاريخ الإسلام فى هذه البلاد الى عام ٢٢ هجرية و٦٤٢ ميلادية ، عندما ندب عبد الله بن أبي السرح على رأس عشرين ألف مقاتل لغزو النوبة ومنذ ذلك العهد أخذ الإسلام ينتشر فى هذه البلاد وتقوى الدعوة اليه إلى أن تم الفتح العربي للنوبة السفلى فى عام ١٣١٨ ميلادية وللنوبة العليا فى عام ١٥٠٥ ميلادية فعم الإسلام وأصبح دين الغالبية الساحقة من سكان هذه البلاد .

وأثر الإسلام فى هذه البلاد واضح ملموس تكاد تراه فى الغدو والرواح وتلمسه فى كل مايصدر عنه أهل هذه البلاد . وحتى أمس القريب لايمكن أن تنجح أية حركة لإحداث إنقلاب أو تغيير بعض الأوضاع الا إذا كانت حركة دينية أو متشحة على الأقل بثوب الدين وما حديث المهدية عنا ببعيد . لقد كانت دعوة المهدى دعوة دينية تقبلها الناس بإسم الدين فثاروا فى وجه المفسدين وأخرجوهم من بلادهم وإستولوا على الملك.

ولولا الدين لما رأيت الناس يموتون فى سبيل الله ويستبسلون غير طالبين ثروة ولاجاهاً ولامركزاً دنيوياً. يحسد الحى منهم من مات لأنه فاز بشرف الإستشهاد. وإن أمة يبلغ فيها أثر الدين كل هذا المبلغ لايمكن أن تستسيغ من الآراء مافيه نزعة الحاد أو مافيه خروج على الأوضاع والخلق المرعية. كما أنها لاتقبل من مفكريها غير الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وعفة اللسان واليد ونزاهة المقصد.

وفى كل مكان إنتشر فيه الاسلام لابد من إنتشار الأدب العربي والثقافة العربية فكتاب الله الكريم وسنة رسول الله والحديث الشريف كل تلك باللغة العربية بل هى أصفى ينابيع تلك اللغة. ولابد من دراستها وتفهمها وتذوقها فى لغتها الأصلية. والمسلمون حريصون كل الحرص على تفهم هذا التراث وتذوقه وعلى التقرب من روح الدين بدراسة اصوله وإتباع أحكامه. ولهذا فقد كان من حظ السودان إنتشار اللغة العربية بين ربوعه أولاً لذيوع الإسلام بين أهله وثانياً لأن الدم العربي هو الغالب على سكانه. ولقد بقى السودان حتى الفتح الأخير فى سنة ١٨٩٨م بعيداً عن أثر اللغات الأفرنجية ولم تسمع فيه من اللغات العجمية غير التركية وذلك بعد فتح محمد على فى سنة ١٨٢٠م وحتى تلك اللغة التركية لم تكن لغة الدولة الرسمية ولم تكن لتدرس فى المدارس إنما كان يتحدثها الحكام الأتراك فيما بينهم.

وليس عجيباً أن كانت لغة أهل السودان وخاصة فى البادية أقرب اللغات الى اللغة العربية الفصحى، وليس عجيباً ان نجد أهل السودان يميلون الى شعر الحماسة والفخر سواء فى أغانيهم أم فى شعرهم، ويتعشقون ضروب الفروسية ويتصفون بالكرم والأريحية وحماية الضيف ورعاية الجار، ويترفعون عن الدنايا ولايقبلون المذلة ولاتطيب نفسهم للإنكسار، فالرجل منهم مهما أصابه الفقر لايدنس نفسه بمذلة السؤال ولايرضى ان يتخلف عن الواجب العام.

وأثر الدين الإسلامى والثقافة العربية فى هذه البلاد أظهر مايكون فيما وصل إلى أيدينا من مخلفات الجيل الماضى من الأدباء أمثال الشيخ حسين الزهراء والشيخ الضرير والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم والشيخ البناء الكبير. فقد كان معظم قصائدهم فى المدائح النبوية وذكر شمائل الرسول وتاريخ غزواته وإنتصاراته كما كانت تشتمل على بعض قصائد الفخر والحماس والحث على الجهاد. وكل قصيدة من تلك القصائد كانت تستهل بالغزل الرقيق على طريقة العرب القدماء. وليس هذا كل ماخلفه أبناء الجيل الماضى فقد

خلفوا نوعاً من الأدب على طرافته لم يحفل به المثقفون منا، ولكنه في الواقع أدب رائع فريد فى بابه وأعنى به قصص المولد النبوى الشريف الذى يقرأ فى حلقات الأذكار. وإذا أسعدك الحظ بقراءة مولد السادة التجانية الموسوم «انسان الكمال» أو الإستماع إلى قراءته فأنت بلاشك واجد فيه أدباً رائعاً وقصصاً جميلاً ومتسقاً وآيات من البيـــان والمحسنات البديعية . وقد قدم له المرحوم الشيخ محمد هاشم بمقدمة هى آية من آيات البيان فى لفظها ومبناها ومعناها، ذلك كله أثر الدين الإسلامى والأدب العربي فى حياتنا وذلك الأثر لايزال باقياً وقوياً ولايزال مؤثراً فى أذهان الناس القارئين منهم والكاتبين .

وزاد فى هذا الأثر إتصالنا بمصر بعد الفتح الأخير، لأن مصر بدورها لاتزال خاضعة لأثر الدين الإسلامى والثقافة العربية رغم ماينتابها الآونة بعد الأخرى من نزعات الرجوع الى الفراعنة أو التعلق بأهداب الغرب .

انه لزام علينا ألا نغفل هذا الأثر ونحن نحاول توجيه الحركة الفكرية فى هذه البلاد وحرى بنا أن نقف عند هذا الأثر هذه الوقفة الخاطفة على أقل تقدير . وإني لأقــرر فى تأكد زائد أن أثر الدين الإسلامى والثقافة العربية سيظل ملازماً لحركتنا الفكرية مابقيت هذه البلاد وماقامت فيها ثقافة وحركة فكرية ولكن هذا الأثر بلا شك سيكون عرضة للتفاعل مع المكتسب من الآراء الحديثة والأفكار الغربية وسيخضع كلاهما الى جو هذه البلاد وما توحيه جغرافيتها وطبيعتها من أفكار وتخيلات . ولهذا لابد لنا من التحدث أولا عن أثر الثقافة الغربية فى بلادنا وثانياً عن جو هذه البلاد وجغرافيتها وطبيعتها وأثر كل ذلك فى هذه الحركة الفكرية التى نحاول أن نرسم لها مثلا أعلى وأن نوجهها صوب المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

— ٤ —

الإتفاقية الثنائية المبرمة بين الحكومة البريطانية وحكومة خديوى مصر فى عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان فى المستقبل والتى جاءت معاهدة التحالف والصداقة بين بريطانيا ومصر فى عام ١٩٣٦ مؤيدة لها غريبة فى نوعها وهى التى يقول عنها السير «هرلد مكمايكل» فى كتابه السودان الإنجليزى المصرى : «بهذا الشكل ولد السودان الجديد وقد رزق قوة كافية للبقاء . على أنه كان بحكم الضرورة وليد مراعاة الظروف ، فإذا مات « الطفل » فى المستقبل وحل محله مخلوق سياسى جديد أقوى منه بنية بسبب كونه أقرب الى عالم الحقائق فليس لموجديه أن يبكوا مصيره . » وليس يدرى أحد بعد هل

لايزال الطفل قوياً أم يحتضر ليخلى المكان للمخلوق الجديد القوى ؟ مامن شك فى أن محالفة الصداقة قد أعطت المولود بعض المقويات التى ستكفل بقاءه حقبة أخرى من الزمن .

ويرى المطلع على بنود الإتفاقية الثنائية أن ارجحية السيادة البريطانية ضمنت بحقها فى اختيار الحاكم العام والإشارة بعزله وهو الذى يسن القوانين فى مجلسه وهو بلاشك يعمل على تنفيذ وجهة النظر البريطانية دون قيد ولاشرط . فالإتفاقية لم تنص على أى قيد ومن هنا كان أن فتحت المدارس وغلبت عليها الثقافة الإنجليزية وخاصة فى القسم الثانوى والأقسام العليا ، ولم يكن من محيد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية وآداب اللغات الأجنبية الأخرى المترجمة للإنجليزيه بين جمهرة المتعلمين من شبان هذه البلاد . وقد ساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة .

والجيل الجديد من أبناء هذه البلاد وخاصة من تمخضت عنهم ثورة عام ١٩٢٤ رأوا حاجتهم الملحة إلى زيادة معلوماتهم ، فكان أول خطوة خطوها أن أقبلوا على قراءة جل ماتخرجه المطابع المصرية : والأدب المصرى وإن كان عربي الثوب إلا انه نتاج ثقافات غربية متنوعة ، فأنت تلمس أثر المدرسة الإنجليزية فى كتابات العقاد والمازني كما تلمس أثر المدرسة الفرنسية فى كتابات طه حسين وهيكل وزكى مبارك . كما أقبل اولئك الشبان على دراسة بعض ماتخرجه المطابع الإنجليزية فهنالك من الشبان من يتوفرون على دراسة العلوم الإقتصادية والسياسية ومنهم من يدرسون التيارات الحديثة فى نظم الحكومات والأمم ومنهم من يتقصون الأساليب الأدبية والخطابية والمحسنات اللفظية فى تلك اللغات الأجنبية ويحاولون نقل بعض التعابير والأساليب الى اللغة العربية شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من أبناء هذا الشرق العربي .

وما من شك فى أن الشاب السوداني وجد نفسه فى حاجة ملحة إلى دراسة المعلومات العامة وخاصة مايسمونه علـم الموسوعات (Encyclopaedic Knowledge) فمن منا لايطمح إلى قراءة موجز التاريخ لـ « ولز » ، أو علم الحياة لـ « ولز » و « ولده » و « جوليان هكسلى ، ومن منا لايريد أن يتوفر على قراءة موجز الآداب والفنون لـ «جون درنك ووتر» وصحبه وتاريخ المؤرخين للدنيا لناشره «همرورث» وغيرها من الموسوعات ، كما انه من منا لايجد أتم المتعة العقلية فى قراءة موجز أعظم كتب الدنيا فيتصل بكل العقول الكبيرة

عن كتب وتقدم له خلاصتها فى سبعة مجلدات والله إننا جميعاً لنطمح الى الورود من ذلك المنهل العذب ولاسبيل إليه إلا عن طريق اللغة الإنجليزية .

ولقد قطع الكثيرون منا شوطاً بعيداً فى هذا المضمار وتأثروا بالأفكار الغربية والتخيلات الغربية وأخذوا يسمعوننا صدى ذلك الأثر فى قصائدهم وكتاباتهم وأخذ القراء يستسيغون إنتاجهم ويقبلون عليه كما كانوا يقبلون فى الماضى على نتاج المدرسة العربية للبحث . ولم يقف أولئك عند هذا الحد فانهم بعد ما كانوا يقرأون الأدب المصرى والأدب الغربي فى خشوع ويتلقون الوحى عنه ويحسبون أن كل مايأتيهم من خارج الحدود خلو من العيب . أخذوا يتناولون ما يقرأون فى الأدبين بالنقد والغربلة ولايقرأ أحدهم كتاباً إلا ويكون عنه رأياً وكثيراً مايجهر بذلك الرأى على صفحات الجرائد والمجلات وبهذا تربت عند ادباء الشباب ملكة النقد، تلك الملكة الفاحصة الباحثة عن الحق أين تراءى لها والتى تهتم بتصفية الأدران وقطع الطفيليات وتعهد الجمال والقوة ومساعدة كل جميل ونبيل من الآراء والعواطف .

ولاعجب فى أن تجد الثقافة الغربية سبيلها إلى بلادنا، فحياة الشرق والغرب أخذت فى التقارب والتحاكك من قديم الزمن ولاتزال آخذة فى التقرب إلى يومنا هذا . ذلك لأن تراث الإنسانية الفكرى تراث مشترك ولاتعرف دنيا الفكر التناحر والتنافر والدسائس التى تسود عالم السياسة والإقتصاد ، ولأن طرق المواصلات ووسائل نقل الأخبار والمعلومات وتقدم العلوم الطبيعية جعلت من السهل أن يتصل من فى الشرق بأخبار الغرب وعلومه فى لحظة، كما هو من السهل على الغرب أن يتصل بأخبار الشرق وعلومه . ومادام غرض الإنسان المثقف الأسمى فى هذه الحياة أن يسعى نحو الكمال الإنساني وأن يترك الدنيا خيراً مما وجدها عليه فلابد من إتصال وثيق بين ثقافات العالم، ولابد لكل بلد من الوقوف على ثقافات الأمم الأخرى غابرها والحاضر على أن تهضم تلك الثقافات وتستسيغها وتحولها إلى دم يجرى فى عروقها وتنتج بذلك ثقافتها الخاصة بها التى يتطلبها تكوين أهلها وخلقهم ومزاجهم ولابد لها من أن تحمل طابعاً يميزها .

لقد تأثرت هذه البلاد بالثقافة الغربية والإنجليزية منها بوجه خاص كما تأثرت بالثقافة العربية والمصرية منها بوجه خاص . ولكن لهذه البلاد طبيعتها وجوها وظروفها الخاصة التى لابد أن تؤثر على الحركة الفكرية فيها وتوجهها نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

ثقافة الأمة تتأثر بالبيئة والأخلاق كما تتأثر بطبيعة البلاد ، فطبيعة الأقليم وجوه ومايحدق به من مؤثرات بعيدة الأثر فى تكييف أخلاق السكان . فرجل الصحراء لابد له من أن يتحلى بالصدق والوفاء ليصدقه الآخرون ويوفون معه فيخلق بذلك جواً من الوفاء والصفاء يكفل له مقاومة صعاب الصحراء والتجول فى فيافيها آمناً من سغب أو غدر . وساكن الجبال صعب المراس شجاع مقدام ، والساكن على ضفاف الأنهار حيث الخضرة والخصب والجمال لابد أن يكون رقيق الطباع تستهويه الخدود الندية واللفتات الساحرة والنغمات الحنونة . وليس عجيباً أن تسمع فى نتاج رجل الصحراء مافيه لفحة من وهج الصحراء وفيه تمنيات الظامىء المحروم إلى العيون المتفجرة والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، ولاعجب فى أن تسمع فى نتاج الرجل الجبلى المفاخرة بالشدة والبأس والتطلع إلى القمم والوثوب الى كل صعب المنال . ولابد أنك سامع الوصف الرائع للجنات النضرة والأزاهير اليانعة وحفيف الجداول وتغريد الطيور فى نتاج الرجل الذى عاش على ضفاف النهر فى خصب ورغد من العيش .

والسودان بلد مترامي الأطراف فيه صحارى لايحدها البصر وفيه جبال منها الشاهق الأشم ومنها المتوسط الإرتفاع ولكنه منيع لايمكن تسلقه وفيه بقاع على ضفتى النيل كثيرة الخصب فياضة باليمن والبركات ، وفيه أجزاء واقعة على ساحل البحر الأحمر فى الغالب غير مأهولة وفيه غابات وأدغال ووحوش ووعول . يتمتع القسم الشمالى منه بشمس ساطعة وقمر فضى متلألىء يفيض أحياناً على تلك القرى النائمة الساهية فيرسل الى من فيها الحياة والشوق والحنين فيلبون داعى الحياة والشباب والحب فتقوم حلقات من الفتيات والشبان تغنى وترقص وتنسى لحظة هموم الحياة وتسبح بما لبديع خلق الله من آيات بينات . ويكاد القسم الجنوبي يتحرق شوقاً إلى روءية الشمس والقمر مدى أشهر من السنة حيث السحب الكثيفة والأمطار الغزيرة ، ولكن ذلك القسم فيه من جمال الطبيعة وخصب الأرض ماينسى الناس الشمس ودفأها والقمر وسحره .

والسودان أرض خصب حيث يجرى النيل ويهمى الغيث وأرض اجداب حيث لانيل ولامطر ، فقره مدقع وسكانه قليلون منتشرون فى هذا الفضاء الشاسع من بيد وفياف وجوههم كالحة من لفحة الشمس المحرقة وأفاضت عليهم صبغة الله بفضل الوراثة وطبيعة

هذه البلاد الحارة السواد آونة والسمار أخرى وإنك لواجد الفينة بعد الفينة صفرة تنسى اليهود الذهب .

ولهذا فنحن قوم شدة كجبالنا وكرب كصحرائنا ، فى طباعنا جد لأن الحياة لم تبسم لنا كما بسمت لغيرنا من عباد الله . عندنا كرم حاتمى كفيض النيل المبارك يأتي بالخصب من أعماق الحبشة ليقذف به على دلتا النيل عند البحر الأبيض المتوسط . تسفر المرأة فى البادية وتتحجب فى المدن . رجالنا جوابو أودية طلاعو ألوية ألفوا الغابات والأدغال والوحوش فأصبحوا لايهابون الإقدام على المخاطر وعكست سماؤنا الصافية الساحرة صراحتها على نفوسنا فصارت فى طباعنا صراحة قل أن نجدها فى غيرنا .

ولقد جعل ترامى أطراف البلاد من العسير إدارتها ونشر التعليم فيها بسهولة فكان طبيعياً أن نجد بيننا الجهلاء الذين لايزالون يؤمنون بالخرافات وأحاجى الغول والسحرة ويعتقدون فى « الكجور » ، كما أن بيننا من عرفوا الحياة حق المعرفة وتأثروا بما يتأثر به شباب القرن العشرين من النظريات العلمية فيحدثون عن نظريات التطور والجاذبية والنسبية وموجات الأثير كما يتحدث عنها رصفاؤهم فى البلاد الغربية أو الشرقية المتمدينة .

وهذا الإختلاف وحده قمين بأن يجعل تخيلات أهل هذه البلاد وأمانيهم وأحلامهم غير تخيلات وأماني وأحلام الأمم الأخرى ، وحوادثها وأخلاق أهلها وتقاليدهم غير حوادث وأخلاق وتقاليد أهالى البلاد الاخرى . وبدهى ان يكون لكل ذلك أثر فى تكوين الحركة الفكرية فى هذه البلاد وتوجيهها نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

— ٦ —

علينا أن نقف لنرى نتاج تلك الحضارات المتعددة والديانات المختلفة والدماء المتداخلة والثقافات التى تعاقبت على هذه البلاد من فرعونية ويونانية ورومانية كما نرى نتاج الثقافة العربية قديمها والحديث ، ونتاج هذه الثقافة الغربية الدخيلة ، وأثر هذه البلاد المتنوعة الأجواء والظواهر .

لغة التعبير والإفصاح فى هذه البلاد هى لغة الضاد ، وحتى هذه اللحظة لم يصدر فى بلادنا من أدب بغير هذه اللغة العربية . وتطور اللغة العربية فى هذه البلاد وإن كان مختلفاً بعض الشىء عن بلاد الشرق العربي الأخرى إلا انه مساير لها فى جميع أطواره .

فلقد كان النثر المتعارف فى هذه البلاد حتى الفتح الأخير فى عام ١٨٩٨ هو السجع أو ماشابهه من لغة الكتابة التى تكثر فيها المترادفات والمحسنات اللفظية والبديعية ويغلب عليها الإهتمام بالجرس أكثر من الإهتمام بالمعنى وتحديد الغرض . والسودان فى ذلك كغيره من امم الشرق، فهذه سوريا ولبنان وما جاورهما إستمرت على ذلك النوع من السجع حتى زمن الشيخ نصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) والشيخ بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣) ولاغرابة فى ذلك لأن نصيف اليازجى لم يكن ليجد الكتب مطبوعة ميسورة ، وكان لابد له من الرجوع الى المخطوطات المحفوظة فى بعض المكاتب الخاصة ومكاتب الرهبان ، ولما كان له من الإسم والحرص على المعرفة ، فقد وجد سبيله إلى تلك المخطوطات ممهداً، فأخذ يقبل عليها يحفظ مايراه هاماً منها عن ظهر قلب وينقل بخط يده مالا يستطيع حفظه، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى الضائع من التراث العربي وأن يزيح عنه النقاب، ومنذ ذلك الأوان أصبح شغله الشاغل إحياء ذلك التراث، وقد تنبهت فى نفسه عواطفه العربية فكان رائد حركة البعث التى ظهرت فى أيامه والتى كانت النواة الأولى لإحياء اللغة العربية . وقد إستعان رجال الإرسالية الأمريكية بمواهبه فى وضع كتب مقررات النحو والمنطق والخطابة والبيان والبديع وظلت كتبه ردحاً من الزمن خير عون للأساتذة والطلاب . ولم يكن جهد بطرس البستاني بأقل من جهد صاحبه فقد ترجم كثيراً عن اللغات الأجنبية، كما ساعد على ترجمة الإنجيل وكفاه فخراً أنه صاحب معجم محيط المحيط، ومعجم قطر المحيط، وصاحب دائرة معارف البستاني التى أنجز منها ستة مجلدات قبل موته فى عام ١٨٨٣ ولقد مات الرجل بالسكته القلبية فى الليل عندما كان يعمل فى دائرة معارفه ،وقد وجد مسطحاً على أرض حجرته وقلمه فى يده وأكداس من الكتب على قمطره . وخير عمل قام به البستاني تأسيس بعض المجلات الأدبية كمجلة الفنان التى أسسها فى عام ١٨٧٠ وكانت مجلة أدبية وسياسية الغرض منها التفاهم والإتحاد من أجل الصالح الوطنى العام وكان شعارها « الوطنية ركن من أركان الإيمان » وقد ساهم فى تحريرها والكتابة إليها كثيرون من كتاب الشرق العربي وسوريا ولكنها كانت تستمد قيمتها من قلم صاحبها ومن قوة عزيمته ومما كان يرمى إليه من توجيه الأفكار وتكوين الرأى العام فى شيء من التسامح وسعة الأفق .

ولقد تمخضت هذه الحركات الأدبية عن نوع من النثر لم يكن من قبل مألوفاً وظهر الى عالم الوجود هذا النثر المرسل الذى لاكلفة فيه سوى إفصاح عن الغرض فى

اسلوب عربي فصيح فى أقل عدد ممكن من الكلمات السهلة المألوفة ولقد إحتضنت مصر هذه النهضة الحديثة وأعطتها من العناية الكاملة ماجعل الأسلوب العربي ينمو ويترعرع ويساير مثيلاته من لغات اوربا الحديثة في مرونته وسلامته . ولقد ساعد على إحياء اللغة العربية فى تلك البلاد ومعها الحركة الفكرية التى فى برهة وجيزة إنقلبت من حركة ادبية إلى حركة سياسية ساعد عليها تأسيس مطبعة عربية فى القسطنطينية فى سنة ١٨١٦ وأخرى فى القاهرة فى عام ١٨١٦ وهى المعروفة حتى الآن بمطبعة بولاق ، كما تأسست بعد ذلك بوقت وجيز مطبعة الأمريكان فى بيروت ومطبعة الآباء اليسوعيين في عام ١٨٤٧ فقد زودت هذه المطابع العالم العربي بكثير من الكتب العربية القديمة التى لم توجد حتى ذلك الأوان إلا فى مخطوطات محفوظة فى بعض المكاتب العامة أو الخاصة .

وكان للأساتذة المصريين والسوريين الذين أتوا هذه البلاد بعد الفتح للتدريس فى المعاهد الحكومية أكبر الفضل فى إنتشار آداب اللغة العربية وتعميم اسلوب النثر الحديث . ولايزال الناس يذكرون بالفخر والإعجاب وبالشكران الزائد ماقام به أمثال الشيخ عبد الرءوف سلام والشيخ فؤاد الخطيب وغيرهما من أساتذة ذلك العهد .

ولكن الأسلوب العربي فى مصر والشام لم يبق على ما كان عليه فى القرن التاسع عشر بل دخله كثير من التحسين فى الصياغة وفى طريقة البحث وكان أن ظهر على المسرح الأستاذ أحمد لطفى السيد وصحبه وطلبته على صفحات الجريدة ، كما قد أشرقت بعد ذلك شمس الجامعة المصرية بنهجها الجديد وأدبها. فاتحفت البلاد العربية بالدكتور طه والدكتور زكى مبارك والدكتور هيكل، كما أشرقت شمس عبقريات لايرجع فضلها لى دراسة جامعية ولكن إلى جهود شخصية جبارة أمثال العقاد والمازني . لقد تأثر الجيل الجديد فى السودان بدراسة هؤلاء وغير هؤلاء وأخذت تلمح تحسينات فى الأساليب وتدقيقاً فى البحث وإشراقاً فى الديباجة فى أساليب أبناء هذا الجيل، وأول ماظهرت آثارهم الأدبية على صفحات مجلتى النهضة والفجر وعلى صفحات مجلة المرآة كما ظهرت على صفحات الجرائد السيارة ما أختفى منها ومابقى وإن أنسى لن أنسى فضل الحسين وعرفات على هذه النهضة الأدبية الحديثة فقد ظهرت أقلامهما قوية مشرقة عندما كانت الأقلام محطمة خامدة وإنطلقت تحبر الصحف وتوجه الرأى العام .

ولكن الرجل المخلص لايسعه إلا أن يلاحظ فى ألم وأمل ان هذه البلاد لاتزال متأخرة عن القافلة العربية، ولاتزال فى حاجة إلى كتاب ناثرين يجمعون بين قوة الفكرة

وإتساقها وجمال الأسلوب وسلامته. ينقطعون للدراسات الأدبية والتأليف ويخرجون من الكتب مايحمل طابع هذه البلاد ويضيف إلى خزانة المعرفة العالمية، وليس ذلك بكثير على بلاد تعاقب عليها ماتعاقب من الحضارات وإنتشر بين ربوعها ما إنتشر من الثقافات هي عصارة امم مختلفة ونتيجة ثقافات متباينة، عرفت الوثنية والمسيحية والإسلام وغلبت عليها أخيرا الروح العـربية وعمها الدين الإسلامي الحنيف وتمتعت بقطر مختلف الأجواء والمـظاهر.

لايزال هنالك مجال للإبتكار والتجديد فهنالك فى هذه البلاد تربة عذراء لم تطرق بعد. هنالك الدرامة والقصة الطويلة والقصة القصيرة. هنالك تاريخ هذه البلاد برمته يحتاج إلى من يحققه ويغربله وينفى عنه مالصقه به الأجانب والمغرضون مـن المؤرخين ويكتبه فى نسق علمى صحيح ولغة عربية سهلة وجميلة. هنالك البحوث العلمية والبحوث السياسية التى يجب أن توجه هذا الشعب التوجيه الصحيح نحو حريته وإستقلاله كل هذه تنتظر المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة.

— ٧ —

لم يكن حظ الشعر بأحسن من حظ النثر وان سبقه، لأن الشعر الذى كان معروفا فى هذه البلاد حتى إلى ما بعد الحرب العظمى لم يكن سوى مدح ونسيب ورثاء، ولم يعد الألفاظ والأوزان، وهوفى جملته نظم أكثر منه شعراً، مواضيعه من العتيق البالى، ولو لاما كنا نسمعه الفينة بعد الفينة من إستنهاض الهمم وإستذكار بعض مجد العرب والإسلام فى بعض القصائد التى تلقى فى رأس السنة الهجرية أو فى المولد النبوى الشريف لقلنا على شعرنا العفاء.

ولكن كما تأثر النثر بالنهضة التى ظهرت فى الشام ومصر كذلك قد تأثر الشعر وظهر جيل جديد من الشعراء.

ان عرق الشعر حى نابض فى قلب كل سوداني، فذلك الراعى الذى يضرب مزماره فى الفلوات وفى الليالى القمراء فيرجع الفضاء نغماته والذى طالما أثار فى النفوس لاعج الشوق والحنين وأعـاد إليها ذكر غـرام قضى وعهد دثـر، دليـل تلك الشـاعرية المتمكنة من النفوس. والجندى السوداني حاذق فى فن الموسيقى يقيـد كل لحـن يسمعه من حفيف الشجر وتغريد الطيور وخرير المياه ونغمات البشر وهذه الحاسة الموسيقية

الدقيقة دليل على دقة الإحساس ورقة الشعور المتأصلة فى طبيعة النفوس ودليل قاطع على أن هذه البلاد شاعرة مغرية بالشعر فإن مايكسوها من البساطة ومايهيمن عليها من الهدوء ومايكتنفها من الغابات على شواطىء النيل ومايغطى سماءها من السحب وأرضها من الخضرة فى فصل الخريف ومافيها من السهول المنبسطة والوديان الخصبة والتلال الرملية والجبال الممتدة والنخيل المتعانق لجدير أن يبعث فى النفس شعراً غاصاً بالجمال. وان مافيها من المآسى والمضحكات ومايمر بها من إحن وآلام وماتسمو إليه من مجد وعمران لميدان تسبح فيه الأفكار وتجيش العواطف فيبتكر الشاعر وينتج ماشاء له الإنتاج .

ولكن أين نتاج ذلك . ؟

أين أثر هذا الجمال الطبيعى والكوارث الإجتماعية والعبر التاريخية ؟

لقد تأثر الجيل الجديد من الشعراء بخطوات مصر والشام ولكن فى الوضع فقط لافى نهج التفكير والتأثر بالمواضيع المحلية من وصف وإجتماع وتاريخ . فالمجيدون من شعراء هذا الجيل يحسنون الغزل وغير المجيدين نظامون فحسب .

مواضيع الشعر الجيد فى هذه البلاد كثيرة فانظر إلى تلك الملاحم التى تخلد الغزوات والحروب فى تاريخ السودان وقبائله التى نظمها بعض المغنين فى الدوبيت . وأنظر إلى تلك القصص الغرامية أمثال قصة تاجوج التى إذا وجدت من يأخذها ويهذب من وحشيتها ويضع فيها من الخيال مايكسبها رونقاً فنياً ويضعها فى شعر رصين لكانت مثاراً لإعجاب الأمم الأخرى بشعرنا وإهتمامها بآدابنا . وطبيعة السودان ومافيها من حسن فى حاجة إلى من يعيرها لساناً ناطقاً يفصح عنها ويصورها للناس فى شعر جزل جميل حتى يفهموا مالهذا البلد من حسن فتان . فشعر الملاحم والأوبرا وشعر الوطنية من تخليد للبطولة وتصوير لجمال البلاد كل تلك فى إنتظار المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة .

وشعراء هذا البلد ينقصهم التوفر على فنهم والإضطلاع بصعاب البحث والتنقيب قبل العمل وينقصهم الإطلاع على منتجات شعراء الغرب للوقوف على أساليبهم وطرائف بحثهم حتى يجىء شعرهم جديرا بالخلود مع نظائره من شعر هذا العصر فهم يحسبون ان الموسيقى فى الشعر هى الوزن واستقامته . وفات معظمهم ان تناسب الألفاظ مع بعضها وجمال رنينها الذى تحدثه فى الأذن ومخارجها كل ذلك له أثره فى الموسيقى . ان خير الشعر ما كان أحسن الألفاظ فى أحسن نظام .

وهذا النقص سهل إصلاحه ويحتاج إلى جهود الشعراء والنقاد الذين يوجهون الشعراء ويختارون النماذج الصالحة منهم للبقاء حتى تتجه الحركة الفكرية فى هذه البلاد والشعر بوجه خاص صوب المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة .

— ٨ —

هذه هى الحركة الفكرية عندنا حتى الآن .

وهذا هو مستقبلها يطالعنا من خلال هذا الإستعراض لماضى هذه البلاد وحاضرها ولما تستوجبه طبيعة الأشياء فيها وما توحيه من مثل أعلى لهذه الحركة الفكرية المنشودة .

فما هو المثل الأعلى الذى يجب أن تسير نحوه هذه الحركة الفكرية ؟

وكيف السبيل الى ذلك ؟ .

المثل الأعلى للحركة الفكرية فى هذه البلاد أن تكون حركة فكرية تحترم شعائر الدين الإسلامى الحنيف وتعمل على هداه وان تكون عربية المظهر فى لغتها وذوقها مستلهمة فى كل ذلك تاريخ هذه البلاد الماضى والحاضر مستعينة بطبيعتها وعادات وتقاليد وأخلاق أهلها متسامية بكل ذلك نحو ايجاد أدب قومى صحيح وتنقلب فيما بعد هذه الحركة الأدبية إلى حركة سياسية تؤدى إلى إستقلال هذه البلاد سياسياً وإجتماعياً وفكرياً .

هذا هو المثل الأعلى لمرمى الحركة الفكرية فى هذه البلاد ويبدو فى ظاهره قصياً ومعجزاً والسبيل إليه وعرة تحتاج إلى جهود الجبابرة وعمل الأجيال ، ولكن المثل الأعلى لايعرف التوسط ولابد فيه من الكمال ، فلنوضح مثلنا الأعلى ولنرسم طريق الوصول إليه فلن تعدم هذه البلاد من يضطلع بعبء النهوض به من المخلصين المتعلمين من أصحاب المثل الأعلى من أبنائها البررة .

لابد لإستكمال حركتنا الفكرية من إستيعاب التراث الإسلامى العربي وليس الجهد الذى ينتظرنا فى ذلك كجهد الشيخ نصيف اليازجى وصحبه ، لأن التراث الإسلامى العربي قد طبع من هذه المؤلفات فى مصر والشام ، وليس علينا إلا أن نكب على دراسة ذلك التراث الاسلامى العربي دراسة دقيقة تقوم على التمحيص والنقد والمقارنات المتداخلة حتى نستفيد الفائدة الكاملة من ذلك التراث .

ورب سائل يسألني وكيف السبيل إلى دراسة ذلك التراث العربي الإسلامي وإستلهام الوحي منه؟ فأقول إن الدراسة لاتعرف غير الإنكباب والتحصيل، وعلى الذين يريدون منا أن يحيوا ذلك التراث وأن يستقوا منه خير المعلومات وأن يتسلحوا بأقوى سلاح عليهم أن يقبلوا على دراسة الموسوعات العربية أمثال الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ووفيات الأعيان للقاضى إبن خلكان وصبح الأعشى للقلقشندى كما عليهم أن يقبلوا على دراسة اصول الأدب العربي كالكامل للمبر د وأدب الكتاب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ وغير ذلك مما لايدخل فى عداد، وبهذا يستطيعون ان يتفهموا روح الأدب العربي الإسلامي ويتوفروا على خدمة لغة الأجداد وعلى إستيعاب المادة. وما الأدب فى جملته إلا مادة واسلوب فالمادة هى ما يعالجه الادباء من موضوعات تختلف باختلاف الزمان والمكان والأسلوب هو الطريقة التى تعالج بها تلك الموضوعات.

لابد لمن يريد أن يتخذ الأدب صناعة له من تثقيف، وذلك ليلم بخلاصة الآراء عند من تقدمه من الأدباء ومن عاصره منهم وليرى ما وصل إليه سلفه ومعاصروه من الأدباء وليرى مابين نفسياتهم ونفسيته من شبه أو إختلاف، وليصلح ما أساءوا فهمه من أسرار الحياة وليتم مابدأوا بناءه من الأفكار الكبرى، كما لابد له من أن يسن سبيله فى الحياة ويكون فكرته عنها ويوجد طريقته المثلى التى يجب أن يسير عليها فى الإفصاح عن أدبه لذلك كان لزاماً على الأدباء فى هذه البلاد أن يقرأوا الأدب المصرى المعاصر كما يقرأوا الأدب الغربي المعاصر. والأديب الذى لم يقرأ للرافعى وطه وهيكل والمازني والعقاد وزكي مبارك من أدباء مصر ،أولم يقرأ لكتاب المقالة فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا أمثال «ماثيوارنولد»، و«هازلت»، و«لام»، و«لى هنت»، و«روبرت لوى ستيفنسن»، كما يقرأ للمعاصرين من الأدباء أمثال «ولز»، و«اليوت»، و«جون درنكوتر»، و«الدوس هكسلى»، ويقف على ترجمة بعض مؤلفات الفرنسيين من أمثال «أدولف تين» ، و« فولتير » ، و«روسو» ،و«أندريا موروا»، ليس بالأديب الذى يستطيع أن يضطلع بأعباء النهوض برسالة الحركة الفكرية فى هذه البلاد وتوجيهها نحو المثل الأعلى الذى يريده المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة.

لهذا كان لزاماً على آدبائنا وشعرائنا أن يلموا بالكثير من الأدب العربي الحديث فى مصر وجاراتها من بلاد الشرق العربي كما يلموا إلماماً حسناً باصول الأدب الغربي ويطلعوا على الحديث منه بوجه خاص قبل أن يحاولوا الأنتاج الادبي المثمر الذى يريده لهذه البلاد

المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة . لابد لنا من دراسة أرسطو و «هومر» ، و «فرجيل» ، و «دانتى» ، كما لابد لنا من دراسة «شكسبير» ، و «جيتى» ، و « هوجو » ، ودراسة المعاصرين من الأدباء الغربيين قبل أن نحاول إنتاج أدب نرضاه ليمثل امتنا التمثيل الصحيح .

إذا إستكملنا هذه العدد فلنتقدم نحو بلادنا ندرس تاريخها ونجوب أنحاءها لنتعرف شعابها المختلفة ونقف على مواطن الحسن فيها ونتقرب من شعبنا ، نعرف عاداته وتقاليده ونعرف مايتفشى فيه من خرافات وغباء وماتغلغل فى صميمه من كرم وأريحية وحب للخير فنصور كل ذلك فى أدبنا تصويراً صحيحاً ونفصح عن آلامنا وآمالنا ونوحد أغراضنا ونهيب بقومنا إلى النهوض من عثرتهم لإيجاد أدب قومى صحيح ينقلب من حركة أدبية إلى حركة سياسية تتوج جهودها بنيلنا إستقلالنا السياسى والإجتماعى والأدبي

وليس الى ذلك من سبيل إلا بإنهاض الأدب عامة والأدب القومى خاصة ولك ان تسألنى هنا :

كيف ينهض الأدب ؟ .

كيف ينهض الأدب القومى ؟ .

— ٩ —

ينهض الأدب بتربية الروح فى أفراد الشعب ودفعهم إلى القراءة واستيعاب مايقرأون وفهمه فهماً دقيقاً ولايمكن أن يقبل عامة الشعب على القراءة والإستيعاب والفهم إلا بمجهود الجبابرة من محبى الأدب الذين تتقد فيهم شرارته والذين يودون صلاحه. وجهود هؤلاء الجبابرة تنحصر فى تهذيب الأذواق وتحسين مقاييس الأدب وحماية ذماره وذلك بأن لايكتبوا الا ما كان جميلاً مقتبساً من المثل الأعلى للكمال ، وألا يقبلوا سواه من نفايات الأدباء ، وأن يكون هناك نقد نزيه صارم يحمى ذمار الأدب من الدخلاء والطفيليات ولا يكون أدب أولئك المخلصين جديراً بالخلود إلا إذا كان مبنيا على التجارب والملاحظة والإستنتاج الصحيح ، وإلا إذا كان مليئاً بالعاطفة النبيلة الملتهبة التى يكبح جماحها العقل ويضمن لها البقاء والإستمرار ويهذب من وحشتها لتكون غذاء صالحاً لا يعقبه تعسر فى الهضم ولا توعك فى الصحة. ويزين كل ذلك علم غزير ، ومعرفة شاملة للضرورى من الأصول التى تترتب عليها إستقامة الذهن الإنساني والمنطق الصحيح . كل ذلك فى اسلوب سلس كنجوى المحبين لايقطع إنسيابها إلا هصر راح براح وتصاعد الأنفاس وقد تلاقت الشفاه بالشفاه .

ولابد لنهوض الأدب من إيجاد الجمعيات الأدبية والمجلات والصحف السيارة التى تنطق بأسم تلك الجمعيات ولابد من وجود الصداقات الفكرية التى يربط بين أفرادها توحيد المثل الأعلى وتقارب المشارب وتوحيد المرمى . أما الجمعيات الأدبية ومجلاتها فأثرها فى تقدم الآداب واضح فى هذه البلاد وفى غيرها ، فخذ مثلاسوريا ولبنان تجد ان نهضة الآداب فيها ترجع إلى جمعيات أدبية ثلاث : الأولى أسستها الإرسالية الأمريكانية فى بيروت فى عام ١٨٤٢ بمساعدة نصيف اليازجى وبطرس البستاني ، وقد بلغت الجمعية أشدها فى عام ١٨٤٧ وسميت جمعية الفنون والعلوم ، وكان منها تقريب للشباب من روح الأدب الغربي ومساعدتهم على تفهمه ، وقد كانت للجمعية مكتبة متواضعة وكانت تلقى فـــى إجتماعاتها محاضرات دورية فى كل خمسة عشرة يوماً مرة ، وكان عدد أعضائها خمسين لم يكن بينهم مسلم ، وقد كانت هذه أول جمعية من نوعها فى البلاد العربية ، لأن الجهود المشتركة لترقية العلوم والفنون لم تكن معروفة فى الشرق العربي الذى يعتد فيه الفرد بنفسه حتى ذلك الأوان (١) . ثم كان ان أسس الآباء اليسوعيـــون جمعية كتلك فى عام ١٨٥٠ سميت الجمعية الشرقية حذت حذو سابقتها ولكنها أيضاً لم يكن بين أعضائها مسلم .

لقد إختفت الجمعيتان وقامت على أنقاضهما جمعية ثالثة تأسست فى عام ١٨٥٧ وكانت أكبر من سابقتيها ، وإمتازت عليهما بأن كان كل أعضائها من العرب ، وان إتسعت عضويتها للمسلمين والدروز والمسيحين على السواء . انها نتاج دعوة اليازجى للعرب أن يوحدوا كلمتهم على إختلاف عقائدهم فى سبيل خدمة اللغة العربية ، وجهود البستاني وحملاته لإزاحة كل الحواجز التى كانت تفصل بين العربي وأخيه العربي ، وقد سميت الجمعية العلمية السورية ، ولقد إعترفت بها السلطات فى سنة ١٨٦٨ وضمت عضويتها بعض الشخصيات البارزة خارج سوريا وخاصة فى الأستانة والقاهرة ، ولأول مرة فى تاريخ سوريا توحدت العقائد المختلفة والأحزاب المتباينة حول غرض واحد ومثل أعلى مشترك فكان الأدب السبيل إلى إيجاد جمعية غرضها الأسمى إستقلال بلادها وفخارها بالتراث العربي حبل إتصالها . لقد كان تأسيس تلك الجمعية أول مظهر من مظاهر الشعور القومى وأصبحت أهميتها فى التاريخ أنها حجر الأساس للنهضة السياسية فى تلك البلاد .

وطبيعى أن يكون بين أعضاء تلك الجمعية من تربط بينهم صداقة فكرية قائمة على المحبة والغرض الموحد والمثل الأعلى المشترك ، وأولئك وحدهم هم الذين لعبوا الدور الأسمى

(١) يقظة العرب لجورج انطونيوس

فى نجاح الحركة الأدبية والسياسية من بعدها، ففى إحدى الجلسات السرية لتلك الجمعية إرتفع أول صوت من أصوات النهضة العربية حيث القى الشيخ ابراهيم اليازجي قصيدة وطنية مطلعها «تنبهوا وإستفيقوا أيها العرب» على ثمانية من أصدقائه من أعضاء الجمعية . وكانت القصيدة إيقاظاً للمجد العربي حيث تغنى الشاعر بما شاده الشعب العربي النبيل من الأعمال وماخلفه من التراث والفخر وأشاد بعظمة الأدب العربي وأهاب بالعرب أن يتأثروا خطى أجدادهم وأن ينسجوا على منوالهم، ولقد ندد الشاعر بالتحزب والنعرات والتناحر فى سبيل شهوات بعض من يحلو لهم ان يستروا تلك الشهوات وراء المعتقدات الدينية، ناداهم بأن الدين لله والمجد للوطن. ولقد فتح العيون إلى معايب الحكم التركى ودعا مواطنيه إلى ازالة ذلك السلطان الغاشم . وزاد فى روعة القصيدة أنها كانت فى لغة ملتهبة واسلوب سلس وألقاها صاحبها فى صوت متهدج .

لم يكن من الحكمة ان تكتب تلك القصيدة وتنشر، ولكن تكفل الأصدقاء بحفظها ونشرها شفاها بين الناس، وماهى إلا أيام وشهور معدودة حتى دوت القصيدة فى كل البلاد العربية ينشدها الرجال فى دورهم والشباب فى الأندية والطرقات، وكانت هذه القصيدة الشرارة الأولى ليقظة العرب ، دون أن يعلم أحد فى ذلك الأوان عن الشاعر ناظم تلك الدرة الفريدة .

هذا عمل الجمعيات الأدبية فى سوريا ولبنان أما فى مصر فحسبى أن أذكر فى الماضى جماعة الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وفى العصر الحاضر جماعة الترجمة والتأليف والنشر . وعمل الجمعيتين فى سبيل النهوض بالأدب والثقافة وخدمة الحركة الوطنية معروف لدى الجميع . ولقد إستعانت الأولى ببعض جرائد أذكر منها العروة الوثقى، كما إستعانت الثانية على مهمتها بمجلة الثقافة .

أما عن أثر الجمعيات الأدبية ومجلاتها والصداقات الفكرية فى هذه البلاد فحسبى أن أذكر أثر جماعة الفجر وجماعة أصدقاء مدني، فالأولى أوجدت مدرسة فى الأدب لها طابعها الخاص ونفخت فى بوق الحركة الوطنية مرات ودوت صيحتها موفقة فى كثير من ميادين الحياة، وهاهو تراثها بين أيدى الناس لهم أن يقلبوه ويحكموا لها أو عليها. أما الثانية فقد تمخضت فى إحدى جلساتها عن فكرة مؤتمرنا العتيد وعاونتها فى ذلك مجلة الفجر ونادى الخريجين بام درمان وتمخضت فى جلسة أخرى من جلساتها عن فكرة المهرجان الأدبي، وأقامت أول مهرجان أدبي فى هذه البلاد. هذا عمل جمعيتين أدبيتين

ربطت بين أفرادهما الصداقة الفكرية توحدت أغراضهم ومثلهم العليا فعملوا مخلصين متفانين فى سبيل أمتهم . فكيف إذا كثرت هذه الجماعات وإتسعت عضويتها وتعددت أغراضها، لاشك فى ان النتيجة ستكون توجيه الحركة الفكرية فى هذه البلاد نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

العطف الشامل والخلق الرصين وإنكار الذات هى عماد الصداقة الفكرية يعززها الذوق الأدبي السليم الذى يمكن صاحبه من تفهم غيره من الأدباء والمفكرين وتقديرهم والعطف عليهم وإنها لتحتاج إلى كثير من التضحية والإيثار، ولهذا لاتتوفر خصائها إلا عند القليلين من رجال الفكر الذين يصبحون حلقة وصل بين أدباء عصرهم ومفكريه ويعملون على وصل ما إنقطع بينهم كلما دبت الخصومات وإشتدت . وهؤلاء الأفذاذ يخدمون عصرهم ويهيئون للأدباء والمفكرين الجو الصافى لتبادل الآراء والسعى وراء المثل الأعلى والتسامى بالإنسانية نحو الكمال .

ولكن ماذا تفيد الجمعيات الأدبية والصداقة الفكرية فى إنهاض الأدب إذا إنعدم الناشر الأدبي. لانهاض الأدب نهوضاً صحيحاً لابد من إيجاد الناشر الأدبي الذى يشجع الأدباء ويقبل على نشر منتجات أفكارهم فيغريهم بزيادة الإنتاج . لم تعرف بلادنا حتى الآن الناشر الأدبي . فالمطابع التى عندنا مطابع تجارية وليس بين أصحابها من يعطف على الأدب والأدباء ويتعهد ثمرات الكتاب والشعراء بالطبع والنشر . وإلى ان يوجد الناشر الأدبي أو تتألف عندنا جمعيات أدبية لذلك الغرض فلا يمكن أن يزدهر الأدب فى هذه البلاد . ولقد عمل بذلك الأديب الاسكتلندى الذائع الصيت و«ولتر اسكت» عندما أراد النهوض بالأدب القومى فى إسكتلندا فأسس شركة للنشر الأدبي وقومها بدخله من القضاء وثمن بعض مخطوطاته التى باعها لبعض الناشرين، وبذلك إستطاع الرجل أن ينهض بالأدب فى بلاده، ولولا ماتكبده من خسارة فى شركة النشر لأثرى من دخله من القضاء ومؤلفاته، لكنه كان أديباً مخلصاً لفنه ووطنه فلم يعبأ بالثروة .

فهل لهذه البلاد من المثرين من أبنائها من يقوم بهذا العبء فيساعد على نهوض الأدب وتوجيه الحركة الفكرية نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة .

بقى علينا ان نعرف ماهى مقومات الأدب القومى وكيف السبيل إلى ايجاده .

إذا إستقصينا تاريخ حركات نهوض الأدب القومى فى كل الأمم نجد أنه يتوقف أولاً على إحياء لغة الأجداد وبعثها والتعصب لها . ويرى المطلع على تاريخ الأدب الأنجليزى أن الناس كانوا حتى عهد «تشوسر» يكتبون باللاتينية أو بلغة فرنسية تعتورها كلمات إنجليزية غير مستقيمة . وكان ان قام «جون ويكليف» وتلامذته بنقل الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية وقد ظل حتى الآن مرجعاً لغوياً يحج به . وقد نظم «تشوسر» قصائده باللغة الإنجليزية السليمة فجاءت برهاناً على انتقال أمة من عصر لعصر وشعورها بكرامتها القومية وتمجيدها للغتها وتلمسها روح تلك اللغة وميزتها . ثم جاء «شكسبير» بفنه وأدبه الغنى الخالد .

ولابد للأدب القومى قبل أن يزدهر إزدهاراً صحيحاً من تشجيع القائمين بالأمر من ملوك وحاكمين وإجزال العطاء للأدباء المنقطعين لأدبهم وتصوير مشاعر أهل البلاد والإفصاح عن آلامهم وآمالهم . وفى بلد كبلدنا هذا لايزال تحت الحكم الأجنبى لايمكن أن يظفر الأدب القومى بتشجيع القائمين بالأمر إلا إذا كانت الشخصيات التى تشرف عليه وتعمل لإحيائه شخصيات قوية لها مكانتها المرموقة بين أبناء الشعب وخطرها عندالحاكمين وكان الحاكمون أنفسهم من أرباب الثقافة العليا المهتمين بالآداب المتفانين فى سبيل خير الإنسانية والذين يرون أن تحقيق ذلك الخير رهين بإزدهار ثقافات العالم أجمع والتقائها عند ذلك الغرض المشترك مع إحتفاظ كل واحدة منها بطابعها المحلى ومميزاتها الخاصة .

ولابد لإزدهار الأدب القومى من قيام المسرح الذى تمثل فيه روايات من وضع أدباء البلاد ، تصور حياة الشعب وتشخص أدواءه وتصف الدواء ، وهذا يحتاج إلى جهود جبابرة الفن والمؤلفين وتعاونهم ، كما يحتاج إلى معونة الحكومات وعطفها الشامل من رعاية وتخصيص للجوائز .

وهناك خطوة تكون دائماً بمثابة التمهيد لإيجاد الأدب القومى ، ألا وهى الترجمة من اللغات الأخرى لروائع الأدب قديمها والحديث ، على أن تكون ترجمة دقيقة يتوفر عليها كبار الأدباء الحاذقين لغتهم حذقهم للغة التى ينقلون عنها . ولقد قامت لجنة الترجمة والتأليف والنشر فى مصر بمجهود طيب فى هذه الناحية ، كما أنه ليس عجيباً أن نسمع فى